دائرة المعارف الأدبية العالمية

— ٢ —

الأدب الانجليزي

تأليف

پول دوتان

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تقديم

ليس في نيتنا أن نكتب كتاباً جديداً في تاريخ الأدب الانجليزي، للطلبة. أضف إلى ذلك أن هناك كتبا ممتازة في هذا الموضوع، ككتاب الأستاذين لِجوي وكازاميان، الذي لا يفوقه كتاب. وإنما نحن نرمي إلى غاية أخرى. فقد راعينا مستوى القارىء المتوسط من جمهرة الناس الذين يحبون أن يثقفوا أنفسهم، فحاولنا أن نستخرج من الأدب الانجليزي ما بقي منه حياً بالفعل، فمررنا مرور الكرام على الكتاب الذين لا يعني أمرهم غير المختصين، بل أغفلنا ذكرهم إغفالا في بعض الأحيان، ووقفنا وقفات طوالا على العهود الأخيرة والمعاصرة ...

وقد يرى بعضهم أننا ضللنا سواء السبيل، ومهما يكن من أمر، فإن خطأنا — إن كان ثمت خطأ — قد صدر عن سلامة نية وحسن إيمان. أضف إلى ذلك أننا نريد لهذا الكتاب أن يكون مرشدا لا أكثر. وكل ما نرجوه أن يساهم في أن يحبب إلينا هذا الأدب الذي يشبه أدبنا من كل الوجوه.

بول دوتان

الفصل الأول

الأدب الانجليزى قبل تشوسر

---

١ – الليل الانجلوساكسونى

جرت العادة من قديم الزمان أن يبدءوا تأريخ الأدب الانجليزى بأولى قرزمات[1] الغزاة الساكسون . فعملا بهذه القاعدة التقليدية المرعية ، ونزولا على إرادة هذه الأحكام السابقة المحترمة ، إنما نتحدث الآن حديثا موجزا عن الأدب الانجلوساكسونى .

تسمى بهذا الاسم طائفة من المؤلفات كتبت بلهجات جرمانية مختلفة ، ونبشها الباحثون من زوايا النسيان إبان القرن التاسع عشر . وهى تعنى الباحث اللغوى عناية عظيمة ، إلا أنها لا تعنى مؤرخ الآداب فى شىء . وحين ظهر الرعيل الأول من الكتاب الانجليز الحقيقيين فى القرن الرابع عشر ، كانت هذه المؤلفات قد ماتت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يفك رموزها لو شاء ذلك . . .

وياليتها تنقل إلينا ذلك الشعر البدائى الخشن . . . شعر

---

(١) عرزم الشاعر شعره : جاء به ردیئا .

الانجليز والجوتلانديين والساكسون الذين استولوا على كل انجلترا (ما عدا المناطق الجبلية فى الغرب والشمال) فى نهاية القرن السابع ! إن هؤلاء الوثنيين الجفاة كانوا قد اعتنقوا النصرانية أفواجاً فى نهاية القرن السادس . « فأدبهم » أدب مسيحى ، يحاولون أن يدخلوا المسيحية فى كل شيء . فالشماسون الذين نقلوا قصص الأجداد فيما بين القرن السابع والقرن التاسع ، أبدلوا كل ما كان يخالف دياناتهم . فأثقلوا النصوص ، حتى يعصروها ، بما يطاق وما لا يطاق . إن الأدب الأنجلوساكسونى أدب هجين : وليد رهبان علماء وبرابرة مطاويع . . .

على أننا نستطيع أن نكتشف فى شعر الشعراء الأنجلوساكسونيين الذين يسمون بالمنشدين فنونا باقية من الجبال . ولا سيما فى وصف البحر . وبينما نرى البحر فى الآداب السلتية طريقاً يؤدى إلى أرض غريبة عجيبة ، نرى البحر عند هؤلاء الأنجلوساكسونيين قوة هائلة قائمة ، تكره وتحب فى آن واحد .

ولغة هذه القصائد لغة جافة صخرية تسود فيها الأحرف الخرساء ، تنفجر وتفرقع ، ويتطاول بعضها على بعض ، وتشدد فى بداية الكلمات ، فكأن هذه اللغة قد وجدت لتدوى فى أرجاء

[illegible] الأبيات [illegible] هذا [illegible] بالاصطلاح [illegible] مطردين لا يتألف أحدهما من عدد معين من المقاطع ، ولا يجمعهما غير تشابه الأصوات .

والشعراء الأنجلو ساكسونيون مولعون جميعا باستعمال الأحاجى التى تتميز بها الشعوب الطفلة . ويتجلى ذلك فى إكثارهم من الدور فى الكلام . فكلما كانت العبارة أعقد كانت أدنى إلى القبول والرضى . فتراهم لا يقولون « الأرض » بل « حظيرة الجو » ، فإذا قلت « السيف » كنت تستعمل كلاما عاميا . أما إذا شئت التعابير النبيلة الراقية فقل « سيد السلاح » ، و « الثروة العالية » و « الحلية اللامعة فى المعارك الحامية » . وإذا سمعت أحدهم يقول « سائح الأمواج يمخر ، على خشبة البحر ، طريق الحيتان » فاعلم أن ترجمة ذلك هى : الملاح يعبر على قاربه البحر . والمصيبة أن هذه التعابير المركبة — وهى أصيلة عند من ابتدعها — لا تلبث أن تصبح كليشيهات . ومما يزيد فى غموضها ما يعمدون إليه من تركيز الأسلوب حتى يصبح أشبه بأسلوب التلغرافات ، وما نلاحظه من تغير فى الموضوع بدون ما داع ، ومن تراكم الاستعارات فى غير ما انتظام .

وهذا الرأى بالإجمال هو الذى أدى بالمتأدبين إلى نظم أشعار شعبية تتصل بالطبيعة وبالحياة اليومية . وكثيرا ما يخرج عن قواعد العروض ، وتسخر من القواعد المقدسة . ومن ذلك فلعل هذه القصائد المختصرة أن تكون أشيع ما فى الشعر الأنجلو سكسونى إلى الاختيال .

أما القصائد الطويلة فما أقل أحدا يقرؤها راضيا ، كالملحمة بيولف الكبيرة المؤلفة من ٣١٨٢ بيتا ، والتى اقتبسها أحد الشماسين فى القرن العاشر من أسطورة دانماركية قديمة ، يريد أن يعزف لها مسيحيا على طبول وثنية .

وتروى لنا هذه الملحمة كيف أن « بيولف » بطل الغوت مضى إلى نجدة ملك الدانيماركيين ، الذى كان يسكن قصره شيطان فى صورة إنسان يدعى جرندل . فلما وصل « بيولف » اشتبك مع الشيطان فى معركة حامية ، جسما لجسم ، وما زال به حتى انتزع إحدى ذراعيه . ويموت الشيطان فى مغارته ، فيبدو للقارىء ان القصة انتهت ، ولكنها ما تلبث أن تقفز مرة ثانية ، فإن لجرندل أما أشد من ابنها بأسا ، وأصعب مراساً . تهب للانتقام من ابنها ، فينبرى لها بيولف ، وما يزال يلاحقها حتى يصلا إلى مغاره تحت البحر ، وهناك يشتبكان فى معركة حامية تنتهى بظفر البطل وموت الجنية .

ثم تستأنف الحكاية مرة ثالثة . فإن بيولف يصبح ملكا ، ويحكم مدة طويلة ، فيجتاح مملكته تنين تندلع من فمه ألسنة من اللهب . فيدفع صاحبنا ، إنقاذاً لشعبه ، إلى منازلة التنين ، فيظفر عليه ، ولكنه يجرح جرحا قاتلا . . . فيموت . .

ولا شك أن قد كان فى هذه المراحل الثلاث مادة صالحة لحكاية جميلة . ولكن مؤلف « بيولف » رجل حزين ، فلم يستطع أن يغنى فرح القتال . وكان يعوزه الخيال على وجه الخصوص : فلعل فى إمكان صبى صغير أن يصف موت الجنية بأكثر من تلك الإشارات السريعة التى وصفه بها الشاعر ، حيث قال : « كان كالوحش فى النضال ، قد يئس من حياته ؛ فاستولى عليه الغضب فأغمد رمحه الصلب فى عنق الشيطان فحطم عظامه وهشم لحمه ، وخرت الجنية على الأرض »

وبعد، فهل نجد فى القصائد الدينية تلك النغمة الحماسية التى أعوزت بيولف ؟ كلا ، للأسف . على أن هناك أسطورة جميلة تجعلنا نعتقد أن الوحى الإلهى لم يعوز المنشد الأول الذى غنى ملحمة الانسان . كان يدعى كِدْمُون ، وكان يعمل خادماً فى دير هِلْدْ . وكان امرأً خجولا جاهلا ، حتى أنه

كان ، إذا أتى دوره فى الغناء فى الحفلات والولائم ، يهرب خجلا وحياء . وفى ذات ليلة ، بعد أن هرب فى مثل هذه المناسبة ، وترك قاعة الشراب ، مضى إلى الاسطبل الذى كان يخفره ونام . وإنه لفى إغفاءته الأولى ، إذا بكائن من نور يأتيه فى المنام ويناديه : — « كدمون ، غن لى شيئا » . فيجيب : — « أغنى ؟ إنى لا أحسن الغناء . ومن أجل هذا تركت المائدة ، وأتيت إلى هنا » ، فيجيبه الملاك : — سوف تغنى مع ذلك .

— ولكن ماذا أغنى ؟

— غن لى نشيد الخلق .

وأخذ كدمون ينشد أبياتا فى تمجيد الخالق . فلما استيقظ تذكر هذه الأبيات . ودهش الذين كانوا حوله دهشا عظيما ، ومنذ ذلك اليوم أصبح يعد شاعرا كبيرا .

إلا أن الملاك الذى ظهر لكدمون لم يكن ، وأسفاه ، يملك سلطة تامة . فإن كدمون وتلاميذه قد خلفوا لنا قصائد غاية فى البلادة ، فنظموا التوراة نظما أخرق ، وأفقدوها ما فيها من قوة رائعة ومذاق عذب . ولكنهم كانوا فى بعض اللحظات يستردون شيئا من القوة البربرية حين يصورون الشيطان وهو يعول من الغضب .

وهناك كذلك شيء من التنوع في بعض أشعار كنولف وهو من فتيان المنشدين، وكان في شبابه نبيل نورثمبريا، وكان فارسا جميلا، يؤلف الألغاز، وينظم شعرا في الحروب، ويشرب الخمر، ويمجد الحب. ولكنه على أثر حلم ظهر له فيه الصليب المقدس اشمأز من حياة المجون ولم ينظم بعد ذلك في غير التقوى. وأحسن قصيدة ملحمية له هي «المسيح»، وفيها يتغنى بالتجسد والقيام والحكم الأخير.

أما النثر الأنجلوساكسوني فهو أقرب إلى الدقة وأدنى إلى الانسياب الطبيعي، ولذلك بقي حيا أكثر من الشعر. والحق أنه يتتبع خطى اللاتينية، حتى إذا ابتعد عنها رأيته يتعثر ويظلم. وقد أمر الملك ألفريد، قاهر الدانماركيين في القرن التاسع، بترجمة آثار بعض الشماسين المصطفين أمثال أوروز، وبوئيس، وبيد والقديس جريجوار الكبير، وبفضله خرجت رواية الأخبار الانجلوساكسونية عن كونها تعدادا جافا للوقائع، وأصبحت تحتوي على قصص تاريخي حقيقي. فعاش هذا الملك على رأس نهضة أدبية عقلية أخلاقية. ولكن المؤسف أن هذه النهضة لم يكن لها غد.

والفنان الوحيد في النثر الانجلوساكسوني هو الراهب

إلفريك الذى أكسبه الإرهاب الأكبر فى العام الألف لهجة موثرة صادقة ، وقد كتب كتبا فى حياة القديسين لا يزال لبعضها كـكتاب « حياة إزولد » و « حياة إدموند » و « حياة سوذن » قيمة لدى المهتمين بالكتابات الدينية . وقد خلف كذلك خطبا فى نثر موزون لا يخلو من التناغم والإنسجام . ولعل فيه استعدادا لأن يكون شاعرا كبيرا ، ولكن اللغة التى كانت فى متناول يديه كانت من الفقر بحيث لا تسمح له أن يعبر عن رؤاه وأحلامه على النحو المنشود .

٢ — الفجر : عهد الانجليزية الوسطى

لقد غير الغزو النورماندى (١٠٦٦) العادات الانجليزية تغييرا حاسما إن لم يظهر تأثيره فى ميدان الأدب بمثل السرعة التى ظهر بها فى ميدان الإدارة . فقد كان تأثيرا عميقا فى الجوهر والصورة جميعا .

وأصبح الكتاب الانجليز منذئذ يتوخون النظام والوضوح والمنطق ، وأصبحوا يغنون الفرح والحب والموسيقى ، وأخذ الناثرون يضيفون إلى المفردات الساكسونية ألفاظا فرنسية ،

واستفادوا من التركيب الفرنسى المرن الذى يطلق القلم وييسر التعبير ، وأصبحنا نرى الشعراء لايعوون عواء على النحو الذى رأينا ، بل يتحدثون عن عواطف القلب واندفاعات النفس فى كلام لين جميل ، فالأحرف الخرساء تفسح المجال للأحرف الصوتية ، والوزن يرقى إلى القافية ، وعدد المقاطع يحل محل تشابه الأصوات .

وطبيعى أن النصوص الدينية ، سواء فى الشعر وفى النثر ، هى أوفر النصوص وأغزرها . ومنها مالا يطاق لحذلقته مثل «الأورميات» من تأليف الراهب أورم وهى نظم للأناجيل الأساسية . إلا أن منها مايمتاز بسذاجة رائعة مثل «سنه السيدات المترهبات» ، وهو كتاب فى الحياة المسيحية يتوجه به مؤلفه إلى ثلاث سيدات يرغبن فى العزوف عن العالم ، ومؤلفه أسقف لايدخر شيئا من النصائح فى تنظيم العبادات ، حتى ليدلى بنصائح فى اختيار الجوارب والغلائل وأربطة السيقان .

وتبلغ البراءة والسذاجة بالمؤلف أن كتابه يشوق القارىء الحديث أعظم الشوق . وما أجمل تلك الأوصاف التى ذكرها ريتشارد رول ، ناسك هامبول فى كتابه « وخز الضمير » ، عن الجحيم الذى يشرب أهله النار ويمصون رؤس الأفاعى .

وإنك لنتم في بعض النصوص الدينية الصرفة من حين إلى حين على روح شعرية ظاهرة ، كالمحاورة الشعرية الرمزية بين البوم والهزار التي تبتدىء بوصف جميل للطبيعة :

« بدأ الهزار يغرد ، في ركن من الوادى ، على غصن جميل ، ومن حوله أزهار كثيرة على سياج كثيف برى ، من طويل العشب ومخضوضر الخيزران . . . وغير بعيد من ذاك يقبع جذع قديم مقطوع ، يغشيه اللبلاب ، وقف عليه البـــوم يرسل ألحانه .

« ثم تبدأ المناقشة : أينا أحسن غناء ؟ أما الهزار فيقول إنه يغنى الشباب الطروب ، يغنى فرحة الحياة ومجد الخالق ، وبالغناء سوف يحظى بعطف السماء . وأما البوم فيزعم أن السماء تنكر هذا الإسراف . وأنه لا يحظى بعطف السماء إلا البر المتقشف المتعبد وأما من هو المحق فإن المؤلف لا يعلن في ذلك عن رأى ، والشبان والكهول هم الذين سيقطعون برأى ، كل وما جبل عليه »

وفى القصيدة الرمزية التي عنوانها « اللؤلؤة » (١٣٥٠) نسمع لأول مرة ، في الشعر الانجليزى الدينى ، نغمة صوفية : يفقد أحد الآباء ابنته مرجريت . وإنه لنائم على قبرها فى ذات يوم صائف ، إذا هو يحلم أنه يدخل بلدا من نور وجمال ، بلدا

[illegible] بالسماء لمعان النجوم . وعلى الشاطئ الآخر [illegible] النهر يرى الأب سفينة بيضاء كزنبقة مقبلة عليه . [illegible] [illegible] اللؤلؤة لابنته ويحسبها الرجل ابنته فيخاطبها . [illegible] المزينة باللآلئ ، ألست اللؤلؤة التي [illegible] عليها [illegible] فتجيبه [illegible] بأنه لم يفقد ابنته ، فإنما هي تعيش في روضة [illegible] وليس في وسعه أن يلحق بها ، وما غير الموت بقادر على أن يجعله يعبر النهر . ثم تشير إلى رابية يستطيع أن يرى منها القدس الجديدة . فيبادر الرجل إلى الرابية مسرعا . ويطلع القمر . فإذا به يرى بين صفوف الملائكة وطوائف العذارى في ثيابهن البيضاء ، يرى لؤلؤته اللامعة ، في غمرة من النور والجمال والفرح . فيحاول جهد اليائس أن يلحق بها . . ثم يستيقظ منتحبا ، رأسه على قبر ابنته . . .

ولاشك أن خير الآثار غير الدينية في هذه الفترة هي القصائد الطويلة التي تسمى خطأ بالتاريخية ، والتي استمدت وقائعها من كتب التاريخ أو روايات الفروسية . ففي عام ١٢٠٥ كان هنالك راهب يعيش على حدود مقاطعة ويلز ، نظم ، شعرا ، كتاب « الفظ » لصاحبه ويس الانجلو نورماندى ، واستطاع هذا الراهب الذي اعتاد أن يعيش قريبا من السماء أن يحيط قصة « المائدة المستديرة » بجو من الخرافة والحلم لن يتبدد أبدا .

ونلمس تأثير المادة البريطانية فى أكمل قطعة من قصائد النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وهى « سير جوين والفارس الأخضر » . يروى الشاعر فى هذه القصيدة ، بلغة جافة صخرية ، من قوته وواقعيته . ما كان من أمر آرثر وفرسانه حين تحداهم عملاق أخضر يمتطى صهوة جواد أخضر . فاستجاب آرثر للتحدى فضرب من عنقه بحد فأسه .

وفى هذه الفترة لا يظهر الشعر القصصى كما يظهر الشعر الغنائى ولكن الكوخ الصغير الجميل خير من قصر منيف قبيح . فإن هذه القطع القصيرة التى خلفوها لنا فى هذه الفترة تحتفظ بالكثير من الشباب الغض والطراوة الغضة ، مما لا تتمتع به الآثار الطويلة .

« عاد الصيف — فلتصدح الأطيار ، ملء الحناجر
« نبت الزرع وأزهر المرعى — واخضوضر الغاب ، فغن يا أطيار »
« والماعز تجرى وراء التيس — ووراء ثورها تخار البقرة —
« والظباء تتواثب مرحة . لقد أتى الصيف فغن يا أطيار ، مرحة . »

ولم يظهر الرعيل الأول من كبار الكتاب الانجليز إلا فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر .

ولنذكر أولا تلك الخدعة الأدبية اللطيفة ، أعنى كتاب « رحلات سير جون ماندفيل » (١٣٧٧) المقتبسة عن جان دى بورجونى الفرنسى . وكان يعد دليلا للحجاج الراغبين فى أن يعرفوا شتى

الطرق المؤدية إلى القدس . وفيه يصف لنا ماندفيل (وليس له من وجود) العجائب التى رآها : وديان يسكنها جن وأقزام ، أنهار إذا اغتسلت فيها عاد إليك الشباب ، ماس ينبت كما تنبت الأشجار ، جماعات من النمل تعيش على أكوام من الذهب المسحوق ، الخ . . وقد ساهم هذا الكتاب فى تشجيع الانجليز على محبة الأسمار ، فليس ماندفيل إلا سافاً لروبنسون . . .

وأما محبة الحكايات الأخلاقية التى كانت قوية كذلك فى تلك الفترة فقد وجدت من يرضيها ، وهو الشاعر جون جوور (١٣٣٠ – ١٤٠٨) ، وهو شماس لم يقبل بين رجال الإكليروس . فعاش ملاكا فى الريف ، وخلف لنا بعض الآثار باللاتينية والفرنسة والانجليزية .

وكتابه الانجليزى الكبير ، « اعتراف العاشق » ، عبارة عن طائفة من الحكايات جمعت جمعا اصطناعيا . ترسل ڤينوس إلى كاهنها جنيوس عاشقا بائسا يبحث عمن يعترف له . فيأخذ جنيوس بتوجيه أسئلة منظمة إلى العاشق يتناول فيها الخطايا الكبيرة والخطايا الصغيرة واحدة بعد واحدة ، ولكى يُشعر العاشق بأنه ارتكب خطيئة أو لم يرتكب خطيئة يستشهد لكل خطيئة بحكاية ، فمثلا يستشهد للنفاق بحكاية حصان طروادة ، الخ

وكثير من هذه الحكايات جميلة من ناحية القصص ، وإنما يعوزها روح الفكاهة ووضوح الشخصية . ولا تتجلى شخصية جوور إلا فى قصيدته اللاتينية Vox clamantis فهاهنا يخاف الشاعر من الثروة الطائشة الكبرى فى عام ١٣٨١ فتراه يجرؤ على إعلان رذائل الشعب ، ومفاسد البلاط . وكان الفساد ضارباً أطنابه فى المملكة الانجليزية ، مما أنطق الألسنة بالنقد ، حتى رأينا من الناس من يعلن انتقاده على نحو أمر مما فعل صاحبنا جوور الرجل الطيب . وفى هذه الأثناء ، كان وِيكلِيفْ البروتستانتى الانكليزى الأول ، يترجم التوراة إلى الانجليزية : وكانت ترجمته خرقاء ، لأنه أسرف فى التقييد الحرفى بالنص ، وكانت محشوة بالاستعمالات اللاتينية . ولكنها كانت واضحة إلى حد كاف ، فاستطاعت الأساليب التوراتية أن تدخل إلى اللغة الانجليزية ، وبذلك يكون ويكلِفْ قد بذر ما سوف يحصده القرن السابع عشر .

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه التوراة تتسرب إلى الجمهور كانت هناك قصيدة شعرية طويلة تصف رذائل الحكام ، وتقدم للقسس نظرة صوفية إلى العالم . وتعرف هذه القصيدة بعنوان « بطرس الفلاح » ، ويظهر أن مؤلفها ، وليم لانجلاند ، كان

يعيش حياة بوهيمية ، ويكسب قوته من الترتيل فى الجنائز ... وكان رأسه طافحاً بأفكار جديدة ، إلا أنه كان فوضويا يعوزه النظام :

«ينام أحد الدعاة فى صباح من مايو ، فوق روابى مالفرن ، على مقربة من نهر صغير ، فيرى فيما يرى النائم ، جمهوراً مزدحماً فى وسط حقل واسع ، فيتساءل : علام يضطرب هذا الجمهور ؟ فتجيبه سيدة جميلة هى الكنيسة المقدسة : إن هؤلاء الناس يهتمون بشئون الأرض بدلا من البحث عن الحقيقة . وتشرح له الكنيسة المقدسة ماهى الحقيقة . فيسألها النائم ، وماهو الكذب إذن ، فترجوه أن يلتفت ، فيلتفت ، فإذا هو يرى الكذب والخيانة يهمان أن يتزوجا ، ويرى الكذب يلجأ إلى بائعى المغفرة ، ومتسولى الرهبان ، والتجار ، الخ . ويرى العقل يحض الجمهور على الذهاب إلى برج الحقيقة .» وهنا يأتى الاعتراف بالخطايا السبع الأساسية ، فيكون مناسبة لذكر أوصاف شائقة تتناول الحياة فى القرية ، والخمارة ، والدير .. الخ . ثم يحزم الجميع أمرهم على أن يبحثوا عن الحقيقة . فتظهر المشكلة : أى الطرق نأخذ ؟ إلى هنا كانت الأمور غامضة فحسب . ولكن بعد ذلك يبدأ التفكك .فإذا بنا أمام خليط

من الشخصيات الرمزية ، ومزيج من حكايات التوراة . وفى النهاية نرى الضمير ، وقد حبسه الحسد والكبر والكسل ، يستنجد بالندم . ولكن الندم يغط فى نوم عميق . . فيستولى على الضمير اليأس ، فيحمل عصاه ، ويقرر أن يطوف فى أرجاء العالم ، حتى يجد بطرس الفلاح » (المسيح) .

وقد قلدت آثار لانجلاند كثيرا . وأصبحت شائعة جدا ، وهى لا تخلو من القوة والجمال ، إلا أنها تفتقر إلى كثير من الوضوح والانسجام ، بحيث لا يمكن أن نعد لانجلاند من الفنانين .

والحقيقة أن ليس فى هذا العصر إلا واحد وهبت له موهبة الشعر : جفرى تشوسر .

الفصل الثانى

جفرى تشوسر



(١٣٤٠ — ١٤٠٠)

---

١ — الشاعر وحياته

هذه هى القمة الأولى من قمم الأدب الانجليزى . فإنما كنا إلى الآن فى سهل ناقع لا ترى فيه إلا بعض الجثوات تركز عليها قدمك . وتشوسر هو الكاتب الانجليزى الأول الذى

تخلص تخلصا حاسما من الأصول الجرمانية .

ولقد كان لظروف حياته ، كسياسى وكرجل من رجال الحاشية ، شأن كبير فى آثاره ، فقد أتاحت له هذه الظروف أن يتصل بجميع أنواع الناس والشعوب والعقليات . وهو ابن تاجر كبير كان يتعاطى تجارة الخمر فى لندن . وقد قضى فترة الطفولة والمراهقة كلها فى المتروپول . وفى السادسة عشرة من عمره دخل فى حاشية دوقة كلارانس . ثم درس الحقوق . وفى هذه الفترة حكم عليه بدفع غرامة قدرها شلنان جزاء له على ضرب راهب فرانسيسكانى فى فليت ستريت . ثم أقام فى البلاط . ونظم قصائد غزلية أذاعت صيته . وحارب فى فرنسا عام ١٣٥٩ ، وأسره الأعداء ، وفك من الأسر بدفع فدية ، وعين أخيراً حاجبا على باب الملك ، ثم فارساً فمراقبا للضرائب (١٣٧٤) .

والحادث الهام الذى وجه حياته هو أنه أرسل من قبل الملك ، فيما بين عام ١٣٧٢ وعام ١٣٨٤ فى مهمات دبلوماسية ، وقادته اثنتان من هذه المهمات إلى إيطاليا ، الأولى إلى جنوا وبيزا وفلورنسا ، والثانية إلى لمبارديا . وكان ذلك بالنسبة إليه أشبه بالكشف ، فقد انتفض انتفاضة فكرية مفاجئة ، ففهم ما هو الفن وما هو الشعر .

فلما عاد إلى انجلترا كانت حياته نهبا بين الأدب من ناحية ، وبعض المهمات الرسمية الصغيرة من ناحية أخرى . وكان يتمتع بفراغ كبير ، ولا سيما حين جرد من وظائفه إبان غياب حاميه چان دى جان ، وكان عليه أن يكتفى بجراية يسيرة لا تدفع له بانتظام . ومات فى عام ١٤٠٠ . ودفن فى دير وستمنستر . وكان أول من دفن فى هذا الدير .

وقد امتاز تشوسر بهذه الميزة الكبيرة وهى أنه لم يتكل على مواهبه الطبيعية ، بل أخذ نفسه بالتعليم الدائب المستمر ، فتأثر أولا بفرنسا ، وفى هذه الفترة القصيرة ترجم « رواية الوردة » ؛ ثم تأثر بإيطاليا ، وكانت هده المرحلة مرحلة حاسمة فى تفتح مواهبه ... فى هذه الفترة إنما ابتدع أداته الشعرية ، أعنى البيت المقفى المؤلف من عشر مقاطع . وتبنى الانجليزية لندن ، وجعلها اللغة الأدبية للبلاد . وقد ترجم أشهر المؤلفات الإيطالية ، وتلاحظ فى ترجماته تقدماً مستمراً ، فكل ترجمة خير من التى سبقتها . كما أنه عمد إلى طريقة الاقتباس ، وأشهر اقتباساته (١٣٧٢ — ١٣٨٥) « تريلوس وكريسيدا » و « أسطورة نساء الخير » ، وقد جمعها من كتب بوكاشيو وأوفيد عن حياة كليوباترة وديدون ، ولوقريطس ، وأريان ، وفيلو ميلا ، وغيرهم .

غير أن أجمل قصيدة من قصائد هذا العهد الإيطالى فى حياة .

تشوسر هي تلك القصيدة التي تنم في أوضح صورة عن تشوسر الانجليزي ، تشوسر الحقيق ، وهي قصيدة رمزية بعنوان «برلمان الطيور » ، وقد نظمها فيما بين عامي ١٣٨٢ ، ١٣٨٥ ، بمناسبة زفاف ملكي ، زفاف آن دي بوهيم إلى ريتشارد الثاني ملك انجلترا فقد كان يتقرب إلى آن هذه ، عدا ريتشارد الثاني ، وفي الوقت نفسه ، أميران ألمانيان ، فصور لنا تشوسر نسرة جميلة يتقدم إلى خطبتها من أمها الطبيعة ثلاثة نسور ، فيجتمع برلمان الطيور ، ويبدي كل رأيه . فأما الطيور الكاسرة ، أمراء المملكة ، فانهم يناقشون الدعوى مناقشة جدية ، ويرونها سببا كافياً لوقوع حرب خطيرة . وأما الطيور الدنيا ، من أمثال التجار الذين يركبون الماء والبورجوازيين الذين يتغذون بالديدان ، والزراع الذين يأكلون الحبوب ، فإنهم لا يعنون كبير عناية بهذه الناحية الهينة التي تتعلق بالشرف . فترى الأوز الناطق بلسان الطيور المائية والكوكو الناطق بلسان آكلة الديدان ، يصرحان بأن الأمر تافه لا قيمة له . وبين هاتين الفئتين المتطرفتين أعني فئة اليسار وفئة اليمين ، ينبري اليمام ، الطائر الشعري ، يود أن يبدي رأيه ، ولكن يتصدى له البط ، ويجعل يسخر منه ويهزأ به . وأخيراً تقف السيدة الطبيعة وترجىء إصدار الحكم .

ولا يقل الثلث الأخير من « برلمان الطيور » جمالا عن حكايات تشوسر الممتازة . وإنما الذى أربك تشوسر هو اهتمامه بالإبقاء على الرمز ، وترى هذا الإرتباك يزول حين يأخذ تشوسر بسرد حكاياته لمجرد السرد ، بدون سابق فكرة أخلاقية أو غاية سياسية .

٣ — حكايات كانتربرى

وفى عام ١٣٨٥ خطر على بال تشوسر أن يوجد خيطاً ينظم فيه قصصه الشعرية التى سبق قرضها ، وإليك ما تخيله لذلك :

من فندق تابارد ، فى ضاحية ساوثورك بلندن ، يطعن بعض الحجاج ، قاصدين إلى ضريح القديس توماس بكت ، الأسقف الشهيد . وكان عددهم يبلغ الثلاثين ، من كافة طبقات المجتمع . ودليلهم صاحب فندق تابارد ، رجل شهم طروب ، يخشى السآمة وطول الطريق ، فيقترح على أصحابه ، تزجية للوقت ، أن يروى كل منهم حكايتين فى الذهاب وحكايتين فى الاياب . ويلقى الإقتراح قبولا من الجميع ، ويبدأ السلسلة أحد الفرسان . .

ولم يتسع وقت تشوسر لإنجاز مشروعه ، فلم يخلف لنا إلا ثلاثا وعشرين حكاية ، وظل كثير منها ناقصاً .

ليست موضوعات حكايات كانتربرى بالموضوعات الأصيلة ،

فقد استمدها تشوسر ، كما فعل جوور ، من الروايات التى كان يتداولها الناس فى القرون الوسطى . وإنما تظهر أصالة تشوسر ، ويظهر تفوقه على معاصريه ، فى طريقة عرضه لهذه الحكايات . فإن له أولا قدرة عظيمة على التصوير ، فإذا قرأت حكاياته ، رأيت بأم عينك عصره كله يعيش فيه مرة أخرى : رأيت العصور الوسطى الجميلة بغزلها الرقيق (الذى يتخذ حجة لمجون خفى) ، ونسائها اللائى طلين وجوههن بالأصباغ الزاهية ، وشبانها المتأنقين الذين عقدوا على أجيادهم الياقات الواسعة ، وضفروا شعورهم ، وتطيبوا بحمامات ماء الورد ؛ ورأيت العصور الوسطى التى تؤمن بالخرافات ، فتعتقد بالأشباح ، وتخشى يوم الجمعة لأنه يوم مشئوم ، ويخدعها أهل الصنعة وجماعة المنجمين ، ورأيت العصور الوسطى المولعة بالجدل ، وقد انهمك أهلها فى سؤال وجواب وأخذ ورد ومناقشة ومطالعة . ورأيت العصور الوسطى المضيافة ، وقد كثرت فيها الفنادق ، واختلط الحابل بالنابل ، فأوى الضائف والمضيف إلى فراش واحد ، وناما معا إن كان إلى النوم مع البراغيث سبيل . ورأيت كذلك العصور الوسطى المحاربة . وقد امتلأت بأساليب العنف وقطع الطرق والقتل والتذبيح .

ويتجلى تفوق تشوسر على جوور أوضح مايتجلى فى قدرته على ربط مختلف الحكايات بعضها ببعض، فما ينتهى الراهب من حديثه عن موت بعض الشخصيات الشهيرة كنيرون وقيصر وكريزوس وغيرهم، حتى يقول الفارس بعد انقضاء ساعة من الاستماع إلى هذه الحكايات المحزنة :

— كفانا من هذا، ياسيدى المحترم. أعتقد أنه حسبنا ماسمعنا من حزن. فيضيف صاحب الفندق مؤيدا :

— أقسم بأجراس كنيسةسان بول إن ماتقوله، أيها الفارس لصحيح. إن هذا الراهب ليكثر جدا. سيدى الراهب، حسبنا من هذا إن حكايتك تمل كل السامعين. مثل هذه الحكايات لاتساوى قيمة فراشة، فليس فيها مزاح وليس فيها لعب. استحلفك أيها الراهب أن تقول غير هذا.

ولكن الراهب يرفض، فيتوجه صاحب الفندق إلى الكاهن، ويلق إليه بدفة الحديث، فيأخذ الكاهن يقص حكاية الديك شانتكلير والدجاجة بيرتلوت.

ومايكاد الكاهن الذى سر السامعين، يفرغ من كلامه، حتى يجد المؤلف وسيلة أخرى لطيفة للانتقال من حكاية إلى أخرى، على لسان شخص آخر.

وأكثر الأجزاء أصالة من هذه الحكايات هو التمهيد ، أعنى تقديم هؤلاء الحجاج . فقد رسمهم تشوسر فى صورة واضحة المعالم بارزة القسمات . وبديهى أن تشوسر قد توخى أن تكون نماذجه غريبة بعض الغـــرابة ، ولكن لم يصل بهم إلى حد الكاريكاتور . وإليك صورة الراهب : « راهب جميل ، مولع بالصيد ، كل هواه أن يجرى وراء الارنب . لأن هذا لا يكلفه شيئا . . ومن بين كافة المآ كل ، يحب الأوزة الدسمة » وهذه صورة الرئيسة : « كانت بابتسامتها بسيطة جدا ، متحفظة جدا . . وكان أعظم أيمانها أن تقسم بالقديس إيلوا . واللغة الفرنسية كانت تجيدها حديثا ، على طريقة مدرسة ستافورد لوبو . . لأنها كانت تجهل فرنسية باريس . . . وعلى المائدة كانت أنيقة ، أنيقة جدا ، فما كانت تدع شيئا من الفتات يسقط من شفتيها ، ولا كانت تغمس أصابعها فى المرق كثيرا » .

ولعل كل الصور الأخرى جديرة بأن تذكر . . صورة الفارس الفتى « ذى الضفائر المجعدة التى كأنها ضفرت على عجل ، والتاجر ذى اللحية المفروقة ، والمرأة ذات الأسنان المتباعدة ، والخباز ذى الأنف الذى يعلوه ثؤلول تقوم فوقه خصلة من الشعر أشبه بأوبار أذن الخنزير » . . الخ

والحكايات التى يرويها الحجاج متناسبة مع طبقتهم الاجتماعية وعقليتهم الخاصة تناسبا مدهشا . ومن الصعب أن نصنفها تصنيفا دقيقا . ولكن يمكن أن نقسمها إلى قسمين : الحكايات الجدية والحكايات المرحة .

فأما الحكايات الجدية — أقول جدية ولا أقول مظلمة لأن لهجة تشوسر مشرقة دائما — فمعظمها مستمد من روح الفروسية ، التى احتضرت فى القرن الرابع عشر ، وكان تشوسر يتحسر على زوالها كما يتحسر اليوم راكب القطار على جمال السفر بالعربات فالفارس يروى آلام أخوين محاربين هما بالامون وأركيت ، وقد عادى أحدهما الآخر لأنهما أحبا امرأة واحدة . والرئيسة مدام إجلانتين تبدى ألمها لموت شماس صغير فى السابعة من عمره ضرب اليهود الخبثاء عنقه . والطبيب يروى حكاية مصرع ڤرجينيا التى قتلها أبوها إنقاذا لها من رذيلة القاضى آبيوس . والشماس يقص مغامرات التقية الصابرة جريزليدس . والفتى الريفى يتحدث عن شهامة آرفيراجوس سيد آرموريك ، وزوج النبيلة دوريجين ، وعن كرم أوريليوس محب دوريجين .

وإن المرء ليشعر بلذة عظيمة وهو يقرأ هذه الحكايات، ولكنه يشعر من حين إلى حين بشىء من الضيق ، إذ يحس أن تشوسر

يخفى عنه شخصيته الحقيقية ، بل يسخر من حكايته ومنا جميعاً.

وتشوسر الحقيقى هو تشوسر الحكايات المرحة ، تشوسر الماكر اللاذع ، الذى تجود قريحته أكثر ماتجود فى الحديث عن النساء ، هذه المسوخ التى وجدت لشقاء الإنسان . فيجرى على لسان الديك شانتكلير أن المرأة عذاب الرجل ، ويرينا كيف أن المرأة مسفة فى تفكيرها ، بليدة جاهلة عنيدة ، وأنها إذا كانت ذكية لم ينصرف ذكاؤها لغير الحيلة والغش والخداع . فهذه أليزون الصبية زوجة جون ، النجار العجوز ، تعشق الطالب نقولا الذى يقنع زوجها ، حتى يفسح له المجال ، بأن الطوفان سيحل من جديد ، وأن من الخير أن يقضى الليل داعياً مصلياً فى قادوس معلق فى السقف . وهذه امرأة الخباز وابنته تستقبلان فى سريرهما ، والرجل يموت من السكر ، طالبين من طلاب كامبردج أتيا يشرفان على طحن دقيق الكلية . وهذه مايو زوجة العجوز يناير ، الذى أصبح أعمى ، تتسلق شجرة الكمثرى حيث ينتظرها الجميل داميان . . وهذه أخرى وأخرى . . إن كل النساء خائنات أو قاسيات أو خبيثات أو غادرات . . .

ولكن لا يخدعنا هذا الكلام فإن عدو النساء هذا إنسان رقيق القلب ، يحاول أن يخفى رقة قلبه بنوع من الحياء الوحشى ؛

وقد تنطلق هذه الرقة من عقالها ، فاستمع إليه مثلا وهو يصف الطبيعة الجميلة :

« حين تنفذ قطرات أبريل اللطيفة إلى الجذور الجافة من شهر مارس ، فتغسل كل عرق من العروق بهذا السائل الذى بفضله تتفتح الأزهار ، وحين تنعش أنسامه اللطيفة غض النباتات فى كل غصن وكل بستان ، وتأخذ الطيور تغرد ألحانها الجميلة بعد أن نامت الليل كله مفتحة الأبصار ، عندئذ تقوم فى النفوس رغبة قوية فى الحج والأسفار » .

إن تشوسر غض كشهر أبريل هذا . . وأبريل خالد . . .

٣ — عودة الى الليل

بعد تشوسر، نعود ثانية إلى سهل يغشيه الضباب ، ونبقى فيه مدى قرن ونصف قرن .

وقد حاول المتلمذون على تشوسر والمعجبون به أن يتبعوا خطاه ، ففى عام ١٤١١ كتب توماس أوكليف كتاب « حكم الأمراء » ، وهو كتاب تعليمى يذكر بحكايات تشوسر كما يذكر صوت الزريق بتغريد الهزار . وفى عام ١٤١٥ نظم الراهب لدچيت قصيدة طويلة فى تاريخ طيبا ، قدمها على أنها فصل مكمل

لحكايات كانتربرى . واستطاع الدومينيكى باركلى أن يمتع أجيالا كثيرة ، باقتباسه « مركب المجانين » عن برانت الألمانى فى عام ١٥٠٩ معتمداً على الترجمات الفرنسية واللاتينية ومضيفا إليها شيئا من عنده . ونظم جون سكلتون قصيدتين هجائيتين لاذعتين ، أولاهما ، « لماذا لا تأتون إلى البلاط » وقد أراد بها مهاجمة الكاردينال ڤولس المطلق السلطة ؛ والأخرى « كولان كلوت » ، وهى صرخة الفلاح والصانع يستنكران فساد رجال الكنيسة . ولكن هاتين القصيدتين قد عفى عليهما الزمن ، فى حين أن غيرهما لا يزال يحتفظ بشىء من الجمال .

والقصائد الصغيرة الغفل ، فى هذا العصر ، هى التى صمدت للزمن أكثر من غيرها . ومن أشهرها مناقشتان رمزيتان « السكوكو والهزار » (الحب ضد الحكمة) « والزهرة والورقة » (العمل ضد الفراغ) ، وقصيدتان شعبيتان تعدان من عيون الآثار الأدبية ، أولاها ، « تشيفى تشيز » ، وهى تروى بسذاجة بريئة وعاطفة صادقة المعركة الدامية بين پرسى الانجليزى ودوجلاس الإيقوسى . والثانية « الابنة السمراء » وهى أكمل من الأولى من الناحية الفنية ، وهى تروى لنا كيف أن عاشقا مرتابا يريد أن يمتحن إخلاص حبيبته الجميلة ، فيلقى فى روعها أنه سيعيش فى منفى

لأنه خرج على القانون ، فيخاطبها بمثل قوله :

« ليس من العرف ولا من القانون ، أن تذهب فتاة صبية ، جميلة لطيفة ، مع فتى خارج على القانون ، إلى حياة الأدغال والجبال ، وتمشى مشية سارق ، فى يمينها سهم ، وعلى كتفها كنانة ، وحياتها كلها خوف ، ورعب . إنه ليؤلمنى ياحبيبتى أن أراك فى صحبتى تتألمين . . فدعينى . . . دعينى وحدى أمضى إلى الغاب منبوذا شقيا . . »

إنى لأشترى هاتين القصيدتين بسائر الشعر الرمزى الذى ازدهر فى إيقوسيا فى القرن الخامس عشر ، مستمداً من آثار تشوسر أسوأ عناصرها . أما « كتاب الملك » الذى كتبه الملك جاك الأول الإيقوسى (١٣٩٤ — ١٤٣٦) فليس له من قيمة ؛ وأما المقدمات التى كان يكتبها المطران جاون ، ويصدر بها كل جزء من أجزاء ترجمته للإنياذة شعرا انجليزيا ، فلعلها كانت تسلى أحدا من أهل الجنوب ، لو كان فيها شىء من نظام . وأما وليم دمبر فإن خلوده راجع إلى شخصيته الطريفة كراهب متمرد ومغامر بوهيمى أكثر من رجوعه إلى قيمة آثاره ؛ وأشهر قصيدة له « الشوكة والوردة » التى نظمها احتفالا بزواج انجلترا (مرجريت يودور) وإيقوسيا (جيمس الرابع) .

وليس النثر فى هذا العصر بأحسن حالا من الشعر . ويجب مع ذلك أن نذكر اسم الناشر الانجليزى الأول (كاكستون) الذى أذاع صيت تشوسر ، وجوور ، وليدجيت ، ابتداء من عام ١٤٧٤ كما نشر فى عام ١٤٨٤ كتاب سير توماس مالورى عن «آرثر». وأحسن ما فى هذا الكتاب الذى هو منتخبات من كافة الأساطير المتصلة بالملك آرثر هو أسلوبه . ولا يزال إلى الآن يقرأ بشغف فى طبعاته الحديثة .

الفصل الثالث

النهضة

١ — تهيؤ النهضة

لقد تأخرت النهضة فى انجلترا عنها فى بلاد القارة الأوربية وربما كان من ذلك بعض الخير . فإن النهضة الانجليزية قد استفادت من الإيطالية الجديدة والفرنسية الجديدة ، وقل أن تجد فى التاريخ عهدا يضارع فى ازدهاره وخصوبته ذلك العهد الذى أخذت فيه انجلترا ، بعد أن خرجت من الحروب الأهلية المستمرة ، تشعر بقوتها وشخصيتها فى عهد اليزابث .

وكان تهيؤ النهضة الانجليزية بطيئا جدا . وكما حصل فى القارة الأوربية ، كان الإنسانيون والمصلحون الدينيون والسواح ، هم الذين بعثوا تلك الحركة الفكرية الكبرى التى تجلت ، فى ميدان الأدب ، آثاراً أصيلة جديدة .

فقد استعادت الدراسات اليونانية — اللاتينية فى الجامعات شأنها واحترامها .وكان لكتاب روجر آشام (١٥١٥ — ٦٨) « معلم المدرسة » شأن كبير فى تحديد أصول التربية اللاتينية .

كما أن توماس مور المطلع على الثقافة اليونانية والمتحمس لها وصديق إيراسم ومساعده ، استطاع بكتابه « المدينة الفاضلة » (الذى كتب باللاتينية ثم ترجم إلى الانجليزية عام ١٥٥١) أن يذيع فى انجلترا أساليب الفكر اليونانى ، واستطاع بهذه الجزيرة التى تتحقق فيها مثل المدينة الفاضلة ويسود التسامح والنظام الشيوعى ويكون الإنسان على فطرته الأولى التى لم يفسدها شىء ، أن يطلع المتأدبين على أحلام أفلاطون فى هذا الإطار الذى هيأه له اكتشاف العالم الجديد . وفى الوقت نفسه كانت طوائف المترجمين تطلع الناس على عيون الآثار القديمة . وأشهر هذه الترجمات ترجمة پلوتارك التى تولى القيام بها نورث عن نص أميوت (١٥٧٩) .

كما أن انحلال الأديرة (١٥٣٥ — ١٥٣٩) كان مؤذنا بزوال روح القرون الوسطى . واستطاع تندال وكوڤرديل بترجمتهما للتوراة (١٥٢٥ — ٣٥) ، وكرانمر وتلاميذه بكتابهم « الصلاة العامة » ، أن يبثوا فى اللغة الدارجة كثيرا مما فى الكتاب المقدس من بيان ساحر ، وساهمت خطب لاتيمر فى تنفير الشعب من الكاثوليكية . وفى الوقت نفسه كان چون نوكس تلميذ كالڤان يضمن فى إيقوسيا ظفر البروتستانتية . وبذلك كانت تنمو ، إلى جانب انجلترا الإنسانية ، انجلترا البروتستانتية .

ثم لقد كان السواح العائدون من فرنسا و إيطاليا يحما
الشعر الغنائى . وقد استطاع يات (١٥٠٣ — ٤٢) ،
١٥١٧—٤٧) أن يصبا الشعر الغنائى الانجليزى فى
إيطالية . وكان پترارك معبودهم ، فنظما ، مثله ، فيما كا
من أفراح الحب وآلامه . كما أن سرى لفرط تشبعا
اللاتينى ، ترجم جزءاً من الإنياذة فى شعر انجليزى ببح
مؤلف من عشرة مقاطع موزونة بلا قافية . ولم يكن
بخلده أن هذا الوزن سيذيع ذيوعا عظيما .

٢ — العظماء الثلاثة

ليلى ، سيدنى ، سپنسر

إن لهؤلاء الثلاثة ، ليلى وسيدنى وسپنسر ، من
فى تاريخ الأدب ما يجعل قراءتهم اليوم واجباً من الوا
وقد لا تخلو هذه القراءة من متعة ولذة .

أما ليلى ، فقد كتب وهو فى الرابعة والعشرين من
(١٥٧٨) ، كتابا أصاب نجاحا عظيما ، بعنوان « أيوفو
تشريح الفكر » ؛ ولا يمكن أن يعد هذا الكتاب رواية

فانما هو إطار مرن ينطوى على آراء المؤلف فى الحب والصداقة والتربية والدين .

هو قصة طالب ولد فى أثينا (والمقصود أكسفورد) وله ما للطالب الشاب من ثقة بالنفس وإدعاء وغرور . فيرفض أن يستمع إلى نصيحة عامل عجوز يحذره مما يشيع فى نابولى (والمقصود لندن) التى قصد إليها من مفاسد جهنمية . وسرعان ما يفقد الفتى فضائله فى هذه المدينة الفاسدة ، وتخدعه إحدى النساء . ولكنه يعود إلى نفسه ، ويرجع بعـــدئذ إلى أثينا ويعيش حياة دراسة وتأمل .

ويحتوى هذا المؤلف الصغير على هجاء مقذع للاوساط المتأنقة ولمفاسد حياة الطلبة ، وقد أثار كثيرا من الغضب والحنق ، فسارع ليلى إلى الاعتراف بغلطته والاعتذار عنها . وبعد مضى سنتين على ذلك ظهر كتابه « أيوفوز وبلده انجلترا » . وفى هذه المرة نرى الأخلاقى الصفراوى المزاج يتملق ويدارى ويصانع ، فيمتدح « سيدات انجلترا » اللواتى يكافئنه على ذلك بأن يضعن « أيوفوز » فى حجراتهن إلى جانب مؤلفات بوكاشيو وأريوست .

وقد أغنى ليلى اللغة الانجليزية بكلمة الأيوفية أو الطريقة الأيوفية ، ومعناها التناظر بين أجزاء الجملة مع تشابه فى الأصوات كما ترى فى الجملة الآتية :

Not the shadow *of* love, *but the* substance *of* lust

وقد استفاد مما كانت تذيعه الأساطير المتصلة بالحيوانات ، فحدثنا عن الحية التى تنفجر متى مسها نبات الخنشار ، وحدثنا عن الكركى التى يمسك بمنقاره حصى حتى يمتنع عن النوم أو حتى لا يحدث صوتا حين يحلق فوق الجبـــال . إلا أن الإسراف فى هذا الإغراب يتعب . ثم من الشبع ينشأ الملال . وليس ليلى فى حياة النثر الانجليزى بكبير شىء والحق يقال .

وكذلك سير فيليب سدنى (١٥٥٤ — ٨٦) فقد بقى اسمه حيا فى ذاكرة الانجليز ، وربما كان ذلك يرجع إلى نبالة شخصه وحياته أكثر مما يرجع إلى عظمة آثاره . وهو يجمع فى نفسه بين بايارد وبترارك .

فى الحادية عشرة من عمره كتب إلى أبيه رسائل بالفرنسية واللاتينية . واضطره وباء خطير إلى مبارحة جامعة اكسفورد ، والسفر إلى أوربا . وكان فى فرنسا أثناء مذبحة سان برتلمى . فكان ، وهو معتصم بالسفارة الانجليزية ، يسمع أصوات التهليل فرحا بتذبيح إخوانه « فى الدين » . وعاد إلى لندن وهو يكره الكنيسة الرومانية كرها شديداً .

وقد أحب شاعرنا پنلوپ ديڤرو التى أصبحت بعد ذلك ليدى رتش . ولم يشعر بحبه الشديد لها إلا حين تزوجت، وكان قبل ذلك يشتهيها ويريدها ويطمع فى وصلها . وكانت من القوة والمناعة بحيث ردته . ولكنها كانت تحبه مع ذلك . إن أناشيده الرائعة «أستروفل وستللا» التى أهداها إلى هذا الحب العظيم لتستحق مكافأة أرضية ...

ومع ذلك لم يمت عاشقا . فقد خبأت له الأقدار أن يموت بطلا فى ساحة القتال . فقد سقط جريحا فى معركة زوتفن ، فوضع على محمل وكان عطشا . . فلما أتوا إليه تقنينة ماء ، رأى أحد الجرحى تجتاحه حمى شديدة وينظر إلى القنينة نظرة الظامىء الشره ، فأسلم إليه القنينة وهو يقول : «أنت أحوج إليها منى» . وقد تعهده الجراحون بعد ذلك فاستطاعوا أن يمدوا حياته بضعة أسابيع مات بعدها وهو أشد ما يكون رباطة جأش .

وخلف كتابا كبيرا ضمن له شهرة طويلة بعد وفاته ، بعنوان «أركاديا» ، وهو رواية ريفية على الطريقة الاسبانية ، أعنى أنها مطبوعة بطابع فروسى ، وتمتاز إلى جانب ذلك بملاحظات نفسية .

أما موضوع هذه الرواية فلا يمكن أن نعثر عليه وسط هذه الاستطرادات التي لا حصر لها . نرى الملك باسيليوس متربعا على عرش أركاديا . وله ابنتان ، پاميلا وفيلوكليا ، تجهلان الحب كل الجهل . ويأتي أجنبيان ، هما موزيدوروس وپيروكليس . وقد تخفى الأول في زى فلاح ، وتخفى الثاني في زى امرأة . . فيقع الملك باسيليوس مغرماً بالأسير پيروكليس وقد ظنه فتاة حقا. وتقع الملكة جينيسيا في حب بيروكليس وقد أدركت أنه رجل. ثم يظهر شخص اسمه أمنيالوس، هو ابن الساحرة سكروپيا، يريد ، مدفوعا بإرادة أمه، أن يتزوج فيلوكليا فيخطفها هي وأختها پاميلا .. وتتعاقب الحوادث .. تترى.. ثم تنتهي بأن تنتصر الفضيلة وينتصر الحب في زواجين. وقد أضاف سيدنى إلى هذا كله حكاية البداة ، دامتاس وميزو وموپسا ، وحكاية بارتينيا ، وحكاية فيلوكسينوس . . الخ . . كل ذلك في أسلوب متكلف متظرف قديم ، يضحك ثم يغضب .. ولعلنا كنا نتذوق هذا النثر الشعرى لو أن ساعرنا قد امتلك زمام خياله الطافح الجامح ، ثم لم يزوق عباراته على هذا النحو الممل .

على أننا نلاحظ إلى جانب هذا الإسراف الذى ينافى

الذوق ، كثيراً من عمق التحليل وتلوين الوصف وإيجاز التعبير ، ومزاوجات جديدة بين الألفاظ تؤذن بشيكسبير .

وقد كان تأثير سيدنى تأثيراً عظيما ومضراً . فقد استولت الأركاديانية (نسبة إلى كتاب أركاديا) على الرواية والشعر خلال قرن كامل، ولم يتخلصا منها إلا فى عام ١٧٤٠ حين شوهد هذا الناشر اللندنى صاموئيل ريتشاردستون يهدم القصر الذى بناه سيدنى من ملاط ، ليحل محله بيتا من نحيت ، متينا مريحا .

وأما إدمونند سپنسر (١٥٥٢ — ٩٩) فقد خلف آثاراً أثبت على الزمن . وكان قد قضى القسم الأعظم من حياته يشتغل فى إيرلاندة سكرتيراً للورد جراى . وكانت إيرلاندة تعج بالمنفى ، والضجر ، والسآمة . . فكان له من وقته ما يتسع كل الاتساع للتعبير عن نظراته الشعرية الكبرى .

وقد شرع ينظم سلسلة اثنى عشرية من المدائح أسماها « رزنامة الراعى » (١٥٧٩) . وتشهد له هذه المدائح ، إذا رفع عنها إغرابها ، بروح موسيقية رائعة . وقد كتب سپنسر بعد ذلك طائفة من المؤلفات جعلته أهلا لأن يلقب « بشاعر الشعراء » ، منها «ميوپوتموس أو حياة وموت الفراشة الشاعرة» ومنها « عودة كولان كلوت » ، حيث روى لنا فى صورة رمزية

زيارته للندن عام ١٥٨٩ . ومنها غرامياته التى خاطب بها خطيبته . ومنها خاصة «الزفاف»، وهو نشيد قوى رائع يتغنى فيه بزواجه .

على أن هذه الآثار كلها ليست إلا مقبلات فى المأدبة التى يدعونا إليها سبنسر . وأفخر صحون هذه المأدبة قصيدته : « ملكة الجن » ، وهى قصيدة رمزية كبيرة ، اشتغل فى نظمها حوالى ٢٠ سنة ، ولم يستطع أن يتمها : ترسل جلوريانا ، ملكة الجن ، عشرين فارسا من بلاطها يمثل كل منهم فضيلة من الفضائل . وتأمرهم أن يضربوا فى الأرض يقوّمون أخطاء الناس ويصلحون من أمرهم . فأما فارس الصليب الأحمر ، بطل العفة والبروتستانتية ، فإنه يتغلب على الخطأ ولكنه يقع أسيراً فى يد الكبرياء فينقذه الأمير آرثر (اللطف الإلهى) — وأما سر جوين بطل الاعتدال فانه يخرب الحدائق السحرية التى تملكها الساحرة أكرازيا (الفجور) — وأما سر كاليدور ، بطل اللطافة ، فانه يخلص بلاد الجن من البهيمة الخوّار (النميمة) . . الخ .

والأمر إلى هنا سهل . ولكن سبنسر يضيف إلى الرمز الأخلاقى رمزاً تاريخيا . ثم هو لا يعنى كثيراً بمنطق الحوادث

فجلوريانا مثلا هى الملكة إليزابث . ولكن إليزابث هى كذلك بلفوبيه وبريتومارت . وكونت ليسيستر ، حامى سنبسر وعشيق الملكة هو الأمير آرثر . ولكن آرثر يمثل كذلك سير فيليب سيدنى ، حين لا يكون سيدنى هو كاليدور. وكلما تقدمت فى القصيدة رأيت الرمز الأساسى يختنق تحت رموز ثانوية استطرادية متناقضة وينتهى به الأمر أن يزول فلا ترى له من أثر .

على أنه ليس يعنينا كثيراً أن تكون «ملكة الجن» ملحمة رمزية مضطربة . نعم إن من يقرأ هذه الأجزاء الستة التى كتبها سپنسر ويحاول أن يفهم مدلولها التاريخى الفلسفى على وجه الدقة ، لا بد فاقد صوابه . ولندع كذلك للأخلاقيين مهمة امتداح هذا الأثر الذى يمجد الفضائل الإنسانية ويبحث عن طريقها الموصل إلى الله ، وحسبنا أن نعلم أن طائفة من قصص الأطفال المتداولة مستخرجة من مؤلفات سبنسر ، فعلينا أن نقرأ مؤلفاته بهذه الروح ، فننسى مثلا شخصية جلوريانا ، ونذكر منزل الحداد الذى يقضى فيه إسكومادور ليلة قاسية . . ونذكر نبع الضحك حيث تحاول السابحات المغريات أن يغوين جويون الفارس العفّ ، الخ .

الفصل الرابع

الأدب فى الاليزابثى

الشعر والنثر

١ — الشعر

إن أكبر الشعراء بعد سپنسر — إذا فهمنا الكبر بمعنى الإكثار — قد وقفوا كل شعرهم تقريبا على الإيمان الجديد: انجلترا وملكتها.

أما وليم وارنر (١٥٥٨ - ١٦٠٩) فقد نظم قصيدة كبيرة فى تاريخ انجلترا، منذ الطوفان حتى عهد الملكة إليزابث. وكانت قصيدته عبارة عن مجموعة من الأساطير والحكايات منها الخطير ومنها المرح، ولكنها جميعا رديئة التسلسل، رديئة الحبك والبناء، وقد أصابت مع ذلك نجاحا كبيرا.

وأما صاموئيل دانيل (١٥٦٢ - ١٦١٩) فقد كان أدنى إلى القصد من صاحبه. كان كاتباً مسرحياً ومؤلفا تعليمياً فى آن واحد. وقد كتب ثمانية أناشيد من قصيدة بطولية

كبيرة بعنوان « الحرب الأهلية بنى يورك ولا نكاستر » وقد أحسن إذ حدّد موضوعه،إلا أنه أساء الإختيار . فإنه رجل وديع رقيق ، والعصر الذي يصفة عصر عنيف وحشي، وليس يحسن تأريخ هذا العصر إلا بوهيمى أشعث ...

وأما منافسه درايتون (١٥٦٣ - ١٦٣١) فقد كان أقرب إلى روح العصر الإليزابثى ، أى كان أكثر حدة وانطلاقاً . فإنه لم يتوان لحظة واحدة عن إثارة الشعور الوطنى بتغنيه بالماضى المجيد (حرب البارونات ، قصيدة آزنكورت ، القصائد البطولية الانجليزية). إلا أن فكرته الأساسية لم تكن نظم التاريخ بل نظم الجغرافيا . فأضخم قصيدة من قصائده وهى پوليولبيون (الجزيرة ذات البركات الكثيرة) تتغنى فى ثلاثين نشيداً بسهول هذه الجزيرة الشهيرة بريتانيا ، وبجبالها وغاباتها وأنهارها ووديانها وغير ذلك من أماكنها،مع خليط من أهم تواريخها وآثارها وعجائبها ومتعها ومزاياها . وقد جسد الشاعر هذه الأنهار والجبال والوديان والغابات ، وجعلها تروى الحوادث التى كانت مرتعاً لها . ونحمد الله على أننا نقع من حين إلى حين على وصف جميل ، كوصفه لصيد الأيائل فى غابة أردن .

وبالجملة نقول إن الشعراء الوطنيين هم أولئك الناس الذين

تحييهم عن بعد، ولكنك تحاذر الاقتراب منهم خشية التورط معهم في ثرثرات لا خلاص لك منها إلا بشق الأنفس. وإني لأغبط من كل قلبي كل من يستطيع أن يقرأ قصائد وارنر ودانيل ودرايتون دون أن يضيق بها. ولاشك أن من يستطيع ذلك تهون عليه بعدئذ أشق أعمال البحث والدراسة والتنقيب.

ولاكذلك كتب الشعراء الإباحيين، فمازلنا نقلبها إلى الآن فى شيء من المتعة. فربما كان الحب أخلد على الدهر من البطولة ومن هذا القبيل قصيدة «هيرو ولياندر» للشاعر العظيم مارلو. (وقد كتبها قبل ١٥٩٣)، وإن كان يفسدها شيء من التصنع والتكلف، من مثل حديثه عن النحل كيف كان يحسب زهرات وشاح هيرو زهرات حقيقية يشم شذاها الذكى، فى حين أن أنفاس الصبية الجميلة هى التى كانت تنشر عطراً كعطر الزهر... ثم ما هذه الجرأة فى وصف الحب المحرم! ما أشد مايسرف مارلو فى هذه الجرأة، حين يحدثنا مثلا عن نبتون، المولع بجمال الذكر، وهو يلاحق لياندر تحت الأمواه.

أما قصيدتا شيكسبير القصصيتان، فان المعجبين بهما والمتحمسين لهما كثر؛ وعندى أنه لولا أنهما ممهورتان بهذا الامضاء الضخم: شيكسبير، لما نالا كل هذا الإعجاب وكل

هذه الحماسة. أما الأولى « ڤينوس وأدونيس » (١٥٩٣) فهى تعالج موضوع الفتى الرياضى (أدونيس) الذى يقضه حب عاهرة مجربة (هى ڤينوس) . وأما الثانية ، «هتك لوكريس» (١٥٩٤) فهى تتناول، خلافاً للأولى ، موضوع الصبية البريئة التى يلاحقها فاجر مجنون بالأبهة .

وفى رأيى أن ليس فى وسع القارىء أن يصبر طويلا على قراءة هاتين القصيدتين ، خصوصاً إذا كانتا فى مجلد يضم مسرحيات شيكسبير .

والحق أن الشعر الأليزابثى الوحيد الذى قاوم الزمن هو الشعر الغنائى ، المجنح ، السريع ، الذى تغنيه فى داخلك أكثر مما تقرؤه بلسانك . إنى لا أبيع كل « هيرو وليـاندر » بتلك المقطوعة الصغيرة من مقطوعات مارلو « من الراعى إلى الراعية » حيث يناشد الراعى حبيبته أن تأتى إليه ، ليعيشا معاً أياماً كلها حب ، فى الوديان المعشوشبة ، وفوق الجبال الشم ، وبين المراعى والغياض والغابات. أليست أجمل الذكريات التى تبقى فى الذهن من مسرحيات شكسبير هى قراءة أو سماع تلك الأناشيد الرائعة التى تقفز كالأمواج، أو تئن كالريح بين الأغصان، مثل هدهدة الجنيات (فى « حلم ليلة صيف ») وأغانى آريـل

(فى « العاصفة ») ، واللحن الذى يؤلفه أوتو ليكوس تغنياً بحياة التشرد ، (فى « حكاية الشتاء ») ، وأغنيـة الصفصاف (فى « عطيل ») ، وغير ذلك من الأناشيد التى لايمـكن أن تنساها الذاكرة أبداً ؟ . . .

وليست هذه اللآلى منفصلة عن جمـلة الأثار الدرامية لذلك العصر ، وقل أن تجدها مستقلة فيما تجمعه الـكتب من متقطفات غنائية . وإلا فهل سمع غير المختصين عن شاعر طبيب موسيقى درامى إسمه توماس شامپيون ؟ ومع ذلك فما أروع مانظم شامپيون هذا من شعر غنائى ! ما أجمـل تلك القصيدة التى يحدثنا فيها عن حبيبته ، فيشبه وجهها ببستـان ، جمع من الأزهار أزهاها ، ومن الثمار أشهاها :

ولـكن الـكرز الذى هناك
لا يمكن أن تمتد إليه يد
قبل أن ينادى هو نفسه :
كرز ناضج

وبعد فإن شمس الشعر الغنائى فى عهد إليزابث سرعان ماشحبت فى عهد جاك الأول ، فقد كانت البيورينانية ، هذه السحابة الـكبيرة العاصفة ، تجتاح الأفق .

فانرى الآن إلا ويذر (١٥٨٨ — ١٦٦٧) ينظـم فى

شبابه بضعة أبيات جميلة متغنياً بالطبيعة والحب : (« صيد الراعى») ونرى صديقه وليم براون (١٥٩١-١٦٤٣) يتأثر « أركاديا » سيدنى ، فينظم قصائد دينية فروسية مخدرة .

ونرى الأخوين فلتشر (فينياس ، ١٥٨٢ - ١٦٥٠ . وجيلس ١٥٨٨-١٦٢٣) ، وهما قسيسان من قسس الأرياف. أحدهما يتغنى بأعضاء الجسد الانسانى ، والثانى يتغنى بالمسيح، ويصف جمال الجنة . ونرى بن جونسون يقلد الأقدمين تقليداً دقيقاً ، ولا سيما شعراء الأنتولوجيا ، ويحاول أن يلقى على الشعر الغنائى الإلزابثى مسوحاً كلاسيكياً محدثا . وطبيعى أن لا يوفق إلى ذلك . فما كان للفراشة أن ترتدى فروة الخلد . ونرى أخيراً دون (١٥٧٣ - ١٦٣١) عميـــد سان بول ، يتصنع التعقيد والشذوذ إلى أبعد الحدود المضحكة . على أنه إن كان لا يطاق فى مقطوعاته المتكلفة ، فإن فى قصائده التى تسيطر عليها فكرة الموت ، نغمات مؤثرة فى بعض الأحيان .

٢ — النثر الاليزاباثى

تكثر فى العصر الاليزاباثى الروايات القصيرة على غرار ليلى وسيدنى والإيطاليين. ولعل أقلها إملالا رواية «پاندوستو» لجرين (١٥٦٠ — ٩٢)، ومنها استمد شكسبير موضوع «حكاية الشتاء»، وكذلك «مينافون» لجرين أيضاو«روزالندا» للودج (١٥٥٨ — ١٦٢٥)، وهى التى استمد منها شكسبير موضوع مسرحية «كما يعجبك».

على أنى أرى أن تلك الكتب التى تكشف لنا عن حياة الطبقات الدنيا أحفل بالصور وأغنى بالألوان. فعندى أن كل ماألف جرين من روايات يختفى أمام قصص «صيد الأرانب» التى تصف حيل اللصوص فى اقتناص أرنب أو سرقة حمامة. وكذلك فإن اسم ناش (١٥٦٧ — ١٦٠١) سيظل حيا، بفضل كتابه «حياة جاك ولتون»، حيث يحدثنا عن مغامر يساهم فى حركات الإصلاح بفلاندر والمانيا، وينخرط بإيطاليا فى عالم الجواسيس والشرطة ونساء السوء. وهناك أخيراً ديكر الذى سنجده بعد قليل مؤلفا دراميا، وقد ضمن لنفسه الخلود بكتابه «قرن المخدوع»، حيث يحدثنا

عن حياة شاب يحب أن يبدو «ظريفا» فيضايق بتظرفه الناس فى المسرح والحانة والشارع ، ويحسب انه يخدع غيره ، فى حين أن غيره يزدريه ويهزأ به ويسخر منه .

أما توماس دلونى (١٥٤٣ — ١٦٠٠) فيستحق أن نفرد له مكانة خاصة . لقد جمع هذا الحائك القالونى من معاشرته للعمال وصغار الناس والخادمات الثرثارات ثروة ضخمة من التجارب الشعبية ، فألف فى سنى المجاعة قصائد قوية تصف بؤس الشعب ، وكان يمضى ينشدها من ورشة إلى ورشة ومن حانة إلى حانة بل من مدينه إلى مدينة ، حتى أهاج بذلك السلطات فأمرت بالبحث عن « شخص حقير يدعو دلونى » . واعتدل بعد ذلك ، ورأى أنه إذا صهر ماسمعه أثنـــاء تشرده من حكايات فقد يكتب آثارا تحظى باستحسان كثير من القراء .

وليست رواياته الثلاث إذن («جاك نيوبرى » و «توماس ريدنج » و « المهنة الشريفة») إلا مجموعات من الاستطرادات المنسلية . وأبرز هذه الروايات هى أولاها ، وهى تروى لنا قصة جاك ، أجير الحائك المخلص ، كيف تزوج أرملة معلمه ، ثم ترمل ، فتزوج ثانية من إحـدى خادماته ، ثم اشتهر بأنه خير صواف فى بركشير ، وكيف أصبح الناطق بلسان أهل

مهنته حين أتى هنرى الثامن إلى نيو برى ، وكيف كانت الغازلات اللواتى يرهقهن بالعمل يرشقنه ببعر الكلاب . . .

إن دلونى قريب إلى النفس ، وقد كتب ، بدون أن يشعر ، ملحمة خالدة ، ملحمة العمل المهنى فى القرن السادس عشر .

وكان النثر الفلسفى التاريخى فى هذا العصر لا يقل غنى عن النثر الروائى ، فإلى هذا العصر ينتسب فرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) . وهو من أكبر العبقريات التى عرفتها الإنسانية . وهو مؤسس الفلسفة العلمية الحديثة . كان عالما وفيلسوفا لكنه كان دنىء الخلق . حتى لقد قام بحملة قوية على صديقه الحميم كونت دسكس إرضاء لضغائن غرامية فى قلب الملكة . وعين على أثر ذلك كبيرا للأمناء . وقد كتب مؤلفاته الرئيسية باللغة اللاتينية ، لأنه كان يعد الانجليزية لغة عامية مصيرها إلى الفناء . ولم يكتب بالانجليزية إلا مقالات أخلاقية قصيرة ، كتبها ليتسلى بها رجال البلاط ، وسماها « مقالات » كما فعل مونتينى ، ولكن شتان بين هذه الأخلاق وبين تلك الأخلاق الجميلة التى تخرج من « مقالات » مونتينى . وهو سواء أتحدث عن الحقيقة أم الموت ، أم الحب ، أم الثروة ، أم الدراسة ، فإنه يسفر عن حكمة نفعية عملية واحدة ، ولكنه يبلغ من قوة التعبير ما يجعل

كل عبارة من عباراته المركزة مثلا قائما بذاته . هذا إلى لغة غنية ، وأسلوب مصقول ، وتركيب قوى .

وهناك ناثر فلسفى آخر فى هذا العصر هو روبرت برتون (١٥٧٧ — ١٦٤٠). وهو كاتب غريب معقد . كان قسيسا فى قرية ، وكان فأر مكاتب كما يقولون ، وكان يعرف كيف يسخر من نفسه ومن الآخرين عند الاقتضاء . وقد انتحل لنفسه اسم ديموقريطس الصغير ، فكتب كتابا ضخما بعنوان «تشريح الكآبة » ،هو عبارة عن خليط عجيب من الفلسفة والطب والعبث والسخرية والتلاعب . وهو يذهب فى هذا الكتاب إلى أن الكآبة (أو المزاج الأسود) هى علة الحرب ، والبيوريتانية ، والكسل ، وصداع الرأس ، والفسق ،وغير ذلك . ويستعرض برتون فى هذا الكتاب معظم الاعوجاجات البشرية،وترى ذلك كله محشوا باستطرادات وملح واستشهادات، بأسلوب مطنب تارة ، موجز أخرى . . مع العناية بتجميع الكلمات على نحو غريب على غرار ما كان يفعل رابليه . ومن الصعب ترجمة نصوصه لهذا السبب .

وقد لا يكون عند برتون ما يشوق القارىء العادى. ولكن هواة الأشياء الغريبة واجدون لا شك فى كتابه معينا

لا ينضب من هذه الأشياء الغريبة .

ولن يكمل عرضنا هـذا للنثر الاليزاباثى مالم نذكر اسم هوكر (١٥٥٤ — ١٦٠٠) . كان هوكر هذا رجلا من رجال الدين ، وبطلا من أبطال الانجليكانية ضد أصحاب البيوريتانية . وقد كتب ثمانية كتب بعنوان « قوانين السياسة الاكليركية » ، بلغة انجليزية جميلة ، فيها كثير من الشعر ، وإن جنحت إلى الإغراب فى بعض الأحيان .

على أن أثر هذا الكاتب لايعد شيئا إذا قيس بما قامت به جماعة من العلماء من «ترجمة التوراة » عام ١٦١١ . كانوا سبعة وار بعين عالماً ، استفادوا من الترجمات السابقة، وأعادوا الفقرات التى أسقطها سابقوهم ، ووصلوا إلى كمال التعبير فى دقة المعنى، وجمال الموسيقى . ولن تجد بين ترجمات التوراة فى لغات العالم ترجمة تضارع الترجمة الانجليزية إشراقا وجمالا . فكل عبارة من عباراتها صيغة سحرية تفتن النفس وتأسرها . ولو أبدلت كلمة بكلمة أو غيرت موضع الكلمة ، لتبدد هـذا السحر ، وزالت القوة المستسرة التى تأسر نفسك وتسمو بها . ومن التوراة إنما تعلم كبار الكتاب الانجليز كيف يحسون الجمال .

الفصل الخامس

الدرامة الاليزابثية

١ — التفتح

تطور المسرح الانجليزى فى القرون الوسطى كتطوره فى القارة على وجه التقريب ، فانتقل من داخل الكنيسة إلى فناء أمامها ، ثم انتقل من الفناء إلى الساعات العامة. واشتملت « الأسرار » و « المعجزات » الانجليزية على التاريخ المقدس كله، ومثلت أمام جماهير غفيرة من الناس . وأدى هذا النجاح نفسه إلى ظهور المسرحيات الهزلية .

وفى منتصف القرن الرابع عشر ظهر الاتجاه الخلقى أكثر تجرداً ولطافة ،فكان يقتضى جمهوراً من المستمعين أكثر ثقافة . ولكنه سرعان ما اجتاح مع ذلك جمهرة الناس . ثم انفصلت المحاورات الهزلية المبثوثة فى « الأسرار » و « الأخلاقيات » عن هذه « الاسرار » وهذه «الأخلاقيات»، وأصبحنا بصدد شكل درامى جديد ، هو المحادثة الهزلية، وهى مسخرة قصيرة مؤلفة من سؤال وجواب وأخذ ورد ، وقد جلى فيها جون هايوود بوجه خاص .

ثم انبثقت النهضة حاملة تراث القديم والحديث . ورأينا نيكولاس يودول، رئيس مدرسة ايتون، يؤلف مسرحية بعنوان « رالف رويستر دويستر » ، ورأينا تلاميذ المدرسة يمثلونها ، ورأينا المسرحية تضم عدا شخصيات خادمات انجليزيات أحسن تصويرهن، شخوصا كلاسيكية صرفة (كالطفيلي، ومادح نفسه وغيرهما) وتضم على كل حال مشاهد لا يملك المرء إزاءها أن يمنع نفسه من الضحك ، كالمشهد الذي يصور أحد شخوص الدواية وهو يقلب معنى العبارة رأسا على عقب بمجرد تغيير بسيط في النقط فإذا بها رسالة تحقير بعد أن كانت بطاقة تودد، وفي هذه الفترة نفسها مثلت في كامبردج مسخرة جميلة بعنوان « إبرة الأم جورتون » ، حبكتها كلاسيكية وشخوصها انجليزية صرفة .

وكما قلدوا پلوتوس في الملهاة ، فقد قلدوا سينيك في المأساة. وأول مأساة انجليزية جديرة بهذا الاسم هي المأساة التي الفها الشاعران ساكفيل ونورتون بعنوان « جوربودك » (١٥٦١)، وهي سلسلة من الجرائم قصد منها إلى بيان ضرورة تحديد نظام التعاقب على العرش . وكان الجمهور الانجليزي قد أصبح يشعر بالحاجة إلى الانفعالات القوية .

ومضت عشرون سنة في تلمس ومحاولة . وكان لا بد من

إرضاء كل أنواع الناس الذين تضمهم قاعة المسرح الواحدة. كان هناك الشعب النتن الذى يأكل لحم الخنزير ويشرب البيرة الثقيلة فكان لابد أن تتوفر فى المسرحية جرائم عديدة ونكات كثيرة ، وكان هناك أفراد الطبقات العليا من أكلة الطيور النادرة وشاربى الخمور المعتقة وقد تضمخوا بأطيب العطور ، فكان لابد من لغة متعاظمة وعواطف نبيلة . هذه مسرحية « قمبيز » (١٥٦٩) : يريد الملك أن يبرهن على أنه ليس بسكران . فيتناول قوسه ، ويقتل طفلا ، ثم يشرح جثة الطفل ليبرهن على أن سهمه قد نفذ إلى صميم القلب . كل ذلك فى أسلوب بلغ من التنفخ ، والتعاظم ، أن انتقده بعد ذلك شكسبير. وسرعان ما أصبح المسرح مؤسسة قومية أو قل عملا ماليا فصار الناس يقذفون إلى السوق بالمسارح كما يؤسسون اليوم البنوك.

أما كيف يجب أن تتصور المسرح اللندنى فى عصر اليزابث فإليك الوصف :

كان المسرح يقوم فى جنوب التامز ، خارج ولاية لورد مير ، فإذا اقترب أوان التمثيل ، ارتفعت فوق سطح البيت راية كبيرة ، يرآها الناس من لندن ، فيستقلون القوارب ويعبرون النهر . فإذا وصلوا تكوموا فى الساحة الواسعة ،

حيث يباع لهم التفاح والجعة والجوز ، فيأخذون يشربون ويأكلون ويغازلون بنات الهوى اللواتى أتين لالتقاط الزبائن . وعلى منصات ذوات قوائم ثلاث أو على حانات المسرح يقعد المشرفون على الحفلة وبأيديهم عصى يضربون بها الممثلين إذا اخطأوا ، ويدخنون التبغ بغير انقطاع .

ويقوم المسرح عاليا على الساحة، ويتألف من ثلاثة أقسام: المسرح الأمامى، ومنه يخرج الممثلون إلى الكواليس من بابين جانبيين، والمسرح الخلفى، ويفصله عن الأمامى ستار يزاح أثناء التمثيل ألف مرة ومرة ، ثم البلكون وهو يستعمل نادرا . وهكذا يمكن أن يجرى التمثيل فى مواضع ثلاثة ، بدون أن يكون ثمت فترات تفصل مشهدا عن مشهد ، فما ينتهى الممثلون من محاورتهم فوق المسرح الأمامى ويخرجوا من الجانبين حتى يزاح الستار الخلفى ، ويدخل الممثلون الآخرون من باب فى آخر المسرح ويقولون مايريدون قوله، ثم يسدل الستار وينتقل إلى المسرح الأمامى (أو يصعد إلى البلكون) وهكذا دواليك . وبذلك لايكون للجمهور متسع من الوقت للتصفير .

ويكون الإيذان بالابتداء نفخاً فى بوق ضخم . ويبدأ التمثيل : محاورات ورقص وغناء وموسيقى . تتعاقب بغير

انقطاع . . . أما الملابس فرائعة : سرابيل مذهبة ، وثياب مطرزة بالذهب والفضة ، تمثل ثياب البلاط ويلبسها الممثلون على غير تمييز ، سواء أكانوا من الانجليز أم من الرومانيين أم من غير هؤلاء وأولئك . وأما التزيينات فإليك كلام قيل في مدحها : « صخور ، وسرير ، وعرش ، وأثاث كثير وابواب مدن ، وبيوت ، وأبراج ، وتابوت ، ومنبر ، وأشجار (منها أشجار تفاح من ذهب) ، وجرسان ، وأسود ، وقوس قزح . »

وأما الجمهور فهو يطرب ويهتز ويتحمس ويصخب ويصفق ويشرب ويأكل ويقيء ويتحرك ويعمل أشياء أخرى أيضا !

ويشعر الممثلون أنهم « ناجحون » فيتحمسون ، فيخرجون عن دورهم المكتوب ، ويأخذون يتحاورون فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما بينهم وبين الفكهين من النظارة .

وينتهي التمثيل بين الصراخ والصخب ، وما يأتي الممثلون على النهاية حتى يكون الاعياء قد أخذ منهم مأخذا كبيرا ، فإن معظمهم قد مثل أكثر من شخصية واحدة ، لقلة عدد الممثلين ؛ ومنهم من يمثلون دور النساء ، فلم يكن في ذلك العهد ممثلات ، وكانوا يختارون لتمثيل أدوار الملكات والحرائر شبانا مردا .

هذا مايتعلق بالممثلين ، أما المؤلفون فهم أدعى إلى الرثاء أيضاً . لقد كان عليهم أن يعملوا بسرعة متعاونين . . وكثيراً ما كانوا يعمدون إلى القديم ينهبونه ، أو إلى مسرحيات الجار ينتحلونها بعد تغيير فى العنوان .

وأشهر المؤلفين يومئذ هوچون ليلى ، مؤلف «ايوفوس» وكان يستمد موضوعاته من التاريخ القديم تارة ، (فى مسرحية كامپاسب أخرج الاسكندر وآبليس) ومن الأساطير تارة أخرى (آنديميون) . وكانت مسرحياته خفيفة الظل جميلة . وهناك الشاعر چورج پيل (١٥٥٨ — ١٥٩٨) ، وقد نافس ليلى بعض الوقت ، لكن ليلى غلبه فانصرف إليه الشعب وقد أخرج التوراة على المسرح (حب داود وبتهاسيه الجميلة) . وهناك الهجاء ناش ، والشاعر لودج ، والروائى جرين ، وقد ألفوا كذلك مسرحيات كثيرة إلا أنها لم تلبث أن هوت إلى عالم النسيان ، ولم تعد أصواتهم الخافتة تسمع بين زئير كيد ومارلو ، هاتين العبقريتين الوحشيتين .

أما توماس كيد (١٥٥٨ — ٩٤) فهو مؤلف أول ميلودرامة كبيرة فى عهد اليزابث ، هى «المأساة الاسبانية» ، قد وصف فيها المؤلف عدداً من حوادث الثأر الفظيعة : يقتل هوراسيو

الجميل ذات ليلة بينما يكون مع حبيبته امبريا يبادلها وعود الحب . فيقسم أبوه العجوز المارشال هيرونيمو ليبيدنَّ الجناة عن بكرة أبيهم . ويتظاهر بالجنون تمويهاً على أعدائه حتى يهملوا الاحتراس منه والحيطة له . ولكن سرعان ما يختلط عليه الأمر ، وينقلب الهزل جداً ، فما يفرق بين العقل والجنون . إلا أن الفكرة الثابتة تظل مع ذلك قائمة فى ذهنه تغذيها الأشباح وتقويها رؤى الليل . ويستطيع هيرونيمو أخيراً أن يقتل جانيين رئيسيين من أعدائه ، ثم يستخرج جثمان ابنه الغالى هو راسيو من التراب . ثم يعض على لسانه فيقطعه بأسنانه . ثم يختم هذه السلسلة الدامية من الحوادث بأن يغمد خنجره فى صدر دون كاستيل ثم يغمده فى صدر نفسه .

وقد ظلت هذه المسرحية رائجة خلال خمسة عشر عاما ، ولم تستطع السخريات يومئذ أن تقتلها ، أو أن تحد من رواجها . ولو شهدناها الآن لكانت أدعى إلى الضحك منها إلى البكاء ، ومع ذلك ففيها صرخات وحشية لا نملك إزاءها إلا أن نتأثر .

أما كريستوفر مارلو فهو أدنى إلى الاعتدال وأرفع فى سلم العبقرية ، ولولا أنه مات شابا لكان منافسا لشكسبير : وهو ابن حذاء فى كنتربرى ، وقد عاش فى طفولته حياة مشردة ، ثم تلقى علومه

فى جامعة كامبردج . ويدل اختفاؤه من حين إلى حين وحماية القنصل الخاص له على أنه دخل مبكرا فى سلك الجاسوسية التى تدر من الربح أكثر مما يدر تأليف الدرامات . وبين عامى ١٥٨٧ — ١٥٨٨ مثلت مسرحيته « تامرلان » ، فما كان أجمله من موضوع هذا المذبح الذى يمجد ، فى عبارات نارية ، الارادة الوحشية ، والقوة الرجولية ، والسعى الدائب العنيف إلى المستحيل. حقا إن مسرحية «تامرلان» مسرحية مضطربة مبهرجة ، متعاظمة ، ولكننا نجد فيها من قوة الانفعال وعنف الهيجان ما يجعلنا ننساق معها كانسياقنا مع سيل جارف عرم.

وقد اعتدل مارلو قليلا فى مسرحية« تاريخ الدكتور فاوست المفجع » (١٥٨٨) . ولكن هذه المسرحية ليست للأسف إلا مخططا أو مشروعا ، أو هكذا وصلتنا على الأقل . وإنك لتحس فى المشهد الأخير ، حين يكون فاوست ، يرتعد رعبا فى انتظار الساعة المقدرة فى منتصف الليل، أقول إنك لتحس فى هذا المشهد الأخير عظمة شكسبيرية رائعة. غير أن مجموع المسرحية ضعيف بوجه العموم. وأوضح ما يظهر هذا الضعف فى شخصية مفيستوفيلس . وفى المسرحية استعراض للخطايا الرئيسية السبع ، ومحاورات بين ملاك الخير وملاك الشر ، مما

يدل على أن مارلو قد حاول أن يجدد « الأخلاقيات » التى كانت لاتزال رائجة إلى ذلك الحين .

وقد كتب مارلو مسرحية « يهودى مالطة » معارضة « للمأساة الاسبانية » ، فهى تقوم إذن على فكرة الثأر . ولكن باراباس بطل مارلو بلغ من الشذوذ أنه يوقظ فى نفس مارلو شيئا من العطف الغريب .

ثم ازداد مارلو اعتدالا وتعقلا ، وازداد تمكنا من أداته ، وصقلا لكتابته ، وترويا فى عمله ، وتعد مسرحية « ادوارد الثانى » أول مأساة جميلة من التاريخ القومى فيما قبل شيكسبير . ومع ذلك فإنك تقع هنا وهناك على تطرفات شتى تدل على أن مارلو الفتى لم يمت من نفسه . ولكن قوة البناء ، وعمق التحليل ، وجدة الأسلوب ، كل ذلك يدل على أن مؤلفا جديدا عظيما جدا قد ولد . . وأنه لن يلبث أن . . .

ولكن فى مايو من عام ١٥٩٣ وجدت عند كيد أوراق فيها هجوم على الدين ، فقبض على كيد ، واستجوب فى الأمر ، فاعترف أن الأوراق لمارلو . وأكد الشاهدون أن مارلو يدعو إلى الإلحاد أينما ذهب ، ويقرر أن « من لايحبون التبغ والغلمان أغبياء مغفلون » . عندئذ أصدر القنصل الخاص أمره

إلى مارلو أن يحضر كل يوم ، وقرر أن هذا الجاسوس أصبح خطرا . وفى اليوم الأول من يونيه ، فى أثناء شجار وقع لمارلو فى فندق فى ديتفورد وحضره بعض مخبرى البوليس ، طعن مارلو بخنجر فى صدره ، فوقع على الأرض وهو يسب الدين ، ومازال يجدف حتى لفظ آخر أنفاسه ، وأبى مارلو إلا أن يطلق مع آخر نفس شتيمة أخرى . . .

كذلك مات هذا الرومانطيقى الساطع الملتهب فى الساعة التى أخذ فيها يتسلق الذرى . ولولا أن انبثق شكسبير فى هذه اللحظة نفسها ، لكانت الخسارة فيه لا تعوض .

٢ — الازدهار

ينبغى أن لا يبهرنا نور شكبير فنعشى عن رؤية بعض الكواكب المتألقة .

ومن هؤلاء طائفة الانسانيين ، وبينهم شاپمان ، وبن جونسون ، الأول عادى والثانى عبقرى خالد .

فقد أفاد شاپمان الأدب بترجمة لهوميروس أكثر مما أفاده فى بمسرحياته الصاخبة المزعجة . وليس لمسرحية « بسى الامبوازى » من قيمة إلا فى عمق تحليلـه لشخصية تاميرا (سيدة مونتسورو)

ولا كذلك بن جونسون (١٥٧٣ — ١٦٣٧)، فهو شاعر غنائى من الطراز الأول، فضلا عن سعة اطلاعه وقوة شخصيته، ويدين بخلوده إلى ملاهيه. وقد ألف خمس عشرة مسرحية. على أن المسرحيات التى كتبها فى سن النضج هى التى ينبغى أن تعد من عيون الآثار الأدبية، أما الأولى فلا تبلغ هذا المبلغ من القوة.

فى مسرحية ڤولپونى يحدثنا بن جونسون عن شيخ عجوز اسمه ڤولپونى تحيط به طائفة من الناس تحاول أن ترث ثروته، فيتظاهر بأنه مشرف على الموت، فيجن جنون هؤلاء الناس، ويتسابقون فى إكرام العجوز فى شبه مزايدة محمومة، ويضحون من أجله بالشرف والثروة، بل إن أحدهم يقدم إليه امرأته. ثم ينكشف لهم أمره، فيهرعون إلى العدالة يشكونه. ولكن العدالة تبرئه.. إن سراب الذهب ليسوغ أحقر الحقارات.

إلا أن هذه المسرحية تؤلم أكثر مما تضحك. ولا كذلك مسرحية إپيسين (١٦٠٩) فهى تضحك فحسب. هى قصة عازب مستوحش، مصاب بالنورستانيا، يخشى الضوضاء خشية مرضية، فيلف أذنيه بعصبة كثيفة تمنع عنهما وصول الضجة، ويسكن فى شارع ضيق لا سبيل إلى مرور العربات.

فيه ، ويفرش السلالم حتى لايكون لوقع الأقدام صوت . ولكى يحرم ابن أخيه من ثروته، يتزوج من فتاة صغيرة قالوا له فى وصفها : إنها صموت إلى درجة الخرس . وكان ابن الأخ فى الواقع هو الذى دبر المؤامرة. وفى وسعك إذن أن تحزر باقى القصة : فى ليلة الزواج أخذت العروس الصموت تنبح وتعوى وتصدر أصواتا كأصوات الرعد ، ثم هى تدعو فرقة موسيقية لإحياء حفلة العرس . فيقرر موروز المسكين أن يطلقها على الفور . ولكن ما العمل ؟ وما هو السبب الذى يجب أن يحتج به لتسويغ الطلاق؟ هنا يظهر دور ابن الأخ . فيعرض على عمه أن يحل له الأمر مقابل خمسمائة جنيها يدفعها له فى كل عام. ويقبل موروز . وهنا ينكشف أمر العروس: لقد كانت شابا ، فكان الزواج لاغيا إذن بطبيعة الحال . . .

وقد كتب بن جونسون كذلك مسرحيتين رومانيتين هما « سيجان » و « كاتيلينا » ، وملهاتين هجائيتين هما « الكيميائى » و«سوق سانت بارتلمى» ، وفيهما يهاجم البيوريتانية . ولو جُردتا من بعض أثقالها لكانتا أشبه بما يروج الآن من مسرحيات فى المدن الصغرى بأمريكا .

وأخيرا فقد برز جونسون فى كتابة ما يسمى « Masques » وهو عبارة عن رقص فخم مصحوب بموسيقى وكلام .

وقد أصبح للكلام بفضل جونسون شأن كبير فى هذا النوع من التمثيل ، ولكن برغم جهوده أصبحت الشخصيات الفظة أو الشريرة تسود شيئا بعد شيء ، وحل محل هذا النوع نوع آخر سمى Antimasque ، كما ان الآلية والحركات ازدادت على حساب المحاورات والأناشيد الغنائية .

ونقول بوجه العموم إن العيب الرئيسى الذى يؤخذ على جونسون هو الثقل . وهو عيب شاپمان كذلك . وقد تعاون هذان المؤلفان مع مؤلف درامى ثالث من كتاب الطبقة الثانية اسمه مارستون (١٥٧٥- ١٦٣٤) فألفوا معا ملهاة بورجوازية رائعة ، بعنوان « هيا إلى الشرق » ، وهى تمثل صانعا فى لندن عنده أجيران أحدهما فتى نشيط والثانى شاب متهتك ، وعنده كذلك فتاتان إحداهما عذراء عاقلة والثانية سيئة مغرورة . يتزوج الأولان ، وينعمان بالسعادة ، ويشقى الآخران ثم لاينجيهما من الفضيحة إلا تدخل الأولين . حقا إن الموضوع لاقيمة له ولكنك تنسى الموضوع لجمال الوصف وتدفق الحيوية .

وقد شهدنا فى هذا العصر نفسه حالات كثيرة من هذا التعاون الخصب ، ولكنه لم يوفق مرة كما وفق فى مسرحية

« The Changeling » . لقد كتب مؤلفاها ، مدلتون (١٥٧٠ — ١٦٢٧) ورولى (١٥٨٥ — ١٦٤٢) ، آثارا طيبة منفردين ، ولكنهما لم يبلغا من كمال الروعة فى تأليف المأساة ماوصلا إليه فى هذه المسرحية . لقد خلقا شخصية شيطانية من الطراز الأول ، هى شخصية المغامر فلورز : علجوم قذر مرعب ، يرتكب جريمة قتل بأمر بياتريس الجميلة ، ويطلب إليها أن تستلم له ، منشبا فيها أظفاره . والفتاة تحبه فى سرها حبا ينقلب إلى كره .

نصل الآن إلى ديكر (١٥٧٠ — ١٦٤١) . وبوصولنا إليه نعود إلى التفاؤل المرح . ومن مسرحياته مسرحية « عيد الحذاء » ، وهى تصور رجلا صبوراً لايخرجه عن أناته شىء ، لا أمرأته الشرسة ولا أجراؤه الشكسون ، ثم « كونتا » شابا يشتغل أجير حذاء رغبة فى التقرب من خطيبته . كل ذلك فى جو متفائل مرح .

والمسرحية الثانية العظيمة من مسرحيات ديكر هى « البغى الشريفة » : وهى تصور بغيا تدعى بلافرنت ، ترتد إلى الفضيلة بعد نصح طويل يسديه إليها رجل صموت ، فترغم الرجل الذى أغراها لأول مرة على الزواج منها ، فإذا بالرجل الصموت

يغدو لعوباً يحاول إغراءها ، فتتأبى ، وترده عن نفسها . ويكون خادمها هو أبوها على غير علم منها ، ويحاول إغراءها كذلك ! ما أمتعه من منظر ! منظرُ هذا العجوز المتيم يلتهب شوقا . . . أما المشاهد الأخرى التى يعرضها لنا ديكر فى « مستشفى المجاذيب » ، أو « سجن النساء » ، فقد بلغت غاية ما يمكن أن يتمناه هواة الواقعية الفظة .. إن العاطفة والأخلاق ليست من شأن هؤلاء المؤلفين الذين كتبوا فى عهد اليزابث.

إلا أن علينا مع ذلك أن نستثنى مسرحية « المرأة التى قتلها العفو » ، وهى خير آثار المسرحى المكثار توماس هيوود (١٥٧٥ — ١٦٥٠) . موضوع المسرحية موضوع مبذول : زوجة فاضلة تعنو يوماً لإغراء صديق حميم لزوجها فتزل بها القدم . ويتفق أن يفاجئها الزوج . . فبدلا من أن يقتل زوجته . يقضى عليها أن تعيش وحيدة ، بعيدة عن أقاربها ، فى بيت مستقل : فيكون عفو الزوج عن زوجته على هذا النحو أبلغ تأثيرا فى نفسها من الانتقام ، فما يسعها إلا أن تنتحر . . .

لعلك تسخر من الموضوع وترميه بأنه غير واقعى . فما هذه الطيبة الغريبة من جانب الزوج ! وما هذه الفضيلة العجيبة من جانب الزوجة ! نعم ، ولكنك لا تفكر فى هذا كله إلا

بعد الفراغ من رؤية المسرحية . إن فى مشاهدها لمواقف نفسية قوية ، تصور النفس الإنسانية أصدق تصوير ، فما تستطيع أن تضحك مهما بلغت من قسوة السخر .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ الجمهور الاليزابثى بعد عام ١٦٠٣ يميل إلى النوع الباكى . لقد كان قبل ذلك يتطلب مشروبات قوية ليعول ، وأصبح الآن يتطلب مشروبات ناعمة ليحاول أن يدمع . إن ظهور هذه العاطفية مؤذن بالانحطاط .

٣ — الذبول

طائفتان من مؤلفى الدرامات حاولتا أن تمهدا الطريق للانحاط : الأولى بتقوية العنصر المأتمى فى المسرح الإلزابثى والثانية بإدخال التقليد الساخر والملهاة الخفيفة فى الإنتاج الدرامى .

أما الطائفة الأولى فأبرز رجالها اثنان هما تورنر (١٥٧٥ — ١٦٢٦) وويستر . ويتمتع هذان المؤلفان بمواهب قوية ، ولسنا نعرف شيئا عن حياتهما ، وقد اختصا فيما يسمى « بالدرامة السوداء » . فلست ترى بين المآسى مأساة جمعت من المشاهد الفظيعة ما جمعت « مأساة الإنتقام » لتورنر ، وإليك بعض مشاهدها فاحكم عليها بنفسك :

يكمن ڤانديس (وهو المنتقم) فى طريق موكب الدوق ، وبيده جمجمة عشيقته الذى سممها الدوق . حتى إذا مر الموكب شد الدوق إلى مكمنه واضطره أن يقبل شفتى الرأس الميت وقد طلاه بالسم : وفيما يكون الدوق فى دور الإحتضار ، يريه الدوقة بين ذراعى سپوريو، ابنه غير الشرعى . ومشهد آخر : مشهد أنطونيو الذى هتك ابن الدوقة عرض عروسه ، يكشف عن جثمان امرأته . ثم مشهد جراسيا ، أم ڤانديس ، تدفع ابنتها فى حمأة الدعارة للحصول على المال ، وتقوم عند ابنها بدور القوادة . ثم ختام الدرامة : مذبحة عامة .

ونلاحظ هذا التطرف فى « مأساة الملحدة » ، المسرحية الثانية لتورنر : امرأة تتقدم إلى كل رجل قوى ، وتتلقى الجواب على ذلك ملاطفات من هذا النوع : « إن حب المرأة أشبه بفطر من الفطور ، ينبت فى ليلة ، ويقدم لذة فى الغد على المائدة ، ولكنه سرعان ماينشر رائحته الكريهة ويسمم » . ويجرى أكبر مشهد من الدرامة فى المقبرة ، حيث ترقد شخصيات هذه المسرحية . قال مارسيل شوب متحمساً « لقد ولد تورنر من زواج إله مجهول بأم عاهرة » وأقول أنا بدون أن أذهب هذا المذهب ، إننا لا نستطيع إلا

أن ندهش لهذه الروح الفاجرة عند تورنر ، ولهـذه النـ
الفظيعة إلى الحياة ، ولهذا الإشمئزاز من الإنسانية .

أما وبستر (١٥٧٥ - ١٦٢٤) الذى أعقبه مباشرة ،
أسمى موهبة من ناحية البناء والشعر . وقد استمد موضو
من تواريخ إيطاليا فى عصر النهضة ، وهى تفيض بأخ
الجرائم . فى مسرحيته « الشيطان الأبيض » يصـور
فضائح بغى اسمها ڤيتوريا تدفع بعشاقها وخلانها إلى ارتكـ
جرائم القتل ، ثم يرفع أمرها إلى القضاء لتحاكم على جـ
الجرائم التى حضت على وقوعها ، فتقف تدافع عن نفـ
أمام القضاة ، فإذا بها تبلغ فى دفاعها من قوة البلاغة وقـ
التأثير ما يذهل القضاة فما يجرؤون أن يحكموا عليها بالاعد
وفى مسرحيته « دوقة أمالفى » يصور لنا امرأة مسكينة يدفـ
إخوتها إلى الجنون والموت : فى وسط الظلام يمدون إ
يد رجل ميت زاعمين أنها يد زوجها أنطونيو ، ثم يضيئـ
النور فترى وراء حجاب شفاف وجوه أنطونيو وأبنائها فى وهـ
الموت (وقد صنعت الوجوه من الشمع). ثم تحاط المسكـ
بعدد من المجانين ما تلبث أحاديثهم الجنونية أن تفقـد
صوابها ، قبل أن يبطش بها السياف . ولـكن كفى .. كفى

ولنعد إلى الاعتدال بحديثنا عن جون فلتشر (١٥٧٩ - ١٦٢٥) : هو ابن أسقف لندن ، أديب مرهف الحس دقيق الذوق ، صاحب مسرحية ريفية جميلة بعنوان : « الراعية الأمينة » . وقد كتب بالاشتراك مع بومونت (١٥٨٤ - ١٦١٦) معارضة هزلية رائعة للدرامة البطولية « فارس السيف القاطع » . يذهب أحد البقالين مع امرأته إلى المسرح ، ويخشيان أن تكون المسرحية المعلن عنها « بائع لندن » هجاء لاذعا لطبقتهم ، فيطلبان إلى أجيرهما رالف وهو ، من قراء الروايات البطولية أن يلعب دوره فى المسرحية ليكون فخر البقالين ، فيقوم هذا بدور فارس السيف القاطع ، فنشهد له عددا من المآثر الحميدة ، منها أنه ينقذ زبائن حلاق (كان ينعت فى ذلك الظرف بالعملاق بارباروسا) . إلى آخر ما هناك . وهكذا نرى ثلاث ملاه فى ملهاة واحدة . المسرحية الأولى (وهى هجاء الدونكيشوتية) ، وإضافات الفارس رالف المتنفخة ، ثم تعليقات البقال وامرأته ، وهى من أجمل التعليقات وألطفها . ونرى المؤلف ينتقل من الشعر المرسل إلى الشعر المقفى ، ومن الشعر المقفى إلى النثر ، بدون أى تدرج . ولكنك لا تحس فى ذلك كله شيئا من الفوضى أو

الاضطراب . وهذه ناحية قوية لم يوفق إليها فلتشر فيما كتب بعد ذلك .

أما تلميذه ماسنجر فتعوزه الأصالة والقوة . إلا أن له مسرحية بقيت مع ذلك حية إلى حد كبير ، وعنوانها « طريقة جديدة فى تسديد ديون قديمة » ، وهى تمثل مرابيا شاذا غريبا ، يحب المال لأن المال يتيح له أن يحطم غيره . فهو امرؤ مولع بالتعذيب ، فليس يسعده شيء كما يسعده أن يرى الناس يتعذبون . ولكنه يقع أخيراً فى الفخ ، فنشهده وهو يرغى ويزبد ويعض الأرض ، ويساق إلى مستشفى المجانين . ألم تتذكر مارلو وبن جونسون ؟

هذا هو ، رغم كل شيء ، خير ما فى الدرامة الاليزابثية (نحن الآن فى عهد شارل الأول) . وقد اكتشفت أخيراً مسرحية لمؤلف اسمه فورد (١٥٨٦ - ١٦٣٩) تمجد حب المحارم فى حب جيوفانى لأخته أنابلا التى تزوجت . وتتأبى الأخت على أخيها ، فيقتلها فى الكواليس ، ثم يعود إلى المسرح وهو يهز قلب أخته الدامى على رأس خنجره . مرحى فورد ! ولكن تورنر كان « أشطر » منك ! . . .

ويمكن أن نذكر كذلك اسم شيرلى (١٥٩٦ - ١٦٦٦)

الذى قلد سابقيه ، ولـكنه برهن على تمكنه من صناعته وعلى براعة عظيمة .

وما هى إلا لحظة حتى ساد ليل شامل وظلام دامس . ويقطف البيوريتانيون ثمرة جهودهم الطويلة ، فيصدر فى عام ١٦٤٢ قرار يقضى بإغلاق المسارح . .

ولما فتحت المسارح بعد ثمانى عشرة عاما كان الذوق قد بلغ من التغير أن تساءل الناس : كيف أمكن أن يكون أجدادنا بدائيين إلى هذا الحد ؟

الفصل السادس

وليم شكسبير

١ — المؤلف والرجل

سيدُ الأدب العالمي غير منازع . معجزة من معجزات العبقرية . كان منافسوه من خريجي الجامعات يحسدونه في أثناء حياته ، فيرذلونه ويشنّرون عليه . ولكن هيهات أن ينال قزم من عملاق . تعيش أبطاله حياة فوق الطبيعة فما يعرف الهرم إليها سبيلا .

ليس يضيره أن يقع في شيء من التكلف والغلظة من حين إلا حين ، فقد كان يعرف كيف ينهض ثانية . لم يكن يسعى إلى أصالة ، فإنما هو مورّد مسرحيات يريد لفرقته أن تكسب وتربح . كان يتبع الذوق السائد ، فشعاره الحياة أولا . فإذا أصدرت الملكة أمرها إلى المسارح أن تعمل على « إذكاء » الوطنية ، هب شكسبير يكتب مآسي تاريخية كبيرة في تمجيد الإنتصارات الإنجليزية . . وإذا كان الجمهور

يعنى بالدرامة السوداء ، رأيت شكسبير يكثر من حوادث القتل والتعذيب والانتحار والجنون.. وإذا رأينافلتشر يضمن الغلبة والسيادة للمهاة الخفيفة ، رأينا شكسبير يبادر إلى تصوير شخصيات لطيفة ، ورأينا مسرحياته تفيض عطرا وزهرا .

وكان الذوق العام يتطور بسرعة، فكان لابد من الكتابة بسرعة . فكان شكسبير يستمد موضوعاته من أى معين كان : من أخبار هولنشد أو من آثار بوكاشيو أو باندلو أوغيرها ، بل كان فى غالب الأحيان يكتفى بأن يعمد إلى مسرحيات قديمة فيضيف إليها بعض الفصول أو يحذف منها بعض الفصول بدون أى مراعاة للانسجام . وكان لرغبته فى إرضاء الجماهير، شأنه فى ذلك شأن معاصريه ، يمزج بين عقدة هزلية نثرا وبين عقدة فاجعية شعراً .

ولعلك تقول : وكيف يكون إذن إنسانا عظيما مادام يعوزه الابتكار الأصيل ؟

ولكن مهلا . إن شكسبير مايكاد ينشب مخلبه فى موضع حتى ترى فيه طابع العبقرية .

ليس بين العبقريات التى عرفتها الإنسانية عبقرية واحدة تضارعه خفة وانطلاقا .

عُمِّد شكسبير فى ستراتفورد أن آفن فى السادس والعشرين

من عام ١٥٦٤ . وكان أبوه تاجرا ميسور الحال ، عُين رسميا في وظيفة ذائق للبيرة (في مصلحة قمع الغش) ، ثم عين قاضيا في بلدته (وبهذه الصفة كان يستقبل فرق الممثلين المتجولين) . وأما أمه ماري آردن فكانت تنتسب إلى أسرة من صغار ملاكي الأطيان .

أدخل في « مدرسة النحو » بستر اتفورد ، وهي مدرسة ممتازة ، لم تكن تعنى بالدراسات الكلاسيكية (اللاتينية خاصة) فحسب ، بل بدراسة اللغة الانجليزية كذلك . ثم يفلس الأب ، وبعد ذلك تغيب عن نظرنا شخصية الفتى وليم شكسبير . ولا نعرف من أمره إلا أنه في الثامنة عشرة من عمره تزوج آن هاتاوي التي تكبره بثماني سنين ، وأن الزواج كان اضطراريا ، إذ لم ينقض عليه ستة أشهر حتى كانت الزوجة قد وضعت غلاما .

سافر وحده إلى لندن يسعى وراء الثروة . ودخل ميدان المسرح فكان ممثلا عاديا . لكنه لم يلبث أن اكتشف طريقه كملفق لمسرحيات . وحالفه الظفر ، فاندفع عندئذ وراء التأليف الشخصي . وتردد على اوساط البلاط . فمنحه كونت سوثامبتون حمايته . وقد عالج آلاما عاطفية شاذة : ففي « قصائده » ما يشير إلى

حبه لسيد فتى خانه مع « امرأة سمراء » ! وإنك لتحس فى نبراته لوعة حقيقية وألما صادقا .

ونال الثروة، فقد كان رجل أعمال ممتازا . فاشترى فى مسقط رأسه منزلا استقر فيه عام ١٦١٠. ومات فى الثالث والعشرين من شهر ابريل عام ١٦١٦ ، ودفن فى الكنيسة امام الهيكل .

وجمعت مؤلفاته عام ١٦٢٣ فى مجلد ضخم وكان بعضها قد نشر قبل ذلك فى مجلدات صغيرة ، ولكنه لم ينشرها إلا مضطرا ، فإن بعض اللصوص قد نشروا نصا ناقصا حصلوا عليه بواسطة الاختزال أثناء التمثيل . ويبلغ مجموع ما نشر من هذه المؤلفات تسعة عشر مؤلفاً . منها أربعة عشر فقط نشرت بموافقة للمؤلف .

ولكن شكسبير كان يكتب ليمثَّل لا ليُقرأ ، ويجب ألا نعد النصوص التى وصلتنا من آثاره نصوصا مقدسة نهائية لا يمكن أن تمتد إليها يد . فإنما هى فى معظمها منقولة عن الدفاتر التى كانت تكتب للملقنين ، وكثيراً ما كان شيكسبير يعود إلى نصوصه فيجرى فيها قلمه تبديلا وتنقيحاً وفقاً لما تقتضيه النظارة أو المودة الدارجة . وكثيراً ما كان يضيف تفصيلات تقتضيها الطوارىء والحوادث المستجدة . بل كان

لا يعنيه أن يعرف هل هذه الإضافات أو الاختصارات تسيء إلى تفهم المجموع . وهذا هو السبب فى أن كثيراً من الفقرات غامضة مبهمة .

وقد أمكن تحديد الترتيب الزمنى لظهور مسرحياته الأساسية بالاعتماد على وسائل كثيرة ، منها ظهور المجلدات الصغيرة ، وماتضمنته سجلات «شركة المكتبات» ، وماتتضمنه مؤلفات منافسيه من إشارات ، ثم الفقرات التى تشير إلى حوادث مستجدة ، بل والصورة التى كتبت بها المسرحيات (فإن شكسبير قد فقد شيئا فشيئا احترامه للقافية وأصبح أدنى إلى المرونة) . . الخ .

وتتفاوت قيمة مسرحياته علوا ودنوا ، فمنها الرائع ، ومنها الحسن ، ومنها المتوسط ، ومنها الردىء .وقد أخذ النقاد منذ ثلاثة قرون يقسمونها إلى ثلاثة أقسام عادلة معقولة .

٢ — الشباب الطافح

نستطيع أولا أن نستبعد كل المسرحيات التاريخية تقريبا . فمسرحيتا « هنرى السادس » و « ريتشارد الثالث » أدنى إلى الغرابة منها إلى الواقع : تبدو جان دارك فى مسرحية « هنرى

السادس » فى ملامح امرأة ساحرة — على أن فى مسرحية « ريتشارد الثالث » مشهداً ليلياً رائعاً غداة المعركة الحاسمة ، حيث نرى الملك وقد غزته أشباح ضحاياه .

والطائفة الأساسية من المسرحيات التاريخية هى ذلك التمثال الشاهق الذى أقامه شكسبير تمجيداً لبطل قوى هو الملك هنرى الخامس بطل آزنكورت . ولكن قاعدة هذا التمثال أعنى ريتشارد الثانى لا قيمة لها إلا من حيث هى دراسة لطبع من الطباع : طبع الملك الضعيف، الخيالى، الذى يذهب ضحية أخطائه ، الكريهة والداعية إلى الشفقة فى آن واحد . كما أن التمثال ، هنرى الخامس ، يتحرك حركات فيها كثير من التفخيم . ويحس القارىء أن شكسبير أراد أن يؤلف مسرحية ذات أسلوب فخم . لقد لجم عبقريته حتى خنقها .

وهناك الجزءان الأخيران من مسرحية « هنرى الرابع » وهما جزءان لا يزالان حيين بفضل البطانة الهزلية للعقدة . ولئن كنا لا ننسى ذلك العنصر المؤثر فى المشاهد التى تدور بين الملك الذى هرم قبل الأوان بتأثير الهموم وتأنيب الضمير الحب ، وبين ابنه الأمير هال الفتى الذى يتمرغ فى حمأة

الفسق والفجور بناء على خطة مرسومة ، فاننا ننتظر بوجه خاص مشاهد الحانة حيث يلمع سير جون فولستاف ، رفيق الأمير ، ومرشده ، وضحيته . إن فولستاف يلخص فى شخصيته أبطال الملحمة الرابلية .. إنه برميل متجول يقضى لياليه وهو يمتلىء . وكلما ازداد عبأ للخمر إزدادت قريحته نشاطاً . إن عينيه الصغيرتين تشعان الخبث فى وجهه المستدير استدارة البدر . إنهم يصفعونه ويسرقونه ويصبون عليه ألواناً من الكذب والخيانة والغدر . ومع ذلك فإن الكلمة الأخيرة دائماً له . إن الناس يضحكون دائماً معه لا عليه . إنه البرهان الحى على عظمة الخمر .

وكان من نجاح هذه الشخصية أن عاد إليها شكسبير فى مسرحية « الزوجات المرحات فى وندسور » . ولكنه يقدمه لنا هنا هرما ، غبيا ، سريع التصديق ، تستطيع بورجوازيتان سخيفتان أن تضحكا عليه وتدساه فى سلة الغسيل الوسخة وترمياه فى النهر .

ولا تزال الملاهى التى كتبها شكسبير فى شبابه تصيب نجاحا . ولا سيما اثنتان منها هما « تاجر البندقية » و « كما يعجبك » .. ويجب أن نذكر كذلك مسخرة قديمة عمد إليها شكسبير لحورها ، وهى « ترويض النمرة » ، ومازالت هذه

المسخرة تنال رضى ممن يحبون أن يضحكوا على نحو ما كان الناس يضحكون فى القرون الوسطى .

أما « تاجر البندقية » فهى ملهاة سيئة التأليف ، يتناول ثلاثة موضوعات رئيسية ، فضلا عن الموضوعات الثانوية : الغرض الذى اتفق عليه بين اليهودى شيلوك والتاجر أنطونيو ، ثم قرار پورشيا فى أن يتزوج من بين المعجبين بها ، الرجلَ الذى يختار من بين الصناديق الثلاثة الصندوقَ الجيد ، ثم غرام لورنزو بجيسيكا ابنة شيلوك . أضف إلى ذلك أن هذه المسرحية تحتوى على أمور غير ممكنة الوقوع : فهل تبلغ الغباوة بباسانيو ألا يعرف خطيبته پورشيا لمجرد أنها ارتدت رداء قاض ؟ ولكن ، فى المقابل ، ما أروع ما هنالك من مشاهد فخمة ، كحديث الحب بين لورنزو وجيسيكا ، ثم ما أعظم اختراع شخصية شيلوك ! إن شخصيته لمن التعقيد بحيث فسرها كل قرن تفسيرا مختلفا عن تفسير القرن الآخر : مثلوه أيام شكسبير فى صورة عجوز كريه مكشر لا يقصد من شخصيته إلا أن يضحك جمهوراً ممن يكرهون اليهود . ومنذ عهد الرومانطيقيين خففنا من غلوائنا وأصبحنا نشفق عليه بعض الاشفاق : ليس شيلوك بالذكى ، ولكنه يبلغ من

آلام قلبه وماله وكرامته الإنسانية أننا نكاد نبرر له ما عمد إليه مع أنطونيو من إبرام هذا الوعد الوحشى الذى يقضى بأن يؤدى له أنطونيو رطلا من لحمه . لم يكن ليدور بخلد شكسبير أن الناس ستعجب بيهوديه : لقد فاقه بطله .

وليس فى مسرحية « كما يعجبك » ولا فى مسرحية « الليلة الثانية عشرة » أبطال بلغوا هـذه الدرجة من قوة الوضع . وربما كان هـــذا هو السبب فى أن هاتين المسرحيتين غير ذائعتين ذيوع مسرحية « تاجر البندقية » ، رغم أنهما أكثر توازنا منهـــا . على أن فى مسرحية «كما يعجبك» أشياء رائعة لا تنسى ، فهل ننسى غابة آردن حث نرى روزالند تخفى آلام قلبها ، ونرى جاك المريض بأعصابه يزجى وقته محللا إحساساته ساخراً بالآخرين ! أما « الليلة الثانية عشرة » ، قصة التخفى والحب ، فما أظن أن كثيرا من الملاهى الخيالية تضارعها فى توازنها وحسن تسلسلها ، بل إنك لتأخذ عليها هذا الإسراف فى التوازن : فان المرء ليشاهدها مفتونا بها ، لـكنه سرعان ما ينساها .

وأجمل مسرحيات شكسبير الشاب مسرحيتان : إحداهما خيالية من عالم الجن ، عنوانها « حلم ليلة صيف » ، والثانيـة

مأساة غرامية هى « روميو وجوليت » . ولا شك أن الأولى تحتوى على طائفة من الشخصيات ليست بالشائعة كثيرا مثل: شخصية الدوق تيزيه وحاشيته . ولا شك أيضا أن العقدة الهزلية فيها تبطىء الفعل أو الحدث فيما لا طائل تحته . فالصناع الغلاظ الذين يهيئون مأساة لزواج دوقهم لا يضحكوننا إلا على قدر ما يفيدون فى إضحاك الجنيات : إن العنصر الجنى فى المسرحية هو الذى يشوقنا : شخصية أوبرون الزوج الطاغى الذى ينتقم من امرأته بأن يجعلها تحب بوتون الحائك الخشن القاسى .. الذى ألبس رأس حمار ، الخ

أما« روميو وجوليت»فهى درامة الحب والشباب والنور ، وقد عدتها الأجيال ثروة عامة للبشرية بأسرها . ولا شك أن من الممكن أن نأخذ عليها هذه الخاتمة الميلودرامية المسرفة . وقد نأخذ عليها عدم الاحتشام فى كلام المربية العجوز التى لا تحلف إلا بعذراويتها ، وتمزح دائما بشئون الزواج . . إلا أن فى هذه الدرامة عنصرا أبديا خالدا ، هو هذا الحب الحار العنيف بين شابين ، هذا الحب الذى يدوى فى أعماق القلب كما يدوى صوت الأرغن فى غابة واسعة . قلّ بين الشعراء الغنائيين من بلغ ما بلغه مشهد الشرفة من رفعة وسمو ، حيث يتساقى روميو وجوليت أحاديث الغرام الذى سوف يربطهما حتى فى الموت . . .

٣ — الفترة المظلمة

بانقلاب صفحة القرن السادس عشر ينقلب شيكسبير إلى المأساة القاسية الدامية . . ولا شك أن من العوامل التى دفعته فى هذا الاتجاه ما أصابته « الدرامة القاتمة » من نجاح : إن مسرحية Measure for Measure تنتهى نهاية ملهاة ، ولكنها فى الواقع مأساة ، إنها درامة النفاق . إن أنجيلو البيوريتانى الذى يستفيد من سلطته لإرضاء تبذله هو شخصية مأساة . أما مسرحية «ترويلس وكريسيدا» فهى معارضة لأدب القدماء الذى يريد أن يكون فكها وهو فى حقيقته مر غاية المرارة . وأما « تيمون الأثينى » فهى درامة الخداع والدناءة الإنسانية والدعوة إلى كره الإنسان . وأحسن المسرحيات الرومانية التى كتبها شيكسبير مسرحية « يوليوس قيصر » ، وفيها يبين بمثال بروتس كيف يخفق مواطن طيب مستقيم مخلص أمام سياسى ماكر ، بل كيف يهدم ، بسلامة نيته ، القضية التى احتضنها ، قضية الحرية .

والسلسلة السوداء حقاً من آثار شيكسبير هى مسرحياته الأربع « عطيل » و« الملك لير » و « هاملت » و « ماكبث » ،

وهى أشهر مؤلفاته على الإطلاق. وأكثرها اسوداداً هى «الملك لير». فنحن هاهنا فى عالم من المرضى والشواذ وأنصاف المجانين: هى قصة ملك عجوز متعاظم يدعى لير، يحب المديح، ويريد أن يقسم مملكته بين بناته الثلاث، فيطلب إلى كل منهن أن تقول كلاما فى مدح شخصه العظيم. أما الكبريان جونرل وريجان، فانهما تسمعانه أقوالا معسولة تفيض بالتبجيل، وأما كورديليا فتشمئز من هذا النوع من التمثيل وترفض الإجابة، فيحرمها أبوها من إرثه، وتترك المملكة مع زوجها ملك فرنسا.

إن لير لا يعرف من الملك إلا مظاهر العظمة.. إنه عجوز مزعج يحف به حرس طائشون. ولم يكن يحتمل أقل شىء من النقد، فكلمة واحدة كانت كفيلة بأن تجعله يرغى ويزبد غضباً. وفى ليلة عاصفة ينبذه الجميع إلا مضحكه، فيهرب إلى أرض قاحلة وهو يهذى ويعربد ويشتم العاصفة. وفى ناحية منعزلة يلتقى بإدجار، الابن الشرعى لكونت جلوستر، الذى طرده أبوه على أثر وشاية نماها إليه ابنه غير الشرعى ادموند، فتخفى تحت قناع مجنون متسول. وبينما تزأر الرياح وتعصف، نسمع هؤلاء الثلاثة: المجنون الحقيقى والمتظاهر بالجنون والمجنون المحترف (مضحك الملك) يتبادلان الحديث والهذيان.

وتتراكم الحوادث فتفقأ عينا جلوستر ، وتأتى كورديليا مع الفرق الفرنسية لإنقاذ والدها ، ولكنها تهزم ، وحين يسدل الستار نرى جثث الأموات على المسرح أكثر من أجسام الأحياء . ولا يستطيع الانسان أن يهتم كثيراً بهؤلاء المختلين. إن لير الخرف وكورديليا العنيدة لا تثيران فينا سوى قليل من الشفقة . ولا يبقى لنا من عزاء إلا فى المضحك ، وهو شخص رقيق فكه ذكى من نوع فولستاف .

أما مسرحية « ماكبث » فهى أحسن تأليفاً وأقل تطرفا ، وما أحسب أحداً استطاع أن يحلل الشعور المعذب بأحسن مما فعل شيكسبير فى « ماكبث » . وماكبث رجل كان فى وسعه أن يكون إنساناً صالحاً لولا تآمر القدر عليه . فنبوءة الساحرات ، وثقة الملك العمياء به ، ثم طمع امرأته القاسى. كل ذلك دفعه إلى أن يمثل ذات ليلة دور القاتل الخائف . ويصبح ماكبث ملكا ، ولكنه لا ينعم بالهدوء ، بل تلازمه الأشباح ، وامرأته يحطمها تمزق الروح ولا أقول الندم ، فتصبح مجنونة ، وتجعل تطوف فى أنحاء القصر تمسح يدها لتمحو بقعة من الدم يصورها لها الخيال . وتتسارع الحوادث تترى ، ويموت ماكبت وهو يحارب ، فيفدى نفسه

بهذا الألم الروحى وهذه الميتة الشريفة . . .

أما « عطيل » فإنها تترك فى نفسك شعوراً بالضيق والبرم ، لأن الطباع تتطور بسرعة كبيرة . فهذا عطيل ، المراكشى الذكى المستقيم ، ينقلب فجأة ، بمجرد ما يتسرب الشك إلى روحه ، إلى شيطان محموم غيور مجنون ، وهذه ديدمونة ، المتكبرة الجريئة التى تتحدى حنق أبيها وتطالب أمام مجلس شيوخ البندقية بحقوق الحب فى كثير من الكبرياء ، تتحول بسرعة عظيمة إلى حمامة مذعورة بمجرد مايبدى لها سيدها المراكشى شيئاً من غضبه . وأقوى شخصيات هذه المسرحية ، ولعلها أقوى الشخصيات الأدبية التى عرفها العالم ، شخصية إياجو ، هذا العبقرى الشرير المبغض المتآمر الذى يجد أعظم اللذة وأكبر السرور فى رؤية الناس يتألمون . وحين كشف أمره لم ينبس بكلمة واحدة تنم عن الندم . . .

أما « هاملت » فهى أكثر درامات شيكسبير السوداء تفككاً ، ومع ذلك فهى أروعها وأكثرها إثارة للانفعال . إن شخصية هاملت سر محير ، بل إن أفعاله نفسها محيرة .

فالواقع أن هناك هاملتين . هاملت وحشيا وقحا حقودا يرغب فى الانتقام ، ويهزأ بأوفيليا ، ويحقر جثة بولونيوس ،

ويدفع باثنين من رفاقه إلى الموت دون ماشفقة ولا رحمة . ثم هاملت آخر شريفا نبيلا ، صريحا كريما ، يعترف باخطائه ويحب أصدقاءه ، ويعبد أباه .

إن هاملت يتظاهر بالجنون . . لماذا ؟ إنه لم يكن معرضاً لأى خطر . . . لقد كانت أمه تحبه ، وكان من الممكن أن تحميه من عمه . وعمه يجهل كل شيء . ولكن هذا الجنون المتكلف كان يجعله على حذر من الأمر . ولفرط ما يتظاهر هاملت بالجنون ينساق مع هذه اللعبة الخطرة ، ويفقد رقابته على نفسه . . لقد كان يستطيع تحت قناع الجنون أن يكسب الوقت وأن يعمل . فهنا يكمن كل شيء . إن هذا الرجل البالغ ثلاثين عاماً من العمر شخص ضعيف الإرادة . لقد عاد إلى الدانيمارك منهك القوى ، وهو يفكر فى الانتحار ، ويرزح تحت عبء تلك الحالة النورستانية التى يخاف فيها المريض من مجرد فكرة الجهد المتصل . فلما اكتشف مقتل أبيه هوى إلى درك الانحلال الإرادى . حتى لقد جعل عمه يحاذره ويخشاه على عمد منه . ويدفعه إلى الهجوم دفعاً . ولو أن عمه استطاع أن يستثيره فقط ، إذن لكان من الممكن أن يندفع بجأة إلى قتله ، فإنه حين ضرب پلونيوس الذى كان

يتجسس عليه كان يحسبه عمه . إنه يحاول دائماً أن يستثير نفسه بصرخات وشتائم . . ولكن عبثاً . . وحين يظن أنه قد عزم على الأمر واتخذ قراراً نهائياً ، لا يلبث أن يوحى إلى نفسه اتجاهاً آخر فيتساءل : أليس من الممكن مع ذلك أن يكون عمى بريئا ؟ وتحين الفرصة ذات يوم ولا يبقى بينه وبين الانتقام إلا أن يهوى بيده ، فيصرع عمه . ولكن عمه كان يصلى ، فيجد هاملت فى ذلك حجة للتراجع ، فيقول لنفسه : لو قتلته الآن لمات شهيداً . ولم يقرر هاملت أن يعمل وأن يضرب إلا وقد طعن الطعنة القاتلة .

لم يسبر شيكسبير أعمق الأركان المستسرة من النفس الإنسانية مرة كما فعل فى هذه المرة . وليس هاملت الشخصية المعذبة الوحيدة فى هذه المسرحية الخالدة . فهناك أوفيليا التى يتقاذفها حبها من جانب وواجبها البنوى من جانب آخر . وهناك أيضاً الملكة جيرترود التى لا تعلم هل يجب عليها أن تحب ابنها أم تبغضه . إن مسرحية « هاملت » لهى ذروة من أرفع ذرى الأدب .

٤ — الصفاء الأخير

ولقد عاد شيكسبير فى نهاية حياته إلى الختام التفاؤلى . ومع ذلك فليس بين مسرحياته الأخيرة إلا مسرحية واحدة استحقت الخلود بالفعل وهى « العاصفة » .

أما مسرحية « سيمبلين » فإنها تتناول مرة أخرى موضوع الغيرة ، ولكن عطيلها رجل محبوب ، كما أن شخصية إياجو قد لانت . ولكن ديدمونتها ، أعنى إيموچين ، مخلوقة جميلة نبيلة ، ولعلها أصفى وأنقى بطلة خلقها شيكسبير .

وأما « حكاية الشتاء » فهى أيضاً تروى قصة الغيرة الجنونية متمثلة فى شخص الملك ليبونتس : إنها محكمة التأليف ، ولكنها تشحب إذا وضعت بإزاء « عطيل » . على أن المشهد الريفى فى الفصل الرابع يتمتع بكثير من النضارة والفتنة . إن العيد القروى ، وأفراح خطبة فلويزل إلى برويتا ، وأغانى أوتوليكوس ، هذا المتشرد المفتون بالفضاء والشمس والحب ، كل ذلك يجعلنا ننسى أن خاتمة المسرحية بعيدة عن سياق المعقول والممكن ، وأن من المستبعد أن تكون الملكة التى ظنوا أنها ماتت لا تزال حية . لئن قلنا لشيكسبير منذ هنيهة :

إنك أسرفت فى الخواتيم السيئة ، فليس يسعنا الآن إلا أن نصرح له بأنه أسرف فى الخواتيم التفاؤلية .

وأما فى « العاصفة » وفى « حلم ليلة صيف » فإن الشخصيات السماوية هى التى تخلف فى نفوسنا ذكريات لا تبلى : مثل شخصية آرييل الذى ينطوى اسمه نفسه على عنصر هوائى مجنح خفاق، والذى ينفذ أوامر سيده بروسبيرو ثم يغنى فرحة حياته المقبلة تحت الزهرة المعلقة بالغصن ـ ومثل كاليبان ، خصمه الفظ الغليظ الذى يزجر زمجراته الغريزية الصماء . لقد أراد رينان أن يعد كاليبان رمزا للشعب المستعبد الذى يضمر ثورات قاتمة، فى حين أن شكسبير لم يخلقه إلا ليجعله موضوعا للضحك . ويرى كلاريدج أن آرييل يمثل الخيال الحر ، ويرى هازلت أنه يمثل الروح فى مقابل المادة ، ويرى شليجل انه يمثل الهواء الخفيف فى مقابل العنصر الثقيل أعنى الأرض ، ويرى ريشين أنه يرمز إلى « الروح التى تطوف فى الأشياء » . أليس من خصائص العبقرية أن تخلق شخصيات يفسرها كل عصر من العصور وكل شارح من الشراح على نحو خاص ؟

لم يخلق شكسبير شيئاً . إن شكسبير لص سارق . . . إن

شكسبير عبد « المودات » . لقد استلب موضوعاته من غيره ، وأغار على مؤلفات منافسيه . ولكن شكسبير قد أقام قصورا تتحدى الزمان . إنه الوحيد فى زمانه الذى رأى النفس الإنسانية عارية فى كل جمالها وفى كل قبحها . ولعله الوحيد فى العالم الذى أوتى من مواهب الرؤى ما لا يسند فى العادة لغير الآلهة .

الفصل السابع

الأدب فى ظل البيوريتانية

١ — النثر والشعر

ذبل الأدب فى عهد تشارلز الأول فى إبان الجمهورية ثم ما لبث الليل أن ساد . . . تقطعه بعض البروق الخاطفة ...

إن النثر فقير . . . . أول من نصادفهم سير توماس براون (١٦٠٥ - ٧٢)،وهو لا يكاد يقل غرابة وشذوذا عن بيرتون. وأكبر مؤلفاته Religio Medici وهو مجموعة من المواعظ والاعترافات كتبت بلغة مرهفة فنية . ولا يزال براون يحظى بعدد من المعجبين المتحمسين. على أن المعجبين به أقل عددا من المتحمسين لإسحاق والتون ، وهو كاتب غريب قريب من القلب حبيب إلى النفس ؛ حتى لقد دخل كتابه « الصياد الماهر » فى عداد المؤلفات الكلاسيكية ، وهو مجموعة من الثرثرات الممتعة اللذيذة . . .

غير أن الكتاب الكبير النثرى الوحيد الذى يحمل طابع البيوريتانية لم يظهر إلى النور إلا متأخرا جدا . أى

حين أخذت البيوريتانية تطارد من كل مكان ، وأخذت تميل إلى الأفول . . . أعنى كتاب جون بنيان (١٦٢٨ - ٨٨) : هو إنسان صوفى من أصحاب الرؤى ، قضى فى السجن سنين طويلة فى سبيل إيمانه ، وختم حياته الإشراقية رسولا وراعيا لفرقة كبيرة من الخوارج . إنسان فطرى ، تغذى بالتوراة ، وبعض الكتب اللاهوتية الغامضة ، وكتب لنا كتابا رائعا بعنوان « تقدم الحاج » (١٦٧٨) بلغ فيه أرفع الذرى الصوفية . روى لنا ما كان من أمر (المسيحى) الذى نجا من المغريات ، وأصغى إلى النصائح الحكيمة ، كيف اجتاز وادى (ظل الموت) بدون عائق ثم (سوق الغرور) وكيف نجا من العملاق (اليأس) ، وكيف وصل أخيرا بمساعدة (الأمل) إلى نهر (الموت) وبلغ أبواب (مدينه السماء) .

« وعبر (المسيحى) النهر . وكان على الضفة الأخرى شخصان نورانيان فى انتظاره . سار معهما إلى أعلى الرابية . فلما وصلوا قالا له : ستدخل الآن جنة (الرب) ، حيث ترى شجرة الحياة ، وتأكل من ثمارها التى لا تذبل ، وسيلبسونك حين تصل رداء أبيض ، وستتنزه وتتحدث كل يوم مع (الملك) إلى الأبد . . .

« ولما اقتربوا من الباب كان فى استقبالهم طائفة من حرس السماء . فقال الشخصان النورانيان : هذا هو الرجل الذى أحب الرب حين كان على الأرض ، وترك كل شىء فى سبيله،وقد أرسلنا الرب لإحضاره فأحضرناه،حتى يستطيع أن يدخل ، وأن يرى وجه (مخلصه) فرحاً . .

« واجتاز (المسيحى) الباب ، فتحول إلى كائن آخر ، وألبسوه ثوبا يلمع كالذهب ، وسمع أجراس (المدينة) كلها تدق دقاً فرحا . لقد كانت المدينة تلمع كالشمس وكانت الشوارع مفروشة بالذهب » .

غير أن بنيان لم يستطع أن يضع قدمه مرة ثانية على هذه الذرى الصوفية ، فقد جاء الجزء الثانى من كتابه ، حيث يروى لنا ما كان من أمر (المسيحية) حين مضت للحاق بزوجها ، أشبه « بسخرة » أجبره على القيام بها الواجب والنجاح . على أن فى كتابه « موت السيد الشرير » لفتات واقعيـــة جميلة تنبىء بديفو .

أما الشعر فى هذا العصر فهو أنمى جداً من النثر ، وإن لم يكن من الطراز الأول . وفى هذا العصر نرى المسرح تحتله طائفة من الشعراء تتصف بالتعقد والتكلف والشذوذ على

غرار دون، وتسمى بطائفة الشعراء الميتافزيائيين، لأنهم يريدون أن يتجاوزوا الطبيعة، وأن يجدوا شيئاً وراء الظاهر الواضح للأشياء. وقد أسرفوا فى مذهبهم فوقعوا فى الشذوذ والمفارقة والمبالغة والاستعارة المعقدة. من ذلك قول أحدهم، وهو كروشو (١٦١٢ — ٥٠): «إن دموع مريم المجدلية هى زبدة أنهار المجرة التى تشرب منها الملائكة عند الصباح». ومن هؤلاء أيضاً فوجهن وهو طبيب قرية، نظم قصائد قصيرة فى الطفولة والطبيعة، وهى قصائد تسيطر عليها فكرة الماضى والموت فى جو دينى. على أن أكبر هؤلاء الميتافيزيائيين قس هادىء يدعى جورج هربرت (١٥٩٣ — ١٦٣٣)، يضم ديوانه «المعبد» قصائد مقفاة تلتزم أدق القواعد الشعرية وأخرى حرة لا تتقيد بشىء قط، كما يستعمل استعارات أرضية فى التعبير عن وثبات صوفية.

ويمكن أن ننسب روبرت هيرك (١٥٩١ — ١٦٧٤) إلى طائفة الميتافيزيائيين، ولو أنه فى الواقع أعظم وأكثر أصالة من أن ينسب اليهم. وهو قس فى الريف أيضاً، ولكنه كان قبل ذلك فى البلاط، وكان أبوه صائغا، وكان يقرض الشعر هو الآخر. وديوان هيرك «هسبيريدس» عبارة عن قصائد

دينية وأخرى هجائية وبعض مقطوعات المناسبات . وقد عفّى الزمان عليها وطواها النسيان . إلا أن له شعراً عن الجن لايزال حياً ، وله كذلك شعر جميل فى الخمر وفى الحب الشهوانى. ولا نزال نقرأ بشغف قصائده القصيرة التى يتغنى فيها بالموسيقى والأزهار والمراعى .

وعلى الطرف المقابل لطائفة الشعراء الميتافيزيائيين ، هؤلاء الشعراء الدينيين ، الانجليكانيين أو الكاثوليكيين ، تقف طائفة الشعراء الفرسان أو شعراء البلاط . وزينة هذه الطائفة شاعران أولهما كارو (١٥٩٨ — ١٦٣٩) ، وثانيهما لقليس (١٦١٨ — ٥٨) ، وقد عرفا كيف يغنيان الحب المتحلل فى شعر فنى جميل — ثم طائفة البيوريتانيين ، وألمع شخصياتها شخصية أندرو مارفل (١٦٢١ — ٧٨) وهو رجل سياسى كانت له ساعات من الإلهام الشعرى فذة نادرة . وهو شاعر الحدائق بالدرجة الأولى ، وأول من راقب طير السمانى ولاحظ بريق عينيه .

وفى آخر هذه الفترة ظهرت المدرسة الكلاسيكية الجديدة التى حاولت ، بدون أن تتحرر من هوس الميتافيزيائيين ، أن تقدم للعالم الحديث قصائد تضاهى عيون الآثار القديمة .

وأكبر أقطاب هذه المدرسة كولى (١٦١٨ — ٦٧) وقد عرف «كيف يحلل الحب إلى عناصره كما يحلل الموشور شعاع الشمس إلى ألوان الطيف». وقد تعهد الأنواع الكلاسيكية، كالرثاء والقصيدة البندارية[1] بل والملحمة. وفى هذه الأثناء كان دنهام (١٦١٥ — ٦٩) فى «رابية كوپر» يروى لبنى وطنه الحوادث التاريخية التى شهدتها ضفاف التاميز، وكان والر (١٦٠٧ — ٨٧) ينظم أشعاراً جميلة فى المناسبات.

ولكن ذلك كله ذهب مع الريح. إن هؤلاء الكلاسيكيين المحدثين أصبحوا لا يهمون الآن غير المؤرخين. ولئن كان كولى لا يزال يحتفظ ببعض المعجبين فإنه يدين بذلك بالدرجة الأولى إلى «مقالاته» النثرية الرشيقة. ومع ذلك يجب ألا ننسى أنه ظل خلال قرن كامل يعد أبا الشعر الحديث.

---

(١) بندار (٥٢١ — ٤٤١ق٠م) أمير شعراء اليونان الغنائيين، امتازت قصائده بقوة الفكر وجمال الاستعارة وروعة الأسلوب ووفرة الصور، وحرارة الرواية. ويؤخذ على قصائده شيء من الغموض والتعاظم.

٢ — چون ملتون

هناك كاتب موهوب واحد يسود انجلترا الپيوريتانية : چون ملتون . وهو كاتب عظيم مافى ذلك ريب . ولكنهم



ملتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤

بالغوا فى تعظيمه فى الأوساط الفكرية بانجلترا . والطريف فى الأمر أنهم كانوا يظنونه أرثوذكسيا إلا أن الأبحاث الجديدة بينت أن تفكيره الدينى كان مستقلا جريئا إلى حد بعيد . وقد

عدّه بعضهم نداً بشكسبير . وأصبح ملتون الآن موضوع خلاف كبير بين الباحثين . والاتجاه الراجح الآن هو تمجيد ملتون الفارس الغنائى على حساب ملتون الملحمى المسيحى .

ولد ملتون فى لندن عام ١٦٠٨ ، وانصرف إلى حياة الأدب فى سن مبكرة . وكان أبوه يحضه على ذلك . وكان منذ عهد المراهقة إنسانى النزعة ، بارعا فى الموسيقى ، تقيا على غير إفراط .

ودخل جامعة كمبردج عام ١٦٢٥ . ولفت إليه أنظار الجميع بوفرة اطلاعه وقدرته على العمل ، وكان موضع إعجاب أساتذته وزملائه جميعا . وكان ينظم شعراً باللاتينية والإنجليزية ، فكان هذا مؤذناً بعبقريته . فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره كتب قصيدته عن « صباح عيد المسيح » وهى تحتوى على مقاطع منسجمة مؤثرة فى موت پان .

وكان كل شىء يهيئه لأن يكون كاهنا ، ولكن الأسقف لود كان يسير بالكنيسة الانجليكانية عندئذ نحو الأرثوذكسية . وترك ملتون الجامعة بدون أن يدخل فى سلك الاكليروس . واعتكف عند أبيه فى هورتون مدة خمسة أعوام . وفى خلال هذه المدة (١٦٣٢ — ١٦٣٨) نظم قصيدتين

رائعين أولاهما « L'Allegro » وهى تغنى ربيع الطبيعة والقلوب والثانية « Penseroso » وهى تتغنى بالتأمل الكئيب الذى يهجر الأرض متجها إلى السماء . وكتب بعد ذلك فوراً مسرحية خيالية بعنوان «كومس» تكاد تكون مسرحية واقعية ، وفيها صور لنا أليس الحسناء ، بنت كونت بردجوتر ، تضل فى الغابات ، ويلاحقها كومس الجنى الساحر يحاول عبثا أن يغزيها وآخر قصائد شباب ملتون قصيدة بعنوان « ليسيداس » وهى مرثاة رقيقة نظمها بمناسبة موت زميل له فى المدرسة ، ولا يفسدها إلا إسراف فى الروح الريفية .

وفى عام ١٦٣٨ سافر ملتون إلى إيطاليا ، وكان يفكر فى كتابة ملحمة قومية كبيرة عن الملك آرثر . فلما أتته أخبار الحرب الأهلية أسرع إلى لندن واندفع جسما وروحاً يساهم فى النضال مع البرلمان ضد الملك . وكاد يهجر الشعر هجراً تاما ، فما كان ينظم إلا بعض السونيتات من حين إلى حين ، (واحدة عن مذبحة الفوديين وأخرى عن فقده بصره الخ) ؛ ووقف نفسه على خدمة الحرية بمهاجمة أعدائها ، فهاجم أولا الأساقفة الانجليكانيين ، ثم الملك ، وأخيراً البرسبتيريين . كان بطل الأفكار التقدمية ، وأحسن

كتاباته الهجائية ما كتبه بعنوان « Areopagitica » ، وفيه هاجم قيام الرقابة بمنطق قوى وبلاغة رصينة . واندمج فى الحياة العالمية ، فكان السكرتير اللاتينى لكرومول ، وتساجل مع أكبر مفكرى أوربا ، وظفر عليهم جميعا .

قد هوى فجأة وزال مجده . فلما وافى عام ١٦٦٠ وارتقى شارل الثانى مرش آبائه ، لم يعد ملتون شيئا مذكوراً ، وأنفق السنين الأخيرة من حياته فى كتابة ملاحم من التوراة كان قد تصورها فى صورة مآسى يونانية مصحوبة بكورس . وعندئذ سيطرت عليه فكرة الأسطورة . وكان قد فقد بصره . ولعل ذلك يرجع إلى أنه أسرف فى استخدام عينيه المسكينتين دفاعا عن البروتستانية . وأخذ يملى أشعاره على امرأته وبناته ، وهن يكتبن مايملى ، ويعزفن أحيانا على العود ترويحا لنفسه وإيقاظا لوحيه .

وفى نهاية عشر سنين كان ملتون قد نظم ثلاث ملاحم بلغة انجليزية تتبع خطى الجملة اللاتينية ، وشعر مرسل يكاد يخلو من الوزن ، اثنتان من هذه الملاحم الثلاثة كاد يطويهما النسيان : « العودة إلى الفردوس » ، وهى تصور امتحان المسيح فى الصحراء ، و « شمشون المقاتل » ، وهى درامة يشبه فيها ملتون مصيره بمصير بطله .

أما الملحمة الثالثة منهى « الفردوس المفقود » (١٦٦٧) .
وقد ظل الناس خلال قرنين كاملين يكيلون لها المديح جزافا ، والحقيقة أنها فى مجموعها لا تصمد لامتحان نقدى . فلئن كان يحلو للعلماء والمؤرخين أن يمضوا يكتشفون مصادرها فى التوراة ويؤولونها ، فإن القارىء العادى ليضيق ذرعاً بهذه التشبيهية الفظة فى الغالب . إن الأشخاص فيها تتطور وتتبدل ، حتى « الأبدى » الذى كان يجب أن يظل ثابتا لا يعتوره تغيير ولا تبديل . والملائكة عزّاب قساة لا يكادون يتأدبون فى معاملة حواء ، فكانوا يرسلونها إلى المطبخ متى أرادوا أن يلقوا على آدم درسا فى الكوزموغرافيا أو اللاهوت أو التاريخ . والسماء منظم كتنظيم مجلس اللوردات، والجحيم أشبه فى تنظيمه بمجلس العموم . وفى قلب المعركة يخترع الشيطان المدفعين ، ولكن مدفعه قريبة المرمى جداً بحيث يستطيع رؤساء القطع أن يتحدثوا بسهولة مع المحاربين الذين أمامهم .
« والأبدى » مولع بالاستعراضات ، مغرم بالتمرينات العسكرية فى الثكنات . إنه يعين هيئة من الحرس فى دهليز الجنة الأرضية ، ويأمر بطواف العسس فى الليل ، ولكن هذا لا يمنع « الشيطان » من أن يمر ، وحين يأتى الملائكة قلقين

لتقديم تقريرهم ، يزعم « الأبدى » بكل هدوء وبرود أنه قد تنبأ بأن الحرس لن يكونوا إلا خشبا مسندة . . .

وإذا كان ذلك كذلك ، فمن أين أتت هذه الشهرة العظيمة التي أصابتها هذه القصيدة . لقد أتتها أولا من أنها تحتوى على فقرات وصفية رائعة ، وإيحاءات موسيقية خارقة ! وأتتها ثانيا من شخصية (الشيطان) البطل الحقيقي للقصيدة ، الذى يعيش حياة عنيفة غنية . إنه التمجيد الرائع للكبرياء . إنه بطل (الحرية) الذى لا يمكن ضبطه أو السيطرة عليه . إنه (الروح) . وليس آدم أو الأبدى أو الابن أو حتى حواء ، إذا وضعوا بجانبه ، إلا دمى متحركة . .

لم تقدر قيمة ملتون فى العصر الذى نشر فيه هذا الأثر الذى يعد أحسن آثاره ، ثم أسرفوا فى تمجيده بعد ذلك . وهو يحتل اليوم مكانا مرموقا فى تاريخ الأدب الانجليزى . إنه أول من شعر بأن الثورة والتمرد والألم صفات تعظم من شأن (الشيطان) . ومن هذه الناحية يمكن أن يُعد الرومانطيقيون أتباعا له .

الفصل الثامن

أدب « الاصـــلاح »

١ — العقلية الجديدة

قلّ أن تجد بين الثورات ثورة تضارع « الإصلاح » عام ١٦٦٠ نفاذاً إلى عالم الآراء والأخلاق والعادات.

لقد كانت انجلترا حبيسة فى غرفة خانقة ، فأخذت تفتح النوافذ . كان الناس قد عاشوا فى سأم خلال عشرين عاما ، فأخذوا الآن يمرحون ويسرفون فى المرح . ها هم يلعبون ويسكرون ويعربدون ويشتمون ، ويجرون فى الشوارع ليلا ، يضربون العسس ، ويبقرون أنوف الآخرين ، ويشنقون النساء من أرجلهن ، ويظهرون فى الشرفات سكارى فى أوضاع منافية للحشمة .

أما فى ميدان الأدب فقد كانت السيادة للتأثير الفرنسى . كان كل شىء يهىء انجلترا لنزعة كلاسيكية من الطراز الفرنسى ، على قدر ما يمكن للغة الانجليزية ، وهى رومانطيقية غامضة بطبيعتها ، أن تكون كلاسيكية .

على أن النثر ينتسب إلى ميدان الفلسفة أو التاريخ أكثر من انتسابه إلى الأدب بالمعنى الأصلى للكلمة . وكل من يعنى بتطور الفكر الإنسانى لا يستطيع أن يهمل هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٨) مؤلف كتاب «Leviathan» الذى هاجم التيوقراسية ، ومهد للمذهب الإلهى ، والمذهب الوضعى ، والمذهب النفعى ، وكثير من المذاهب أيضا — لا ولا نستطيع أن نغفل لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) صاحب كتاب « رسالة فى العقل الإنسانى » الذى يمكن أن نعده من ناحية علم التربية ممهداً لروسو . هذا وقد أحيا هواة الطرف الأدبية مؤلفات جلانفيل (١٦٣٦ — ٨٠) عن الساحرات .

وفى وسع المؤرخين أن يتلقطوا كثيراً من الأشياء فى هذا العصر ، فيجدوا مؤلفات كلاريندن (١٦٠٨ — ٧٤) عن الحرب الأهلية ، ومؤلفات الأسقف بيرنت (١٦٤٣ — ١٧١٥) عن الأزمات الداخلية إبان « الإصلاح » ، وأن يجدوا أخيراً وخاصة عدداً من كتب « اليوميات الخاصة » . وأهم هذه الكتب ثلاثة : يوميات ريرزبى (١٦٣٤ — ٨٩) ويوميات إيفيلين (١٦٢٠ — ١٧٠٦) ويوميات پيپز (١٦٣٢ — ١٧٠٤) . وقيمة هذه المؤلفات متفاوتة . فأما

ريرزبى فقد كتب للأجيال المقبلة ، وأما إيفيلين فقد كتبت لأبنائها ، وأما پيپز فلم يكتب إلا لنفسه ، فكان إذا أتى المساء يتناول قلماً وورقة ويدون سراً بأسلوب مختزل كل ما رآه أو خطر له طيلة النهار . ولم يبدأ الباحثون بفك رموز يومياته إلا فى عام ١٨٢٥ ، ولم يجرؤ أحد على نشر هذا الكتاب كاملا إلى الآن ، فلا تزال هناك فقرات لم تطبع ، فقد ارتاع الناشر حين رآها وآثر أن يتجاوزها .

إن هذا البورجوازى الجرىء الذى كان موظفا فى البحرية ، وتزوج بنت هوجنوتى مبعد لم يخف عنا شيئا من ضروب الضعف الإنسانى الذى يتمثل فيه . كان يحاسب نفسه كل يوم ، ويسجل كل شىء كيفما اتفق ، بدون نظام ، فتراه يحدثنا عن تتويج الملك ، عن الأحاديث البذيئة التى تدور فى حاناته المفضلة ، عن طاعون ١٦٦٥ ، عن الفطائر التى أكلها ، والمسرحيات التى شهد تمثيلها ، والمواعظ التى نام أثناءها ، عن الحريق الكبير فى عام ١٦٦٦ ، عن النساء اللواتى امتلكهن ، عن لحظات حماسته الوطنية ، عن تخوطاته الشاقة ، عن خصوماته مع امرأته ، عن العقوبات التى يوقعها على نفسه كلما ارتكب إثما ، عن الوعود التى كان يرتبط بها ويتحلل منها بلطافة .

وهو حين يروى سقطاته يحمر خجلا ، ويستعمل كلمات أجنبية . . .

إنى لأبيع يوميات بيبز كل أدب « الإصلاح » ماعدا المسرح . إن الشعر فى هذا العصر يكتفى بالتعبير عن أفكار شائعة فى صورة سهلة منسجمة . وقد عمل كونت روسكمن (١٦٣٣ — ٨٥) على ترجمة هوراس فى شعر مرسل ، واشتهر بالرصانة والجد ، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم فى مغنية كانت تخشى أن تصاب بالزكام . وهناك كونت روتشستر (١٦٤٧ — ٨٠) وهو مثال الرشاقة فى شعره ، وقد نظم قصائد قصيرة رقيقة وأخرى بذيئة ، كان يتداولها الناس سراً . والأثر البارز الوحيد هو أثر صموئيل بطلر (١٦١٢ — ٨٠) وقد ظفر بالمجد والشهرة على أثر نشر قصيدته « هودبراس » ، وهى قصيدة طويلة من النوع البطولى الهزلى ، متأثرة بسرفانتس وسكارون ، تروى لنا قصة برسبيترى اسمه هودبراس يمضى مع تابعه البخيل رالف ليحارب مفاسد العصر ، فيلقى مايلقى من عنت وعناء . ولكى نقدر مافى هذه القصيدة من تندر « بالنور الداخلى » وغير ذلك ، لابد أن نلم إلماما جيداً بالخصومات اللاهوتية فى ذلك العصر .

٢ — جون درايدن



درايدن ١٦٣١ — ١٧٠٠

إن الرجل العظيم فى هذا العصر هو درايدن . وهو ابن رجل محترم من الريف . حصل ثقافة قوية فى وستمنستر أولا ، ثم فى كامبردج بعد ذلك . وعاش حياة أدبية طويلة . وقد تزوج فتاة من الطبقة النبيلة ، وكان يحظى بعطف الملك ، فاندمج فى حياة البلاط اندماجا وثيقاً ، ولكن هذا لم يمنع كبار النبلاء من معاملته معاملة الحقراء . . وقد رأيناه فى فترة

قصيرة يتغنى بكرمول أولا ثم بالإصلاح بعد ذلك بنفس الحماسة . وحين ارتقى جيمس الثانى الكاثوليكى العرش رأينا درايدن ينقلب إلى الكاثوليكية . . ولكن حين دارت الريح نحو البروتستانتية ، لم يجرؤ أن ينكر نفسه مرة أخرى ، فقضى ما تبقى من حياته منبوذاً .

ليس شعره الغنائى بالشعر الشائق . وقد اندفع فى شبابه مع التيار الميتافيزيائى .

وبعد ذلك أصبح بطل المذهب الكلاسيكى ، وأصبحت أشعاره أقرب إلى الإعتدال والرصانة . ولا شك أن فى قصيدته « Annus Mirabilis » التى تصف حريق لندن ، كثيراً من الوثبات الروحية ، كما أن فى « أنشودة عيد سانت سيسيل » وفى « عيد الإسكندرية » موسيقى قوية . على أن أمهات آثار درايدن فى نظر معاصريه هى ترجماته الشعرية الحرة للشعراء اللاتين ولا سيما ترجمته للإنياذة .

ولاشك أنه فى الهجاء أعظم منه فى غير ذلك . حتى لقد ظلت قصيدته « أبسالون وأكيتوفل » رغم أنها تدور حول السياسة الداخلية فى تلك الفترة فحسب ، أكثر قصائده شهرة وذيوعا بين الناس . وقد نظمها بناء على طلب البلاط فى

مهاجمة كونت شافتسبرى ودوق مونموث . ليست تعنينا الأسرار التى يفضحها ، وإنما نحن نعجب بهذه الصور الناطقة التى يرسمها لأشخاصه . إن درايدن يرسمها شيئا فشيئا ، خطا خطا . يخط أولا دائرة واسعة ثم يأخذ فى مل ء هذه الدائرة بالخطوط الصغيرة التى تبلغ منتهى الدقة والوضوح . فليس من الصعب على مطلع أن يتعرف تشارلز الثانى ومونموث وشافتسبرى وبكنجهام فى شخوص دافيد وأبسالون واكيتوفل وزمرى .

ولكن الشعر لم يكن ليغذى صاحبه ، فكان درايدن يكسب معيشته عن طريق تأليف الدرامات . وكان المسرح والمجتمع قد تطورا بوجود ممثلات يمثلن أدوار النساء . هاهى نل جون (وهى عاهر من بيوت الدعارة) تظهر ذات مساء على المسرح ، فما يكاد يراها تشالز الثانى حتى يطير لبه إعجابا بها ، فيمضى إلى لقائها وراء الكواليس ويتخذها خليلة له . لقد أصبح المسرح مكانا يلتقى فيه الناس ، تأتيه السيدات مقنعات متخفيات . هاهى النظارة تلعب الورق فى الشرفات . . . والشعب من تحتها يتراشق قشور البرتقال . . وكان المؤلفون يحاولون لاجتذاب انتباه مثل هذا الجمهور ، أن يثيروا الشهوات المنحطة

.ويبالغون فى العناية بالديكور ويولون القسم الموسيقى جل عنايتهم :

وكان درايدن يعد ملك المسرح غير منازع . وقد كتب عدة بحوث قوية عن الفن الدرامى . ولكنه لم يكن موفقا فى تأليف الملاهى ، حتى لقد كان دون منافسيه قوة فى هذا الباب . فى مسرحية « المتوحش الأنيق » يرينا كونستانس وهى تضع تحت ثوبها مخدة لتوهم بأنها حامل وتقنع أباها بأنه هو نفسه على وشك أن يلد .

أما إذا تناول المأساة البطولية رأيته أكثر اطمئنانا وحرية . فى مسرحية « كل شىء فى سبيل الحب » يتناول مرة أخرى موضوع أنطونيو وكليوپاترة . ومن مسرحياته « فتح الاسبان غرناطة » . ومنها « آمبوينا » ، وهى مسرحية وطنية ترينا الانجليز يعذبهم الهولانديون فى الهند .

ولكننا لم نعد نقرأ الآن من هذه المؤلفات إلا المقدمات التى كان يكتبها درايدن فى الدفاع عن منهجه وصناعته .

٣ — المسرح فى عهد الاصلاح

فى حين أن كثيراً من منافسيه ما زالوا يجدون من يقرؤهم بل ويمثلهم ، على الرغم من أنهم أضعف موهبة منه .

من هؤلاء لى (١٦٥٣ — ٩٢) وهو طالب قديم فى كمبردج ، كان بوهيميا يعيش حياة فوضوية منحطة ، وكان مدمناً على الخمر إدماناً لا برء منه ، وقد جن أخيراً وأودع مستشفى المجانين . كتب عدداً كبيراً من الدرامات فى شعر مرسل تتدفق فيه الشهوانية تدفق سيل عرم . كان يكتب وهو فى سورة من الحمى ، ولا يزال هذيانه يؤثر فى النفس لأنك تسمع فيه رنة الصدق . ولكن أبطاله فى معظم الأحيان أشبه بدمى مصروعة . ولعل أحسن مآسيه « الملكات المتنافسات » وهى درامة مؤلمة (من الصعب أن نجد شيئاً أعنف من تهديدات روكسانا الساتيرا) وهى فى الوقت نفسه غنية بمشاهدها (نرى فى الفضاء معركة تدور بين جمع من البوم وجمع من الغربان ، ونرى معركة عجيبة بين نسر وصقر) .

ومنهم أتواى (١٦٥٢ — ٨٥) وقد عاش هو الآخر حياة شقية كممثل وجندى ومتطفل . ولكنه استطاع قبل أن يموت

جوعا ، أن يستمتع بفرحة الظفر بمسرحيتيه « اليتيمة » و « إنقاذ البندقية » . وقد وضع قلمه فى خدمة حزب المحافظين أعنى حزب التاج ، فصور الزعيم الشعبى المجدد شافتسبرى عضواً عجوزاً بمجلس الشيوخ يقلد الكلب ليضحك لعشيقته . ثم إن لهاتين المسرحيتين ، ولا سيما الثانية قيمة حقيقية . فما أروع هذا التناقض بين المتآمر پيير الذى يتصف بقوة العزيمة وصلابة العود وبين صديقه جافير الذى يشى بالمؤامرة حبا لامرأته ويستطيع مع هذه الحقارة أن يقوم بأعمال التضحية فيقتل نفسه بعد أن يخدم پيير بقتله إنقاذاً له من المقصلة .

أما الملهاة فى عهد الإصلاح فلا تزال تقرأ إلى الآن . ولكنها أدنى إلى المسخرة المنحطة منها إلى الملهاة الرفيعة ، فهى تستفيد من كل أنواع القذارات ، وتلعب فيها أصناف الرذيلة دورا أساسيا ، ولعل كثيراً منها لا يمكن أن يمثل كاملا إلا فى بيوت الدعارة . . .

ومن مؤلفى الملهاة سير جورج إثيرج (١٦٣٤ ؟ — ؟ ٩٠) كان قنصل انجلترا فى راتشبونه (رجنسبورج) . وفق إلى خلق ثلاث شخصيات نالت رضى الجمهور وإعجابه ، هى

شخصيات : الشاب المتكلف (سير فردريك فرولك فى مسرحية « الإنتقام المزلى ») والمتغندرة الشريفة (لادى كوكود فى مسرحية « تريد لو كانت تستطيع ») والظريف المتفرنس (سير فوبلج فى مسرحية « رجل على المودة »)

ومنهم شادول (١٦٤٢ — ٩٢) : مؤلف مغرور متعجل ، ولكنه استطاع فى مسرحياته المفككة أن يصور مختلف نماذج المجتمع الانجليزى من الطبقات الراقية والطبقات المنحطة .

ومنهم ويتشرلى (١٦٤٠ – ١٧١٦) : يفوق منافسيه بموهبته التأليفية وواقعيته الفظة . إن هذا الرجل الراقى الذى كان يتردد باستمرار على صالون دوقة مونتوزييه والذى اندمج فى حياة الطبقات العليا حين عاد إلى لندن ، لم يصور لنا إلا غلاظاً أو معتوهين، وشخصياته ، رجالا ونساء ، لا تعيش إلا من أجل اللذة الجسدية فى أحط صورها . إلا أنك تحس عنده رغبة قوية فى تلمس الحقيقة تضاف بصورة لاشعورية إلى هدف أخلاقى . وأقوى مسرحياته « The plain Dealer » تصور رجال القانون ومن ينخدعون بهم . وأفكه هذه المسرحيات « السيد أستاذ الرقص » ، وهى تصور رجلا أسبانيا يدعى دون ديجو مولعا بالمودات الإسبانية ، وسيداً من باريس يبلغ به خب عادات

ماوراء المانش أنه يقبل خادمات المطاعم ، ويصاب بالأمراض التي يسمونها فرنسية . لا يكلّ ويتشرلي من الهزء بأولئك الذين يتظاهرون بترك العادات البريطانية القديمة .

وقد رهفت الملهاة بعد ويتشرلي . ومن المؤلفين بعد ذلك :

كونجريف (١٦٧٠ — ١٧٢٩) رجل من الطبقة الراقية ، كف عن الإنتاج بمجرد ما تجهم له الجمهور . وقد شاء سوء الحظ أن يصيب هذا التجهم أحسن مؤلفاته ، أعني « طريق العالم » ، وهي مسرحية جميلة تذكرنا بطلتها ملامانت ببطلات شكسبير . هي فتاة ذكية ، مرهفة ، فكهة ، ماكرة ، رقيقة القلب على ندرة ذلك في هذا العصر .. إن لها من قوة الإشعاع ما يجعلنا ننسى من أجلها ملاهي كونجريف الأخرى .. وأحسن هذه الملاهي الأخرى « الحب للحب » ، وهي من ناحية الصناعة والاتقان تفوق « طريق العالم » كثيرا . ويمكن أن نُذكر من منافسي كونجريف :

— فانبروج (١٦٦٤ — ١٧٢٦) : تميل مسرحياته إلى المسخرة على طريقة رابليه .

— ثم فاركار الإيرلندي (١٦٧٧ — ١٧٠٧) : أرهف من سابقه وأقرب إلى القلب ولكن نقصته المسائل

الجنسية . وكلا الرجلين قد أزعجه تطور الذوق العام ، فقد أخذالناس يحبون العاطفةويميلون إلىالحشمة والخفر والحياء .

فقدكتب القس جريمى كوليير فى عام ١٦٩٨ مقالة هجومية بعنوان « نظرة سريعة إلى فساد المسرح الانجليزى » ، أعلن فيها أن المسرح أشبه بمدرسة نعلم فساد الأخلاق .

لقد أزال البيوريتانيون المسائل الجنسية . وهانحن رأينا رجال (عهد الإصلاح) لا يعيشون إلا من أجلها . ولا بد أن يبدأ الآن عهد جديد ، عهد التوازن بينالعاطفة والعقل ، بين الجسد والروح .

الفصل التاسع

عصر الملكة آن

١ — الشعر الكلاسيكى : پوپ

هذا هو الازدهار الأدبى الثانى تعيش على رأسه ملكة أيضا . ويمتد عصر الملكة آن فيشمل العهود التى تلى عهدها .



پوپ ١٦٨٨ — ١٧٤٤

الشعر فى هذا العصر ممتع ولكنه سطحى . إنه أولا يكاد

يجهل الاندفاعات العاطفية ، وهو ثانيا عبد السياسة ، وهو ثالثا قد أسرف فى استعمال المفردات الريفية .

هناك شاعر واحد فى هذا العصر وطائفة كبيرة من النظامين . أما النظامون فيمكن أن نذكر منهم پرايور (١٦٦٤ — ١٧٢١) وأن نمنحه مرتبة الشرف الأولى ، وقد نظم قصائد جيدة فى المناسبات كما نظم بعض القصائد الغزلية الفكهة — ويمكن أن نذكر أيضا جاى (١٦٨٥ — ١٧٣٢) ونمنحه مرتبة الشرف الثانية ، ومن قصائده : « أسبوع الراعى » وهى تمتاز بأسلوب أنيق متخيَّر ، وكذلك قصيدته «فن السير فى شوارع لندن » وهى من النوع البطولى الهزلى ويتغنى فيها بأخطار الشارع اللنــــدنى .

أما الشاعر العظيم فى هذا العصر ، فهو رئيس مدرسة ، بل قل رئيس قبيلة ، ألا وهو الكسندر پوپ (١٦٨٨-١٧٤٤) . كان هزيلا ، ومشوها ، وكاثوليكيا . وتلك كلها أسباب جعلت الناس ينبذونه ، وجعلته يصبح إنسانا شريرا . ولكنه كان ذكيا نشيطا . تفتحت مواهبه مبكرا جدا . قضى سنى مراهقته العاملة النشيطة قريبا من غابة وندسور . ولم يتجاوز الخامسة والعشرين حتى نشر القصائد التى ضمنت له المجد وجعلته فى طليعة الشعراء . لقد استهدف فى أول الأمر أن يكون ڤرجيل انجلترا ،

فنظم «الريفيات» ، ولـكن طبيعته المنطقية تغلبت عليه بعد ذلك ، فـكتب «مقالة فى النقد» . وقد اجتمعت هاتان الصفتان فى «غابة وندسور» حيث تتخضب الناحية الريفية بأهداف تعليمية . ولـكن أول روائعه قصيدة بطولية هزلية بعنوان : «سلب خصلة الشعر» .

وأخذ پوپ ابتداء من عام ١٧١٥ بترجمة هوميروس شعرا انجليزيا ، وقد درت عليه هذه الترجمات حوالى تسعة آلاف جنيه ، فلما أصبح غنيا ، وضمن استقلاله ، استقر فى توپكهام ، واتخذ له صالونا فى مغارة اصطناعية . وقضى القسم الأكبر من وقته يحارب أعداء قدماء ويوجد أعداء جددا . وأكبر آثاره التى كتبها فى كهولته ملحمة هزلية بعنوان «Sottisiade» يسخر فيها من الشعراء الذين لاينتسبون إلى قبيله . ورغم أننا لا نعرف شيئا عن هؤلاء المساكين فما زالت بعض مقاطع هذه الملحمة تبعثنا حين نقرؤها على كثير من الضحك .

أما باقى آثار پوپ فلا تعنى غير المؤرخ . وقد عاد إلى مهاجمة صغار الشعراء فى قصيدته «رسالة إلى الدكتور آربثنت» كما نظم نظريات صديقه بولنجبروك الفلسفية ، وذلك فى قصيدته «مقالة فى الإنسان» . ومات فى عام ١٧٤٤ راضيا

مطمئنا إلى ما نال به غيره من عض موجع . . .

أما فى المسرح فليس هناك إلا أثر عين واحد من تأليف. جاى بعنوان « أوپرا المتسول » وقد خلدت هذه الأوپرا بالموسيقى الممتعة التى وضعها لها پپوش الذى أراد أن يسخر من هندل ومن الأوپرا الإيطالية ، فعمد إلى ألحان شعبية قديمة ، وخصص أرق الألحان لأفظ الأغنيات . و نرى هذه المعارضة الساخرة نفسها فى كلام المسرحية من أولها إلى آخرها .

وقد وفق جاى إلى الهزء بالدرامة العاطفية التى كانت تعيث فسادا فى ذلك الوقت، واستطاع أن يقضى على الدرامة البورجوازية وهى فى مهدها .

٢ — النثر الكلاسيكى : سپكتاتور

كلما سادت الكلاسيكية فى انجلترا كان النثر هو زينة الأدب . كانت السياسة فى انجلترا ، أيام حكم الملكة آن ناشطة ، وكانت المساجلات الدينية عنيفة ، وكانت الآراء تتصادم فى طائفة من النشرات والصحف .

ويمكن أن نذكر بين الذين كانوا يدافعون عن الديانة الأرثوذ كسية جوزيف بطلر (١٦٩٢ — ١٧٥٢)، ومن خصومه

يمكن أن نذكر بولنجبروك (١٦٧٨ – ١٧٥١) ، وخصوصا ماندفيل (١٦٧٠ — ١٧٣٣) مؤلف « أسطورة النحل » التى تبرهن لنا ، من وراء المظاهر البريئة ، على ضرورة الفساد والرذيلة لكل مجتمع أحكم تنظيمه .

وبين المؤلفين السياسين الهجائيين (باستثناء دى فو وسويفت) يجب أن نذكر بالدرجة الأولى آربثنوت (١٦٦٧ - ١٧٣٥) وهو يروى لنا فى كتابه « تاريخ جون بول» بصورة فكهة خصومات نيقولا فروج (لويس الرابع عشر) . وأعتقد أنه مامن أحد كتب التاريخ كتابة متحيزة وفكهة إلى هذا الحد .

وتعد الجريدة الأخلاقية (أو جريدة المقالات غير السياسية) التجديد الأساسى فى هذا العصر . وأول جريدة قمينة بهذا الوصف هى « الثرثار » لصاحبها الإيرلاندى ستيل (١٦٧٢ — ١٧٢٩) . كان العدد من أعدادها عبارة عن مقالة سريعة تتحدث عن الأخطاء الاجتماعية الصغيرة ، وتعرض لآخر مسرحية ناجحة ، وتتناول موضوعات من النقد الأدبى . ولكن ستيل ، هذا البوهيمى الذى كان ضابطاً ومؤلفاً دراميا وناقداً ، كانت تعوزه الأناة والوقت

والثقافة العامة. إلا أنه فى المراحل الأخيرة من مراحل «الثرثار» قد تعاون مع صديق له مرهف مثقف أديب هو جوزيف إدسون (١٦٧٢ — ١٧١٩) ، فأصدرا معا جريدة جديدة سمياها سپكتاتور (أى المتفرج). ومازالت هذه الجريدة تعد خير نموذج فى بابها .

وكان الصديقان يكمل كل منهما الآخر ، فقد كان كل منهما نقيض الثانى . أما ستيل فقد وصفته لك ، وأما إدسون فقد كان رجلا هادئا متأنيا . وهو ابن أحد القسس ، وكان طالباً فى اكسفورد . ساح كثيرا فى أوربا ، وكان عضواً فى البرلمان . وقد نظم شعراً باللاتينية ، ونظم قصائد طويلة فى المناسبات ، وألف مأساة على الطريقة الفرنسية بعنوان «كاتون» . وقد أصدر عدة صحف ، ولكنه لم يكتب شيئاً يضارع مقالاته فى سپكتاتور . وقد استطاع بمعاونة ستيل أن يجعل مايطبع من هذه الدورية الأدبية التعليمية ثلاثين ألف نسخة . فما كنت ترى امرأة فى انجلترا ، وعلى رأسهن الملكة، إلا وتطلب سپكتاتور فى نفس الوقت الذى تطلب فيه فطورها عند الصباح ، هذا بالرغم من أن معظم مقالاته كانت موجهة ضد الجنس اللطيف وغدره وجهله ، إلا أن سخريته

كانت من اللطافة والخفة بحيث لم تكن تؤذى السيدات بل كن على العكس يجدن فى قراءتها لذة كبيرة .

وأجمل ما ابتدعته جريدة سپكتاتور طائفة الأشخاص الشواذ التى تشتمل على ممثل لكل طبقة من طبقات المجتمع : رجل قانونى يحب الأدب والمسرح ، تاجر غنى يكره الحرب ، جندى متقاعد متواضع بقدر ماهو شهم ، قس يفيض معرفة وفضيلة ، السپكتاتور نفسه (المتفرج) ، هذا الشخص العاقل الذى يطوف فى الحياة ملاحظا صامتا — وأخيراً سير روجر كڤرلى وهو سيد من الريف لبق أنيق يحب أرملة فتية جميلة .

على أن شخصية سير روجر كڤرلى هى بين يدى ستيل ألطف منها بين يدى إدسون . لقد جعل منها ستيل أو أراد أن يجعل منها شخصية رجل بوهيمى ملتهب العاطفة يعيش حياة عنيفة ، يكثر من شرب الخمر ، ويحب الحب . أما إدسون فقد تمثلها شخصية رجل شاذ ، غريب الأطوار ، امتلأ رأسه بالأفكار العجيبة المضحكة ، يعيش حياة خاصة من طراز قديم ، ولا يفقه شيئاً فى المسائل السياسية ، وهو أشبه بدمية مضحكة . وفى مقابل ذلك نرى إديسون يفوق صاحبه ستيل فى النقد الأدبى .

كانت جريدة سبكتاتور تظهر كل يوم ، ماعدا الأحد، وظلت تصدر مايقرب من عامين (من مارس ١٧١١ إلى ديسمبر ١٧١٢) . ويجب أن نعنى خاصة بثلاثمائة العدد الأولى التى أوجدت هذا النوع الزاهر من الكتابة : أعنى « المقالة » .

٢ — العملاقان ديفو وسويفت

سادا عصرهما ، وظلا بعد موتهما بقرنين يعيشان حياة تبعث على العجب .

دانييل ديفو (١٦٦٠ — ١٧٣١) : هو ابن قصاب . وقد شهد أثناء طفولته المجتهدة وباء الطاعون الكبير والحريق الكبير ، وظلت ذكرى هذين الحادثين ماثلة فى ذهنه لاتبرحه . واشتغل بعد ذلك تاجراً ، وأفلست تجارته (١٦٩٢) ، لكنه نهض ثانية وأصبح الصديق الحميم للملك وليم الثالث الذى اعتلى عرش انجلترا عقب ثورة ١٦٨٨ . وفى الدفاع عن اتهام هذا الأخير بأنه ملك أجنبى إنما كتب قصيدته السياسية الهجائية المشهورة « الانجليزى النقى الدم » .

وحين ارتقت الملكة آن العرش هبط من سمائه وأخذ يحارب الكنيسة الانجليكانية فى صف الخوارج فأصدر بياناً يسخر فيه سخراً مراً من أبطال الكنيسة القومية وكان من نتيجة ذلك أن قبض عليه وسجن فى نيوجيت وحكم عليه بأن يعرض على الجمهور ويهان ثلاث مرات .

واستطاع أحد السياسيين المهرة وهو روبرت هارلى أن يخرجه من السجن . فأصبح ديفو التابع المخلص الوفى لهارلى الذى أصبح وزيراً . حتى لقد أصدر لتأييده جريدة اسمها « المجلة » كما قام بجولات جاسوسية كبيرة فى الأرياف ليطلعه على اتجاهات الشعب ، وراقب فى عام ١٧٠٦ المفاوضات التى جرت للاتفاق على الاتحاد بين إيقوسيا وانجلترا . وقد ظل ديفو فى ركاب هارلى عندما انقلب هذا الأخير على حزب الشعب ، وانخرط فى حزب المحافظين .

وحين ارتقى جورج الأول العرش وفاز حزب الشعب هبط ديفو مرة أخرى . ولكنه كان فى هذه المرة ماهراً فأنقذ نفسه . كان الناس يعتقدون أنه قد انضم إلى المحافظين ، فاشتغل ، انقاذا لنفسه ، جاسوساً على جرائد المحافظين عند الوزير الشعبي . ثم أقام فى ستوك نيونجتن من ضواحى لندن .

وهنـاك كان له من فراغ وقته ما أتاح له أن يكتب تلك الروايات التى ضمنت له المجد . ومات ديفو ميتة غامضة يطارده دائن ملحاح .

ويمكن أن نعـد رواية « روبنسون كروزو » الرواية الانجليزية الأولى الجديرة بهـذا الإسم : وقد أسسها على المغامرات الواقعية التى قام بها الايقوسى سلـكيرك ، وأيقظ بها فى نفوس الناس محبة الوحدة والعزلة . ويمكن أن نعد شخصية روبنسون ، هذا التاجر العملى المنظم البورجوازى الساذج التقى ، صورة تـكاد تـكون صادقة غير مبالغ فيها للرجل الإنجليزى العادى . وقد روى ديفو مغامرات روبنسون — وهى غير ممكنة الوقوع قطعاً — بتفصيل دقيق يكاد يوهم بأنها واقعية .

إلا أن رواية « روبنسون كروزو » قد هرمت الآن وعفى عليها الدهر . وأصبح الأدباء يفضلون عليها روايات ديفو الأخرى . لقد خلق ديفو الرواية التاريخيـــة بإدخاله شخصية خيالية فى أحداث واقعية « مذكرات سنة الطاعون » ومع ذلك فلا شك أن خير رواياته هى تلك التى تصف حياة المغامرة والبؤس ، كالقسم الأول من رواية « كولونيل جاك »

التى تروى قصة الحياة البائسة التى عاشها أحد قطاع الطرق ، ورواية «مل فلاندرز» وهى ترجمة ذاتية أو قل اعتراف كامل لفتاة غُرر بها فأحالها البؤس والظلم إلى مغامرة خطرة ، وزوجة خائنة ، وأمرأة عاهرة ، ولصة . ولو لم يكن لصاحبها غير هذه الرواية لكفاه بها فخرا .

سويفت (١٦٦٧ — ١٧٤٥) : كان كل ما كانه ديفو ، مع زيادة أخرى هى أنه موظفا كاير كى محروم من الذخيرة الثقافية الراقية . ولد وترعرع فى ايرلاندة . وأصبح فى رجولته سكرتيرا لسير وليم تمپل السفير السابق والسياسى الكبير . وقد أتاحت له أوقات فراغه أن يكتب كتابيه الأولين الرائعين « معركة الكتب » التى تتحيز للقدماء على المحدثين و « قصة البرميل » وهى قصة رمزية تصور پيتر (الكنيسة الكاثوليكية) وجاك (الكنيسة البرسبيترية) ومارتن (كنيسة انجلترا البروتستانتية) . ومارتن هذا هو الإنسان العاقل المتزن وهو الوحيد الذى يتبع روح ونص العهد الذى خلفه أبو الأخوة الثلاثة (التوراة) .

وقد حصل سويفت على وظيفة كنسية فى ايرلاندة حيث تقيم أيضا ستيلا ، ابنة تمپل غير الشرعية . وقد ظلت ستيلا هذه نجيته المعذبة طوال حياته . على أنه قضى القسم

الأكبر من وقته فى لنـــدن واتخذ له فيها عدداً من صفوة الأصدقاء فى الأوساط الأدبية كما ألب عليه عدداً من الأعداء فى الطبقات الراقية . وقد منعه هؤلاء الأعداء من أن يصبح أسقفا ، فكان عليه أن يقنع برئاسة سان باتريك فى دبلن . وقد وقعت له حوادث غرامية تعيسة انتهت بزواجه سرا من ستيلا ، وأثرت على أعصابه ، فطاش رأسه ، واندفع فى حرب هجائية يكتب « رسائله » المشهورة دفاعا عن الإيرلانديين (الذين يحتقرهم) ضدّ مضطهديهم الانجليز . ثم ازداد شذوذه فكان يصفع أصدقائه بحجة التمرين . ومسته فكرة الوسخ والقذارة ، وأصيب بقرحة فى عينه ، فزاد توحشه حتى أصبح أشبه بحيوان مفترس فى قفص ، ثم جن ومات تاركا مالا لبناء ملجأ للمجانين !

لايكاد يبقى من آثاره الكثيرة إلا مقالاته الهجائية ذات النكتة الوحشية (يبين فى « الاقتراح المتواضع » أن الحل الوحيد للمسألة الايرلاندية هو أن نكره الايرلانديين على أن يأكلوا أولادهم) ثم « مذكرات يومية إلى ستيلا » (وهى مكتوبة بقلم إنسان نصف مجنون ولكنها غنية بالحقائق الانسانية) . أما كتابه الخالد فهو « رحلات جليفر »

(١٧٢٦) . وقد هوى هذا الكتاب إلى مستوى أدب الأطفال فى حين أنه من أختم الكتب التى عرفتها الانسانية . يبدأ الكتاب لينا فكها وما يزال يتدرج حتى يصل بنا إلى أسفل دركات التشاؤم. ما الذى يبرهن عليه هذا الكتاب ؟ انه يبرهن على أن الإنسان كائن أحمق ، مغرور ، مشعوذ ، مجنون ، محتال ، مجرم . وأنه أخبث حيوانات الخليقة طرا .

ولاشك أن فى هذا شيئاً من حقيقة ، ولكنه ليس كل الحقيقة . لقد كان يعوز سويفت ، هذا الطموح المشوش ، شىء من رباطة الجأش وشىء من الاستبشار .

الفصل العاشر

القرن الثامن عشر

إن حياة صموئيل رتشاردسن (١٦٨٩ - ١٧٦١) سر غامض كحياة شيكسبير .

كان يعمل طابعا، ولم يتلق إلا تعليما أوليا ، ثم إذا بشيطان الوحي يواتيه فجأة في الخمسين من عمره . كان يكثر من قراءة الدوريات الأخلاقية كالسيكتاتور ، وكان يبغض الأدب الخيالي على الطريقة الفرنسية بغضاً شديداً ، وكان يحب أن يهبط بالرواية إلى الارض . وقد هبط بها إلى الارض فعلا ، بل لقد شدها إلى الارض شداً عنيفاً لا هوادة فيه . ألف رواية طويلة هي عبارة عن مجموعة من الرسائل سماها « باميلا » (١٧٤٠) : هي قصة خادمة صبية جميلة يحاول سيدها أن يغريها بشتى الوسائل ولا يفلح ، ثم يتزوجها أخيرا ولا يندم على هذا الزواج .

وقد لقيت هذه الرواية نجاحا كبيرا شجع رتشاردسن

على أن يؤلف رواية أخرى فى سبعة مجلدات ، تعد من عيون الآثار الادبية العالمية وهى : «كلاريسا هارلو» :

كلاريسا فتاة من الريف ، نبيلة جميلة ، ناعمة ، مثقفة ، سعدت على الارض سعادة الملائكة إلى أن ظهر لفليس . . لفليس شيطان فى صورة إنسان ، عدو العفاف ، متكبر متعجرف . عبقرى من عباقرة المغامرة والفجور . ويريد أهل كلاريسا أن يزوجوها لشخص كريه ، فلا يسعها إلا أن تلقى بنفسها فى حماية لفليس الذى يستطيع بالحيلة أن يهرب بها إلى لندن ... ليقيم معها فى شقة هيأها لها فى بيت من بيوت الدعارة .. ولكنه هناك يتردد . إن أشعة البراءة والطهر لهى من القوة بحيث يخجل لفليس من نفسه ...وتفهم كلاريسا أنها مخدوعة . . فتهرب إلى هامپستد . . فيغضب لفليس غضباً شديدا . ان كبرياء الاغراء قد جرحت فيه . . وهاهو يتتبع خطى كلاريسا حتى يجدها ، ويستطيع بحيل أخرى أن يقتاد فريسته الجميلة مرة ثانية إلى لندن ، حيث يسقيها شراباً مخدرا ليظفر بجسد ساكن لاحراك فيه .

ولكن هل نال لفليس مايتمنى ؟ كلا ، فقد أحس أنه يحب كلاريسا ، وكلاريسا الآن تحتقره وتشمئز منه وترفض

أن تتزوجه . لقد أصبحت لاتفكر إلا فى الموت ... لقد تألمت كثيرا على هذه الأرض ، ولم تصل رسائل الصفح من أهلها إلا غداة تركت الارض إلى السماء .

ويسافر لفليس إلى القارة ينشد عزاء وسلوى ، ويتعزى شيئا فشيئا ، ولكن ابن عم كلاريسا يدعوه ذات يوم إلى المبارزة ، ويسدد إلى صدره طعنه قاتلة . ويقول لفليس وهو يحتضر « ليكن هذا تكفيرا عما أثمت يداى »

سيول من الدمع سكبتها انجلترا ، وأوربا من بعدها ، بتأثير هذه الرواية . وأصبح الناس يعبدون رتشاردسون عبادتهم لإله . ثم يحمله محيطه النسوى على أن يصور الآن نموذجا لفضائل الرجـــل ، فيكتب « قصة سير تشارلز جرانديسون » . غير أن رجله الفاضل هذا شخصية باردة رتيبة يضيق بها المرء ذرعا . وليس فى الكتاب كله مايشوق القارىء إلا جنون كلايمانتين ، الحسناء الايطالية ، التى تحارب عبثاً حبها لسير تشارلز .

وقد أصبحت قراءة روايات رتشاردسون الآن ثقيلة . فإن طريقة الرسائل بطيئة متكلفة ، والاسلوب مختلط ، والتكرار كثير لايحصى ، ولكنى ما أظن أن بين الكتاب

قديمهم وحديثهم ، من يضاهى رتشاردسون فى عمق التحليل النفسى .

أكثر ما كان يسوء رتشاردسون فى حياته وجود ذلك المنافس الخطير له : هنرى فيلدنج (١٧٠٧ — ٥٤) . كان فيلدنج من عائلة أرستقراطية أخنى عليها الدهر ، فاشتغل كاتباً بالأجرة ، وألف نحواً من عشرين كتاباً تدين بنجاحها إلى موضوعاتها الخطرة .

ونجاح رتشاردسون هو الذى دلّه على طريقه ، فلقد ضاق برواية پاميلا ، وأزعجه مذهب الطهر المفيد ، فألف رواية بعنوان «جوزيف أندروز» : هى قصة خادم شاب تحاول سيدته أن تغريه ، فيولى هاربا ، ويمضى يطوف بانجلترا بصحبة قس شهم يدعى آدمز ، ويتزوج أخيراً بفتاة ريفيـــة تحبه حب شبق .

وقد عارض فيلدنج رواية « كلاريسا » برواية « توم جونز » وهى تعالج نفس الموضوع ولكن بدون عنصر مرضى هى : قصة فتاة عنيفة متمردة اسمها صوفيا تهرب من بيت أبيها خلاصا من زواج كريه ، وتمضى للحاق بحبيبها الشاب توم ، وتلقى فى سبيل ذلك كثيراً من العناء ، إلى أن تعثر عليه .

والشاب لفيط فقير يعيش حياة اندناعية ، يطلق العنان لغرائزه ، ويمتاز بأنه على جانب من الجمال ، وينتهى الأمر بأن تتزوجه صوفيا .

لقد كان تأثير رتشاردسون فى عصره من القوة بحيث لم يستطع فيلدنج أن يتحرر منه . وقد كتب تحت هذا التأثير رواية « أميليا » وهى رواية عائلية بورجوازية عاطفية تحتوى على مشاهد قوية تجرى فى السجن لكنها تخلف فى النفس شعوراً بالضيق والحرج .

مهما يكن من أمر فإن أحسن آثار فيلدنج رواية « توم جونز » وهى روايه قوية التأليف جيدة الأسلوب . هذا إلى فكاهة جديرة بموليير ، وكان فيلدنج يقضى « آلاف الساعات » فى صقل أسلوبه وتحسينه ، ولكن يجب نعترف بأن ليس بين شخصياته شخصية واحدة آسرة حقا . . أضف إلى ذلك أن فيلدنج يسرف كثيراً فى إحكام التأليف ، فكأننا بإزاء مجموعة من العجلات كل منها ضرورية للأخرى ليتم سير الآلة . وفى رأيى أن أمتع ما فيها استطراد لا يمت بصلة إلى مجرى العقدة ، وهو الذى يحدثنا فيه عن رجل الرابية ، ذلك العجوز المبغض للبشر ، الذى يقع عنده توم جونز وهو يضرب فى الأرض .

وممن دفعهم نجاح رتشاردسون إلى دخول الحياة الادبية دفعا ، الكاتب الايقوسى سمولت (١٧٢١ — ٧١): كان طبيبا فى البحـــرية ، ولم يكن على جانب عظيم من الثقـافة ، ولـكنه كان ينعم بخيـال خصب ، وقدرة على الملاحظة العميقة النافذة . كان قد لقى فى حياته عددا كبيراً من الحمق والمجانين والسخفاء واللصوص ، وتلك هى الشخصيات التى صورها فى روايته الاولى « رودرك راندم » التى يمكن أن تعد فى جلها ترجمة شخصية لصاحبها . وكان يقتفى أثر الرواية البيكارية (حتى لقـــد ترجم جيل بلاس) وجميع أبطاله تقريباً تميل نحو الكاريكاتور ، وقد سماها بأسماء خاصة : لاقمانت ، يوشيون ، كراب . وتـكثر فى روايته المشاهد الفظة والمسخرات الغليظة ، وقد رسم بعض نماذج البحارة الانجليز ، مثل أوكم الخشن المشئوم ، فى دقة بالغة تجعلهم يحيون أمامك .

إن رواية « رودريك راندم » هى أحسن كتب هذا الكاريكاتورى العبقرى ، ذلك أنه عاشها تجربة حية . أما روايته الثانية « بيرجرين بيكل » فإن الخيال يحتل فيها مكانا أكبر وليس فيها ما فى الاولى من قرب من الواقع ، وقد حاول

سمولت أن يكتب رواية بالرسائل نسجا على منـــوال رتشاردسون وطمعا فيما ناله من مجد وشهرة ، فأخفق المسكين إخفاقا يستحق الرثاء .

ولنتحدث بعد «همفرى كلينكر» عن ستيرن (١٧١٣ — ٦٨) إكليركى شاذ غريب تقضه مسألة الجنس وجسد المرأة . كان يبكى إذا مات حمار ، ثم لا يبالى أن يدع أمه تعانى آلام الفاقة والعوز . وقد ألف خطبا ومواعظ جميلة كثيرة ، وكتب تقليدا لمعاصريه رواية بعنوان «حياة وآراء تريستام شانديه» . إنها رواية لا أول لها ولا آخر ، ولا يظهر بطلها إلا فى الفصل الخامس ، بل قل إننا لا نراه إلا بعد عشر فصول ، لأن الحديث فى أثناء ذلك يدور حول العم توبى . هى مناقشات لا تنتهى حول تعميد الطفل الذى يموت فى رحم أمه قبل أن يولد ... أوهى دراسة طويلة لقوانين الحرمان الكنسى . . أوهى أيضا كتاب فى فن الولادة . ويكثر ستيرن من الشعوذة ، فهذه فصول بيض ، وهذا فصل مؤلف من كلمات مكررة المقاطع وأصوات مشوشة ، وهذا فصل لا يحتوى إلا على كلمة «أسفا» مكررة بأحرف ما تزال تكبر ، وهذه مواعظ واستشهادات فرنسية ولاتينيه وأغنيات وهو من حين إلى حين يشجع

قارئه ساخراً على الاستمرار فى القراءة ، وفى نهاية الباب السادس يصرح بأنه سيدخل فى موضوعه .

وهذه الرغبة فى التقليد هى التى دفعته أيضاً إلى تأليف كتابه الثانى « الرحلة العاطفية إلى فرنسا » . ينسى ستيرن أن يصف لنا كاتدرائيات فرنسا . ثم هو يحدثنا طويلا عن زرزور فى قفص . . . وليس يعنيه أن يشهد ارتقاء الملك للعرش ، ثم هو يعنى كل العناية بوصف إحدى خادمات الفنادق ، بوصف كيس من الساتان أو قرط من الفضة . أما لماذا نجح ستيرن هذا النجاح كله ولماذا يولى الآن كل هذه الأهمية ! فذلك يرجع إلى شعوره المرهف الحساس . إن قدرته على تحليل أبسط الخلجات الانفعالية ، والتقاط أسرع الخطرات الفكرية وفضح أخفى الرغبات التى تنبثق من أعماق الشعور ، ثم رقة العاطفية الممتزجة بالسحر ، مع فكاهته الحلوة ، وموسيقى عباراته كل ذلك يثير فينا الإعجاب ويعطفنا إليه عطفاً شديداً .

٢ — كتاب المقالة والمؤرخون والمفكرون

من الأحكام المدرسية الشائعة أن صموئيل چونسون (١٧٠٩ — ٨٤) هو سيد الأدب الانجليزى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر :

رجل ضخم الجثة ، مصاب بداء الخنازير ، أعور ، نصف أطرش ، له كتفان أشبه بكتفى الثور ، ومزاج أشبه بمزاج كلب حاد . كان يجلس فى المقهى يتحدث إلى الفنانين والشعراء الملتفين حول عرشه ، فيبهرهم بوحشية أحكامه ، وغزارة اطلاعه الهائل . . إلا أن كتابة جونسون ، إذا كتب ، أشبه بالجعجعة . وقد ألف مآسى ضعيفة وقصة شرقية بعنوان « راسلاس » ، وأصدر عدة صحف من طراز سبكتاتور . وكان عصره يضيق بهذه المؤلفات ، ولكنه كان من فرط خوفه منه لا يجرؤ على الاعتراف بذلك . وقد خدم جونسون الأدب بقاموسه أكثر مما خدمه بمؤلفاته الأدبية . فقد ساهم هذا « القاموس » فى تثبيت معالم اللغة ، ومنعها من الإسراف فى التفرنس . ومع ذلك فإن هذا القاموس ليس ثمرة عمل هادىء متأن . فما أكثر ما فيه من أخطاء .

أما فى النقد . فقد كان جونسون متحيزاً فى أحكامه لا يرى من الأمور إلا جانباً واحداً . وقد نعت شكسبير بالخروج عن الأخلاق . وعاب عليه أنه لم يلتزم الوحدات . على أنه قد اعترف له بالعبقرية ! . ومن مؤلفاته « حياة

الشعراء» وهو كتاب ذو قيمة تاريخية ثمينة، وقدعاقت أحكامه الاطلاقية ازدهار الأدب السابق للرومانطيقية.

ولم يذع كتاب من كتب جونسون ذيوع ذلك الكتاب الذى ألفه عنه صديقه بوزويل عام ١٧٩١ . فجمع أحكامه الغريبة ونكاته وآراءه ، وروى حياته رواية حيادية . وإنك لتستشف عنــــد بوزويل شخصية قوية ونفاذاً فى التحليل النفسى . وقد جاء نشر مخطوطاته فى المدة الأخيرة مصداقا لذلك .

وممن اختلفوا إلى ندوة جونسون، وأصابوا شهرة ذائعة ، ذلك الإيرلندى جولدسمث (١٧٢٨ — ٧٤) : بوهيمى لطيف ، كان قسا مبتدئا ثم أصبح طبيبا ، فدرسا ، فكاتبا بالأجرة . وقد طاف أوروبا متشردا ينام على البيادر ، ويعزف للناس على الناى تحصيلا لقوته . واستطاع أخيرا لكثرة ما كتب من المؤلفات التبسيطية أن يحقق حلمه الأكبر وهو أن يستطيع التأنق فى ملبسه . ونجمه الآن فى أفول . ولن يبقى من مؤلفاته الكثيرة إلا بعض مقالات كتابه « مواطن العالم» (مثل « رسائل صينية » على طريقة مونتسكيو) ثم قصيدتاه « المسافر » و « القرية المهجورة » وهما قصيدتان تعليميتان

تمتازان بطابع كلاسيكى كامل وتتصفان بنوع غامض من الكآبة ولا يفسدهما إلا شىء من التكلف فى « التخير الشعرى » ، ثم رواية ريفية صغيرة بعنوان « قس ويكفيلد » ، كتبت بأسلوب ناعم عذب ، ويقرؤها المرء بسهولة محببة ، إلا أنها للأسف تنتسب إلى أكذب وأخطر أنواع الرواية ، أعنى الرواية الخيالية الباكية التى إن كانت تحتمل فى قصص الجن فإنها لا تطاق فى أوصاف الحياة الواقعية ، فإن العناية الإلهية فيها تجزى الفضيلة دائما وترد الأشرار إلى الخير وتمنح الآنسات العاطفيات أزواج أحلامهن ، وتمنح القسس المجدين المال الذى يسعدهم .

وقد رأينا بعد ذلك عددا كبيرا من الروائيين يضربون على هذه النغمة السخيفة وينشئون أدبا عاطفيا كاذبا يسود خلال قرن كامل .

والحق أن جولد سمث الحقيقى العظيم هو جولدسمث الدرامى الذى سنتحدث عنه .

والأدب السياسى فى هذا العصر وافرغزير نذكر منه أول ما نذكر (رسائل چونيوس ١٧٦٩) التى يشيع فيها حب قوى للوطن والحرية — وقد أعقبتها خطب بيرك العظيمة

(١٧٢٩ — ٩٧) وصاحبها عدو لدود للثورة الفرنسية . وفى هذه الفترة أصبح التاريخ علما . وليس حظ الفلسفة فى هذه الفترة بأقل من حظ التاريخ حتى لقد استحق هيوم (١٧١١ — ٧٦) أن يسمى ديكارت انجلترا . وفى هذه الأثناء كان آدم سميث (١٧٢٣ — ٩٠) من جهته ينادى بأن العمل منبع الثروة . وأخيراً فإن الأدب اللاهوتى فى هذا العصر ليزهو بمواعظ چون ويزلى (١٧٠٣ — ٩١) التى تقع فى اثنى وثلاثين مجلدا .

وهناك طائفة من الكتاب بقى علينا أن نذكرها الآن ، أعنى طائفة كتاب الرسائل . وفى الصف الأول من هذه الطائفة يأتى تشسترفيلد (١٦٩٤ — ١٧٧٣) الذى يتألف من « رسائله إلى ابنه » كتاب فى الوصولية المحببة القائمة على الإغراء الشخصى — ثم هوراس والپول (١٧١٧ — ٩٧) وهو من هواة الأسلوب الجوتى العالمى ، وكأنى به بوابا مثقفا يروى بروح فنية شئون صالونات باريس ولندن صغيرها وكبيرها — وفى هذه اللحظة نفسها رأينا عددا كبيرا من السيدات يكتبن على غرار سيڤنييه مثل مسز مونتاجيو (١٧٢٠

— ١٨٠٠) ولادى مونتاجيو (١٦٨٩ — ١٧٦٢) التى كتبت إلى ابنتها من إيطاليا رسائل تفيض بالشر ولكنها تفيض أيضا بالأدب . . .

٣ — المسرح

إن الناس يكثرون من التردد إلى المسرح فى نهاية القرن الثامن عشر . ولكنهم يعنون بالممثلين أكثر مما يعنون بالتمثيلية . إنهم يشغفون بمسز سيدنز أو بجاريك أكثر مما يشغفون بشيلوك أو ديدمونه . على أننا لا يسعنا إلا أن نغتبط بنجاح ممثل مثل جاريك الذى أحيا مسرحيات شيكسبير .

وقلّ أن نجد بين انتاج هذا العصر مسرحيات أصيلة . وكانت المودة الشائعة إذ ذاك هى مودة الملاهى الفكاهية المؤثرة معا ، مثل مسرحية « بنت الطاحونة » من تأليف اسحاق بيكر ستاف (١٧٦٥) ، وكذلك الملاهى الهجائية التى تسخر من العاطفة ، مثل « پولى هانيكومب » من تأليف چورج كولمان (١٧٦٠) .

ونستطيع أن نقول بأنه ليس هناك إلا مؤلفان مسرحيان : جولد سمث وشريدان . أما جولد سمث فقد كتب ملهاة

تعد من عيون الآثار الهزلية التي تثير فيك الضحك الصريح والمرح البريء ، أعني مسرحية « تتمسكن لتتمكن » (١٧٧٣). إنها تدور حول ذلك الموضوع المضحك دائما ، موضوع الفتاة الجريئة التي تحاول أن تنتزع اعترافا بالحب من رجل خجول : وتظفر بذلك بواسطة سوء تفاهم طريف : يلقون في روع الخجول أن البيت الذي تعيش فيه الحسناء هو فندق من الفنادق . ثم نرى الخجول يعامل الناس بتلطف وتظرف ، ويغازل تلك التي يريدونها خطيبة له وهو يظنها خادمة . ونرى الفتاة تقبل أن تقوم بهذا الدور . إنها تتمسكن بإرادتها حتى تتمكن من الحصول على زوج . ومن هذا الموقف الغريب ينشأ عدد من حوادث سوء الفهم والتورط يستثير فينا ضحكا لاسبيل إلى مقاومته .

أما شريدان (١٧٥١ — ١٨١٦) فهو أقل هزلا من صاحبه ولكنه ألطف فكاهة ، ومع ذلك فإنه يعرف كيف يضحك وكيف يضحك . أليس إيرلانديا كصاحبه جولدسمث سواء بسواء ؟ ومما يحمد لشريدان أنه لم يدع نفسه يتسمم بجو الصالونات ولا بجو الحياة السياسية (لقد أصبح عضوا للبرلمان وسكرتيرا للدولة) فنراه يسخر من التكلف والتحذلق والإمعية

سخراً لطيفا (المتنافسون) كما أنه هزىء هزءا مراً بالأدباء (الناقد)، وكان قاسيا وحشيا مع المنافقين والمرائين . وأحسن آثاره «مدرسة الفضيحه» وفيها يصور لنا «ترتوفاً» انجليزيا باسم جوزيف سيوفيس ، يحاول أن يؤدى بأخيه تشارلز ، المبذر ولكن المستقيم ، إلى الدمار ، وأن يسلبه خطيبته لأنها غنية وإنك لتجد فى هذه الملهاة من قوة الحبك وإحكام تسلسل العقدة وجمال المحاورات ما يستثير إعجابك الشديد ويتغلب على روح النقد عندك . حتى لقد ظل هذا الأثر لا يضاهيه أثر آخر خلال قرن كامل .

٤ — الشعر السابق على الرومانطيقية

الحق أن التيار الرومانطيق لم ينقطع عن الترقرق فى أعماق الشعر الانجليزى الجيد . ففى اللحظة التى كان فيها شعر بوپ سائداً ، كان جيمس تومسون الإيقوسى (١٧٠٠–٤٨) ينشر أشعاره « الفصول » حيث يتصفح وجوه الطبيعة ويتغنى بها . ولئن كانت طريقة نظمه للشعر كلاسيكية ، وكذلك المعالم الأسطورية فى آثاره ، فلقد أحس بجمال الأرض التى نشأ فيها : فصور لقراءه الثلج فوق الروابى ، والسيول تقفز بين الصخور ، والرياح تهب من الشمال باردة سهوجا . وقد

نظم بعد ذلك بعدة سنين قصيدة قصيصة طويلة بعنوان « قصر التثاقل » التفت فيها نحو القرون الوسطى .

وليس تومسون الوحيد فى هذا العصر ، فهناك أصحاب مدرسة الحديقة والمناظر الطبيعية الذين ينسجون على منوال پوپ ، وهناك مدرسة الحالمين الذين كانو يحبون الطبيعة لذاتها ولما توحى به إليهم من أفكار .

أما وليم كولنز (١٧٢١ - ٥٩) فهو شاعر جاف بطىء صعب ، وقد استعاد اليوم شيئاً من الشهرة . ولولا أنه قصير النفس ، ولولا أن القدماء سيطروا عليه سيطرة حبست فكرة فى نطاق القصيدة (ode) الضيق ، ولولا أنه أسرف فى استعمال التشبيهات الأسطورية ، لكان شاعرا عظيما . على أنه قد استكشف فى قصيدته عن الخرافات الشائعة فى « ايقوسيا » ينبوعا شعريا جديدا . كما أنه استطاع فى قصيدته « المساء » وهى خير قصائده ، أن يصور لنا بخفة جرس الالفاظ ، جمال الشفق وفتنته وذلك الشعور الغامض الذى يداخل النفس إذا اقترب الليل .

وهناك جراى (١٧١٦ - ١٧٧١) ، وهو يكمله ويفوقه ، وأهم قصائده « مرثاة كتبت فى مقبرة ريفية » . وإليها يرجع

الفضل فيما حصل عليه من شهرة . وهى تبدأ بمقاطع تكاد تكون من شعر لا مارتين . ولكن خاتمة الرواية ليست للاسف إلا نظماً لذلك الموضوع المبتذل ، الشائع فى الشعر التعليمى، أعنى موضوع تساوى البشر أمام الموت . غير أن المجموع رغم كل شىء على جانب من الجمال ينسينا القصائد التى يحيى فيها جراى خرافات المـــاضى ويكشف عن الأساطير الاسكندناوية . والحق أن جراى يمكن أن يعد ممهدا بل رائدا . فقد رسم الخطوط الأولى لكبريات الموضوعات الرومانطيقية: كالمقبرة ، والشعر البدائى والشعبى ، وحياة صغار الناس .

وقد استولى الرومانطيقيون على « الليالى » التى كتبها يونج (١٧٤٢ — ٤٥) والتى أسكبت كثيرا من الدموع حزنا على حظ هذا الشاعر التعس الذى يدفن ابنته بيديه فى ليلة ظلماء لأن سكان مونبليه القساة رفضوا أن يمنحوه مدفنا ما دامت الميتة بروتستانتية . وكان هذا كله أسطورة من صنع الخيال ، إلا أنها أسطورة لا تخلو من عاطفة صادقة ، وقد تأثرت القارة الأوروبية بها تأثرا عظيما .

لما سمع ماكفرسون الإيقوسى الأساطير الجائلية القديمة ، أعجب بروحها الوحشية . وأدرك أنه بإزاء ثروة يمكن،

استغلالها . فأعلن للملأ أنه أ كتشف مخطوطات قديمة ، وأخذ ابتداء من عام ١٧٦٢ ينشر مترجمات مزعومة للشاعر السلتى أوسيان . وقد أثر نثره الموقع الخشن فى أوروبا كلها ، وأثار إعجابها به ، بل حماستها له ، حتى أصبح أوسيان موضوع عبادة وتقديس .

وكان لما كفر سون أنداد . فهذا شخص اسمه ايرلاند يزعم أنه اكتشف مسرحية مفقودة من مسرحيات شكسبير ويدفع بها إلى المسرح . وهذا الفتى تشاترتون يؤلف بعض النصوص ، ويزعم أنها من القرن الخامس عشر . وإلى جانب هؤلاء المزيفين يجب أن نذكر الأسقف برسى الذى نشر فعلا بأمانة ، فى عام ١٧٦٥ ، مخلفات من الشعر الانجليزى القديم التى كشفت للناس عن كنوز من شعر الماضى .

ثم كان طبيعيا أن يكون هذا الميل إلى البساطة وهذه العودة إلى الأصول البعيدة مصحوبين بميل قوى إلى الشعراء الذين كانوا يتحررون من سلطان الصالونات ويفيئون إلى الأرض . ومن هؤلاء الشعراء كراب ، وهو ابن فلاح ، وقد نظم فى هموم الفقراء وأمراضهم وآلامهم ، واستحق أن ينعت بالواقعى (القرية ١٧٨٣) . ولكن آثاره تتصف

ببرودة موضوعية فلا تستثير فينا الشفقة .

وهناك كوبر (١٧٣١ — ١٨٠٠) . وهو شاعر لم يخلق شاعرا وإنما نظم الشعر ليشغل فكره ويتفادى خطر الجنون . قضى الشطر الأعظم من حياته فى بلد بالريف على حنفاف الأنهار المنسابة ببطء ، وفى المراعى تحت أشجار الصفصاف . كان يهرب من الناس إلى أقصى حد . ولعله غالى فى تصور مفاسد المدنية وانحطاطها وتفسخها . ولكنه أول من صور الطبيعة تصوير فنان ، فأرانا الشمس تعبث بالغابة ، وأسمعنا صوت جناح اليمامة وهى تطير . وأكبر قصائده « المهمة » . وهى قصيدة جميلة ليس يفسدها إلا اهتمام بالتعليم وتطرف فى الدين . إلا أن فيها أوصافا خالدة . ولأول مرة منذ زمن بعيد نرى فى قصيدة من الشعر نفسا معذبة صوفية تقضها أحزان غامضة .

وهناك بيرنز (١٧٥٩ — ٩٦) ، وهو أقل عمقا من صاحبنا ، إلا أنه يمتاز بروح الاستقلال والميل إلى الثورة ، الأمر الذى أعوز ذلك المتوحد المنعزل . هو فلاح إيقوسى ثقف نفسه بنفسه ، وكتب بلغة الأراضى الواطئة التى تسمع فيها هبوب الريح وهطول المطر . وقد أكسبته الطبيعة الوحشية

حب الحرية : حرية الروح فسخر من التقاة الورعين والكهنة المنافقين والآلهة المرعبين ، وحرية الجسد فتغنى بالهوى الجارف والصراخة التامة . كان يكره كل غموض .. ومن قصائده قصيدة بعنوان «المتسولون المرحون» وهى نشيد نغم وتحد وقح للمواضعات الاجتماعية .

ولئن ظل بيرنز على الأرض فإن معاصره وليم بليك (١٧٥٧ — ١٨٢٧) حاول أن يهرب منها . كان شاعرا و رساما . ولقد عاش فى عالم صوفى ، فكان يكتب أو يرسم فى الليل ما تمليه عليه الأرواح . كان أشبه بالبدائيين والأطفال يخلق الأساطير ويؤمن بمخلوقات خياله . وقد أوجد لنفسه ديانة خاصة غامضة رمزية . ومن أهم آثاره « أغانى البراءة » وهى أغنيات طفولية قصيرة جميلة ، تفيض بالفرح النقى والطيبة البريئة — و « أغنيات التجربة » ، وفيها يشيع شىء من الألم إذ تصور فرح الطفل تقتله القوانين الاجتماعية والدينية . ولا أعرف أحدا طوّف فى عالم الهلوسة والحلم بأيسر مما فعل بليك .

الفصل الحادى عشر

الشعر الروما نطيقى

١ — الجيل الجديد : الأرثوذكس

يطلق اسم شعراء البحيرة على ثلاثة شعراء روما نطيقيين نظموا أحسن قصائدهم فى بلد البحيرات (كمبرلاند). وهم مختلفون بعضهم عن بعض فى العقلية والموهبة. ويجمعهم أنهم كانوا ثواراً متمردين ثم سرعان ما أرتدوا عن حماستهم وفاءوا إلى الدين وإلى المجتمع.

أولهم ديردسورث (١٧٧٠ — ١٨٥٠). عاش طفولته فى بلد البحيرات، فأيقظ ذلك فى نفسه تذوق الجمال ومحبة الطبيعة، وكان منذ حداثه سنه يميل إلى السفر مشيا على الأقدام، ويحب الوقوف طويلا أمام الشمس أثناء الغروب. وكان فى إبان دراسته فى جامعة كامبردج يفكر فى الشعر أكثر مما يفكر فى دروسه. وكانت الشكوك الدينية التى تساوره تمنعه من دخول الكنيسة. وسافر إلى فرنسا أيام كانت فرنسا

تتمخض عن مولودها الجديد (١٧٩١) . وتعرف فى مدينة بلوا على صبية فرنسية أسمها آنيت فالون ، وقد أنجبت منه طفلة ، فاعترف الشاعر بأبنته واحتضنها ، ولكنه لم يصلح غلطته .

ثم رأى من الحكمة أن يعود إلى انجلترا ، وعانى فى انجلترا فترة من التمزق والقلق . فضميره يخزه على سوء تصرفه مع آنيت ، ثم يؤلمه أن يرى الثورة تغرق فى الدم . ولكنه استعاد هدوءه شيئاً فشيئاً . فقد استطاعت أخته دوروثى أن تصلح من حاله ودينه بالتدريج ، وأن تبث فى نفسه شيئا من الراحة والطمأنينه . كما أن صديقا له غنيا ترك له مبلغا من المال ، فاستطاع أن يعيش فى الريف حياة بسيطة خالية من الهموم .

وفى عام ١٧٩٧ تعرف إلى كولردج ، ونشر الشاعران ديوانا مشتركا بعنوان « قصائد غنائية » ، وكان لويردسورث فى هذا الديوان نصيب الأسد . وفى هذا الديوان أصبحت « أنا » هى الموضوع الأساسى. لقد ولد الشعر الرومانتيكى

وقد شرع ويردسورث بعد ذلك فى نظم قصيدة فلسفية أراد أن يتغنى فيها بأفراح الحياه اليومية ومزايا الوحـــدة

والاتصال بالطبيعة . ولم ينظم من هذه القصيدة إلا جزأين « التمهيد » و « الرحلة » . وأهم هذين الجزأين هو « التمهيد » حيث يحـــدثنا ويردسورث عن تطور حياته الروحية .

وأخذ شاعرنا يعيش حياة هادئة متشابهة تتخللها بعض الأسفار إلى ألمانيا وإيقوسيا ، وإلى إيطاليا وفرنسا بعد ذلك . ثم استقر فى مراتع طفولته بإقليم البحيرات ، وهناك إنما ألف خير آثاره .

ثم انتابه نوع من الجمود الفكرى فاذا هو يحطم ما كان يعبده ، فيصبح ألد أعداء الثورة ، ويرتد أرثوذكسيا أخلاقيا محافظا ، وهنا تنهال الأمجاد على رأسه كالمطر ، ويحيا شيخوخة طويلة لا يكف فيها عن تأليف ذلك النوع من الشعر الأخلاقى المؤثر الذى هو للشعب الانجليزى كالجزر للحمير على حد قول ادموند جوس .

ومن الأفضل أن ننسى ويردسورث الشيخ فما نتذكر إلا ويردسورث الشاعر الشاب الذى كان أول من عرف تلك اللحظات من الوجد التى لا يكون بدونها شعر غنائى عظيم . على ويردسورث يتضعف حين يدع الطبيعة ليتحدث عن الإنسان ، فليس فى أمثاله شىء من الجدة . ولئن استطاع أن يفهم قيمة

الأشياء الطفيفة ، فإنه لم يفرق دائما بين الطفيف والعامى .

ومن أحسن آثار ويردسورث قصائده القصيرة التى تميل إلى البالاد الشعبية حيث يستطيع الابتعاد عن البساطة المزيفة ، مثل «لوسيا» ، « الحصادة المنعزلة » . . الخ . أما حين يحاول أن يعظ فإنه لا يطاق . وذلك فى مثل قصيدته « پيتر بل » وهى قصة حمار مخلص وسيد خبيث. ومن آثاره «سائق العربة» وهى قصة حصان نشيط وسكير محبب . إن المؤثر فى مصير ويردسورث أنه ولد ذئبا ومات كلبا .

وشتان بينه وبين كولوردج (١٧٧٢ ــ ١٨٣٤) من حيث قوة الروح ؛ كان كولوردج على جانب كبير من القلق والاضطراب فلم يعطنا كل ما كان فى وسعه أن يعطيه . لقد كان موهوبا فى الشعر والفلسفة والنقد جميعا .

ولقد نضب معين الشعر فى نفسه فجأة وهو لما يزل فى السادسة والعشرين من عمره . ولم يستطع بعد ذلك أن يتصل مرة واحدة بذلك الوحى الشعرى المتدفق الذى يدين له بقصائد: « نشيد فرنسا »،« البحار العجوز » ، « كريستابل » « كوبلا كان » (حتى أن هاتين القصيدتين الأخيرتين لم تكملا) . ولم يكتب كولوردج بعد ذلك الا نثرا . وقد قرأ

الميتافيزياء الجرمانية فأساء هضمها وتمثيلها . ولكنه من حيث هو ناقد أدبي يعد فى الطليعة الأولى ، ولا سيما حين يتحدث عن حياة مخلوقات شكسبير « هذه النفس التى تحتوى على ألف نفس » . وانما أفسد عليه حياته سوء صحته فقد كان يشكو التهابات حادة وآلاماً عصبية لا تطاق فكان يلجأ إلى الأفيون محاولا أن ينسى آلامه . وظل بعد ذلك عشرين سنة يعالج الخلاص من سموم الأفيون . وسرعان ما أصبح الألم الجسمى يمنع عن كولردج ذلك الهدوء الضرورى للشعر .

قصائده أحلام غريبة فى الغالب . فإذا قرأت قصيدته كريستال فقد دخلت فى جو من الليل وضوء القمر الشاحب ، وأحسست أنك فى قصر مسحور ، أو فى غابات سرية ، بين كائنات خفية مرعبة .

وقصيدته الأساسية الثانية أعنى « البحار العجوز » أشبه بحالة من الهلوسة . ولئن كانت موسيقاها بجلجلة ، فإن هذه الجلجلة تساعد أكثر من غيرها على تصوير النوتى ذى اللحية البيضاء الطويلة والعينين البراقتين وهو يروى رحلته المرعبة فى بحار النار وسط مائتى جثة من جثث الموتى .

إن كولردج لم يحتل بعد فى الشعر الإنجليزى المكانة التى

يستحقها ، وفى رأيى أن مجده سيزداد مع الزمن علواً .

وثالث شعراء البحيرة هو ساوذى(١٧٧٤ — ١٨٤٣)،وهو شاعر عادى، كان فى أول أمره ثوريا عنيفاً ثم اعتدل. وكانت ثورته عنيفة بقدر ما أصبحت محافظته عدائية هجومية . وقد تأثر بألف ليلة وليلة ، وبالأساطير الهندية ، فكتب قصائد قصصية طويلة مثل «تالابا» و « لعنة كيهاما » ، وهماقصيدتان لا يعوزهما إلاشيء واحد : الشعر . وأحسن آثاره مقطوعات صغيرة مثل « برج الأسقف هاتو » وغير ذلك مما تتلقفه المختارات الشعرية المخصصة للتلاميذ .

وتعد آثار والتر سكوت الشعرية قريبة جدا من آثار شعراء البحيرة . وقد أصابت فى حينها نجاحاً عظيما . وخير ماتمتاز به أنها صورت جمال إيقوسيا القديمة تصويرا حيا ملونا. إلا أن له حكايات شعرية مملة مثل « أغنية المنشد الأخير » « ومارميون » « وغادة البحيرة » . إن أشعار سكوت حين تقرأ بكميات صغيرة ، ولاسيما المقاطع الوصفية . ماتزال تجد سبيلا إلى القلوب ، أما إذا قرأتها بكميات كبيرة شعرت برتابة مملة لا تطاق . لقد أحس سكوت نفسه أن عبقريته الحقيقية ليست فى الشعر .

ونستطيع أن نذكر من صغار هؤلاء الشعراء الرومانطيقيين مسز هيمانس (١٧٩٣ — ١٨٣٥) التي عرفت كيف تصنع موهبتها في متناول الأطفال — ثم كامپل (١٧٧٧ — ١٨٤٤) شاعر البحارة والجنود — ثم روچر (١٧٦٣ — ١٨٥٥) وهو مرهف الروح ولكن ردىء النظم — وأخيرا وخاصة توماس مور الذى نسى الآن ظلما وأهم آثاره «الحان إيرلاندية»، وهى مزيج من الموضوعات الوطنية والموضوعات العاطفية.

٢ — الجيل الثانى الثائرون

أولهم لورد بايرون، وهو الوحيد الذى طبقت شهرته الآفاق فى أول الأمر. أما الآخران شيلى وكيتس، فلم تقدرهما إلا صفوة صغيرة من الناس. ولكن شهرتهما تزداد يوما بعد يوم، بينما يميل نجم لورد بايرون إلى الشحوب.

لورد بايرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤): وهبت له الأقدار وهو فى مهده كل ما يوهب لامرىء من جمال ونبل وثروة، ولكنها وهبت له أيضا قدما عرجاء، وكبرا عجيبا شاذا لقد كان بين أجداده مجانين وفجرة، فاعتقد أنه لا بد مطبوع على هذه الخلقة.

فها هو ذا يصرح أنه برم بالحياة وضاق بها وملها قبل أن يكون قد عاش الحياة ، وهاهو ذا يرحل إلى اسبانيا وتركيا وهو فى فى مستهل شبابه .

وكان إلى ذلك الحين يتتبع فى مؤلفاته خطى پوپ ، ومن آثار شبابه « أسفار اتشيلد هارولد » (١٨١٢) وهو يروى فى النشيدين الأولين من هذا الكتاب قصة أسفاره ، ويعرض كآبة نفسه ، ويضرب على أوتار غريبة غير متوقعة . ولقد كان من شأن هـــذا الكتاب أن أطار سمعته فى الآفاق . ونشر بعد ذلك طائفة من المؤلفات كانت تزيد شهرته وتعظم من أمره ، منها «الكافر» ، «عروس أبيدوس ، «لارا» «وحصار كورينث » . وأبطال هذه الروايات جميعا واحدة : شخصيات عظيمة تنوء بحمل جريمة خفية تسبب ذكراها لذة مرة — ثوار يكافحون المجتمع . . .

وهناك جريمة لم يكن بايرون يجرؤ على تذكرها إلا كخيال مرعب فظيع ، أعنى نكاح المحارم . وقد ارتكب بايرون هذه الجريمة بالفعل ، تدفعه إليها رغبة مرضية عنيفة فى اقتراب هذا الخطيئة الكبرى التى لا تغتفر . فمن عام ١٨١٣ عقد بينه وبين أخته أوجوستالى صلات إجرامية حتى أنجبت منه

طفلة . وبعد ذلك بسنتين تزوج فتاة نبيلة المحتد ظنت أن في وسعها أن تحيل زوجها إلى إنسان طيب :

وأبى بايرون إلا أن يعرض مخازيه ، وقام الناس فى انجلترا وقعدوا يستنكرون الجريمة الكبرى ، فما كان من بايرون إلا أن أبحر فى ذات يوم من ابريل سنة ١٨١٦ إلى القارة الأوربية فطاف فى بلجيكا ، وأقام مدة فى سويسرا حيث التقى بشيللى ، ثم استقر فى البندقية بايطاليا حيث جهد أن يدهش العالم بضروب شذوذه وفنون مجونه . وفى تلك الفترة إنما ألف أحسن آثاره : « سجين تشيلون » و « مازيپا » ، وخصوصا « مانفرد » و « قابيل » و « دون چوان » . ولكى يلفت إليه انتباه العالم مرة أخرى سافر بعد ذلك إلى اليونان ، لتحريرها ومات من الحمى فى ميسولونجى . وقد ألهه الرومانطيقيون تأليها لفرط ما تأثروا بهذه الظاهرة الدونكيشوتية ، وفاتهم أن إلههم ليس إلا كومة من الوحل .

ليس يخلد من آثاره إلا شىء قليل! فكتابه أسفار اتشيلد هارولد ، إذا استثنينا منه بعض المقاطع الجميلة كوداعه لبلده ومسقط رأسه ، وقصة واترلو وغير ذلك ، أشبه بدليل منظوم يسترشد به السياح فى أسفارهم .

ولكن «مانفرد» ، هذه الدرامة الغنائية المستوحاة من جوته، فإنها تؤثر فينا تأثيراً قويا. وأما «قابيل»، هذه الدرامة الفلسفية ، فهى أشبه بمقالة ضد الدين . ولكن بايرون ، فى هذه المرة ، يقدم لنا أبطالا فوق الطبيعة ، كما أن التطرف الرومانطيق لا يبدو مزعجا . وأما كتابه « دون جوان » الذى لم يكمل فإنه تعبير عن السخرية المرة ، على طريقة ڤولتير ، التى تفوق حد الثورة وحد الروح السلبية. إنك تجد فيه حروبا هزلية واحتقارا لا حد له للبشر والأشياء، وتقريراً لحماقة الإله . إنه أثر من آثار القرن الثامن عشر . ليس بايرون شاعراً كبيراً فحسب ، إنه « حدث أدبى » .

والآن فلنتحدث عن كيتس (١٧٩٥ — ١٨٢١) : هو ابن خادم فى اسطبل ، علم نفسه بنفسه ، وكان طالبا يدرس الطب. خلف لنا آثاراً قليلة ، لأنه مات بداء السل ولما يزل فى الثامنة والعشرين من عمره . ولكن لئن كانت آثاره ضئيلة فإن مجده لكبير دائم. كان كيتس ، على حبه للحياة والخمر والحب، أهدأ ممثلى هذا الجيل من الثائرين .

تتلمذ كيتس على أكبر الأساتذه : الأليزابثيين وملتون . ولئن أعوزه التعليم فقد واتته العبقرية . وعلى أنه كان يجهل

اللغة اليونانية وكان مضطرا لقراءة التراجم والمعاجم فيما يتصل بالأساطير اليونانية ، فقد كان فى عصره ، الوحيد الذى يحس الجمال التجسيمى ، والوحيد الذى يتذوق الجمال اليونانى.

ليست كل آثاره رائعة ، فكثيراً ما يعوزه الذوق ، ويكاد يكون قصير النفس فى كل ما أنتج ، وتدل «أنديميون» على أنه شاب عديم الخبرة ، كما أن فى أسلوبه أحيانا كثيراً من التكلف. ولكن إلى جانب ذلك ما أعظم هذا الغنى الحسى فى ألحان پان ، أو فى وصف نوم آدونيس ، أو فى أغنية الخريف . وقد كتب كيتس قصيدة ناقصة بعنوان «هايپيريون» أراد أن ينافس بها «الفردوس المفقود» ، وهى فى جملتها متكلفة، إلا أن كيتس يبلغ فى بعض مقاطعها ، مثل احتضار التيتان ، أرفع ذرى الملحمة .

ومن أجمل آثاره تلك القصائد القصيصية القصيرة ، مثل «ايزابل» (وقد استمد موضوعها من بوكاشيو) و «ليلة سانت آجنس» و «لاميا» (وهى حكاية سحرية غريبة مستمدة من برتون) . إلا أن كيتس سيظل يعرف بأنه مؤلف ذلك الكتاب الرائع الذى يصوّر القرون الوسطى الفروسية الخيالية ، أعنى «المرأة الجميلة التى لاتشكر» ، وبأنه

مؤلف أناشيد جميلة موسيقية تنقلنا إلى آفاق من الفرح الصوفى مثل « نشيد الخريف » و « نشيد الهزار » .

لقد تذوق كيتس جمال الأشكال ، وجمال اللحم الحى ، ولكنه كان ينشر دائما رائحة الموت . لقد كان وثنيا . لقد أحب العدم . لم تكن عواصف نفسه تثور على السطح بل فى الأعماق . إنه يأس هادىء ، انصعاق تحدثه رؤية الهوة السحيقة .

لم تكن لغة كيتس الشعرية فى مستوى أفكاره . غير أن الأسلوب ينصقل مع مرور الزمن . ولو قد عاش كيتس أكثر مما عاش . . . ولكن من يدرى ! فلعل الحياة كانت تؤدى إلى أفول مجده .

الفصل الثاني عشر

شـــــيللي

١ - الرجل وآثاره



(شيللي ١٧٩٢ — ١٨٢٢)

لئن كنا نفصل شيللي عن جيله ، فلأنه ثالث قمة من قمم الأدب الانجليزى بعد تشوسر وشكسبير .

لقد ظل شيللى يرتعش طيلة حياته ، يرتعش للظلم ، يرتعش للبغض ، يرتعش للجمال ، يرتعش للحب ، يرتعش للنور . كان مؤمنا كره الدين ، وأحب الإنسان ، وعبد الحرية . كان فى أول أمره واحدا من أمثال رينيه ، وسرعان ما ارتفع بعد ذلك فوق الرومانطيقيه ، وفوق الكلاسيكية ، وفوق كل المذاهب ، ليحقق شخصيته الخاصة ، ويكون هو نفسه .

كان طفلا غريبا : كان يجلس إلى أخواته يقص عليهن قصصا مخيفة مرعبة ، ويطوف فى أبهاء المنزل يحمل إناء مملوءا بالسوائل المشتعلة ؛ أو يمضى إلى لقاء ساحر مختبىء فى مكان مجهول ؛ ويسعده أن يعيش خائفا من الحية الرقطاء العجوز التى كانت تسكن الحديقة . وكان فى مدرسة ايتون ، بعد أن يقرأ أوراد ساحرات (ماكبث) يشعل الكبريت ، ويقرب منه مولدات كهربائية ، يحاول أن يستحضر الشيطان . كان يلتهم حكايات استحضار الأرواح ، ويكثر من قراءة الروايات المرعبة وأقاصيص اللصوص والعصابات . وبذلك كان ينسى استهزاء رفقائه منه ، إذ كانوا يسخرون من أبازيمه الذهبية ، وعينيه الزرقاوين ، وصوته الأنثوى . وحين دخل جامعة أكسفورد تمتع هنالك بكثير من الحرية ، وأسرف

فى هذا التمتع، وكان معجبا جدا بالثورة الفرنسية ، وكتب كتيبا بعنوان « ضرورة الإلحاد » لم يستقر فى واجهات المكاتب أكثر من عشرين دقيقة ، لأن السلطات الجامعية أمرت حالا بمصادرته ؛ وطرد من الجامعة وهو فى الثامنة عشرة والنصف من عمره ، فوجد نفسه يحيا فى لندن شريدا ، ويتعيش من دراهم أخواته اللواتى كن يقتطعنها من مصروفهن اليومى . وكان لأخواته صديقة اسمها هاريت ويستبروك أظهرت إعجابا شديدا جدا بشخص شيللى ، وبآرائه ، فكتبت إليه ، وشاء سوء حظها أن تقع رسالتها فى يد الناظرة ، فطردت من المدرسة . إلا أن شيللى كان جريئا ، فلم يتردد بل انتشل هاريت ، ومضى بها إلى إيقوسيا ، حيث الزواج سهل ، وتزوجها فى ادنبرج . ولم يكن مجموع سنى العروسين يتجاوز خمسة وثلاثين عاماً . . .

وفى عام ١٨١٢ سافر العروسان إلى دبلن ، ثم لم يلبثا أن عادا إلى لندن واستقرا فيها. ولكن على قدر ما كانت هاريت تغور فى عالم المادة كان شيللى يعلو ويغيب فى السحاب . وتبدد الحب . فانفصلت هاريت عن زوجها . ولم تكتف بذلك ، بل عقدت صلات مع غيره ، وبذلك جعلت التفاهم مستحيلا .

وفى أثناء ذلك كان شيللى يزداد افتتاناً الفتاة الصغيرة مارى، إبنة الفيلسوف جودون وفى عام ١٨١٤ مضى بها فى رحلة قصيرة إلى سويسرا . وبعد ذلك بقليل نشر قصيدته الكبيرة الأولى « آلا شور » ، ولم يكد يلتفت إليها أحد من الناس .

وفى عام ١٨١٦ قام برحلة أخرى إلى چنيف ، وكانت رفيقته فى هذه الرحلة أخت زوجته ، كلارا كلير مونت التى كانت تريد اللحاق بعشيقها بايرون . وفى أثناء هذه المدة التى أقامها شيلى فى سويسرا ، إنما شعر حقاً بتيقظ عبقريته . ولما عاد إلى لندن علم بانتحار هاريت على أثر حمل . وحاول أن يسترد أولاده ، ولكن القضاة ، نظروا إلى سوء سمعته ، حرموه من رؤيتهم إلى الأبد

وستطاع أن يوطد صلته بمارى ، واستقر فى مارلو على التاميز . وساءت صحته ، فنصحه الأطباء أن يكثر من التعرض للشمس ، فسافر إلى إيطاليا ، ولم ير انجلترا بعد ذلك أبدا .

وفى إيطاليا إنما تفتحت عبقريته تفتحها النهائى فكان عام ١٨١٩ هو العام الذى كتب فيه « پروميثيوس طليقا » ، وفى عام ١٨٢٠ كتب أناشيده الكبرى . وقد خلق من حوله ندوة فذة

من أشراف إيطاليا واليونان . وكانت فرحته بالشعر تخفف بعض ألمه لفقد عدة أبناء من أبنائه .

وفى ذات صباح عاصف من يولية عام ١٨٢٢ ، سافر على باخرته (L'ariel) فى رحلة بحرية . ولسنا ندرى ما الذى حدث على وجه الدقة . هل غرق؟ هل أنتحر ؟ هل قتل ؟ لا يدرى أحد . ومازال السر غامضا إلى الآن . فقد طال انتظار صحبه له إلى آخر الليلة العاصفة دون أن يعود ؛ وفى ذات صباح مشمس شوهد جثمانه على الساحل الرملى . وقرر الصحب حرق الجثة والاحتفاظ برمادها . وحضر بايرون الاحتفال المريع ، فلم يلاحظ عليه أحد شيئا من علامات التأثر ، بل كان هادئا كل الهدوء ، ثم شرب خمراً وأنطلق يضرب فى الغابات يصيح ويغنى ويعربد . وقد انتزعوا قلب شيلى من اللهب ، وأسلموه إلى مسز شيلى .

لقد خلف هذا الشاب الذى مات فى الثلاثين من عمره آثارا ضخمة لم يكتب مثلها شاعر غنائى انجليزى قط . ليس بين هذه الآثار التى خلفها أثر واحد لا يؤثر فيك . ولكنها تبلغ من شدة اللمعان لتعدد أضوائها أن عينيك تعشى فى بعض الأحيان عن رؤيتها . لقد كان لشيلى عينان قادرتان

على تفريق الشعاع الضوئى ، وكان له أذنان تسمعان حفيف أجنحة الأرواح ، وكان له شم بلغ من فرط الرهافة انه يكتشف وجود زهرة بنفسج بين عيدان القصب . لم يصور ألوانا بل حركات قوس قزح والنـــور الداخلى للسحب والأمواج . لم يسجل أصواتا وكلاما بل ألحان الصوت الإنسانى الذى يشبهه بالريح بين الأشجار، بالريح فوق الازهار، بالريح فوق الماء ، وبالريح بين الخرائب والأطلال . كان يتنسم وهو فى نشوة ممتعة رائحة الأزهار التى تحملها عند الظهيرة ، على الأجنحة ، رياح الصيف الرطبة .

لقد أحب تقلب السماء ، أحب خيالات السحاب، أحب شعاع القمر ، أحب الضوء السريع ، تداخل النور بالظل ، انكسار الأشياء فى الماء . أحب صوت الصدى المتغير ، وهو يبتعد ، ويضعف ، ليموت هناك ، فى بلد الأحلام .

أحب كذلك الإنسان ، وفاض قلبه رحمة على المتألمين . حتى لقد ألهمه موت كيتس مرثاة نغمة رائعة . كان يكره الظالمين . لقد وضع إحساسه الجمالى المرهف فى خدمة حبه العنيف لأقرانه البشر .

إن صعوبة لغته الشعرية تقلل عدد قراء آثاره الطويلة ،

مثل «ألاستور» و«ثورة الإسلام» و «جوليان ومادالو» . . إلخ وتعد « الأستور » أكثر قصائده رومانطيقية ، وفيها يصور العبقرية منعزلة فى هذا العالم تتنقل بين المناظر الرائعة باحثة عبثا عن رفيق تكون روحه فى مستوى روحها . ومن آثاره درامة « آل سنسى » ، وقد مثلت وأصابت نجاحا عظيما ، وهي تحدثنا عن بيا تريس سنسى كيف قتلت أباها العجوز المجرم الذى تجاسر على عفافها . ومن أجمل آثار شيللى تلك القصائد القصيرة التى ليس هنالك انجليزى مثقف إلا قرأها وفتن بجمالها ، مثل « المستحية » ، « الجبل الأبيض » ، « القبرة » ، « السحابة » ثم « نشيد ريح الغرب » وأخيراً فإن من يحبون الشعر المعقد لن يجدوا أجل مبنى ولا أرفع معنى من قصيدة شيللى (Epipsychidion) التى يروى فيها غرامه بصبية إيطالية فاتنة .

٢ — انطلاق بروميثيوس

هذه المسرحيات التى سبق ذكرها كفيلة بأن تنزل شيللى المنزلة الأولى بين الشعراء الغنائيين . ولكن شيللى قد ارتفع على هذه المنزلة أيضا بكتابه « إنطلاق برومثيوس » أو « بروميثيوس طليقا » .

فى عام ١٨١٦ قرأ كتاب أشيل « اعتقال بروميثيوس » وأعجب بعظمته البدائية إعجابا عظيما . ومنذ ذلك الحين قرر أن يكتب الدرامة المفقودة عن « انطلاق بروميثيوس » وظلت فكرة هذا الموضوع ملازمة له أثناء رحلاته فى إيطاليا إلى أن انصرم صيف عام ١٨١٨ فبدأ بتنفيذ هذا المشروع . وكتب الفصل الأول منه ، وهو أكثر الفصول إغريقية أما الفصلان الآخران فقد كتبهما فى خرائب كارا كالا بروما فى عنفوان الربيع ، وهما شخصيان إلى أبعد الحدود وأما الفصل الرابع وهو آخر ألحان هذه السمفونية الرائعة ، فقد أضيف متأخرا فى ديسمبر عام ١٨١٩ وكتب بفلورنسا .

يطلع الفجر على منحدر متجمـــد فى القوقاز ، حيث بروميثيوس معتقل، وفى أسفل المنحدر تجثم امرأتان مجنحتان هما يانثيا وابونية ، تحاولان أن تواسيا بروميثيوس وتخففا من آلامه . ولكن بروميثيوس يتحمل الالم لا يبالى ، ذلك أنه يعلم أن الساعة التى سيهوى فيها الطاغية جوبتر فى الفضاء اللانهائى آتية لاريب فيها. ويود لو يسمع من جديد عبارات اللعنة التى لايزال جوبتر يرتجف لها. ولكن أصوات الجبال، والينابيع ، والهواء ، والعواصف، والارض نفسها ، لاتجرؤ

أن تكرر ذلك الكلام الفظيع . وعندئذ يستحضر بروميثوس شبح جوبتر : وتدوى فى السماء مرة أخرى تلك الكلمات التى تقض الطاغية ، الكلمات التى تبشر بسقوط جوبتر على أثر عمل لا يعرف سره أحد غير بروميثيوس . ويضطرب الطاغية : ويرسل المريخ يطلب السر ثمناً للحريه ولكن بروميثيوس يفضل أن يظل يتألم ، فتنقض عليه الهات العذاب بين اصطفاق الاجنحة، وتطوف أمامه رؤى : رؤية رجل مصلوب ، ورؤى سجون ومذابح . ثم ينتشر الهــــدوء من جديد . هاهى الارواح تغنى ، وتنشر ابتساماتها مضيئة كنار النجوم . وتمضى پانثيا نحو غابة الهند ، حيث تمكث آسيا منفية بانتظار حبيبها بروميثيوس .

ومرة أخرى يطلع الفجر على الغابة حيث تلتقى پانثيا بآسيا . وتقرأ آسيا فى عينى پانثيا رسالة پروميثيوس . وكانت پانثيا قد تراءى لها قبل ذلك حلم أزعجها . فإذا بالحلم يتجسد الآن ، وإذا به يصبح « روحا » ترتدى غلالة رمادية . وتدوى فى فى الفضاء كلمة ترددها الأصداء من كل الجهات « ورائى ورائى » وتمضى آسيا و پانثيا فى إثر الصوت الذى يبتعد . إنهما تمران بغابة مظلمة يغنى فيها الهزار ، فى رابعة النهار ، وقد اسكرته

رائحة الأزهار . ثم تصـــلان إلى الهوة التى يعيش فيها ديموجورون أى « الأبدية » أو « ناموس العالم » ، فتحملهما الأرواح إلى العرش الذى يستوى عليه ديمو روجون ، وهو كتلة من الظلمات او هو شمس سوداء تصدر عنها اشعة قاتمة . وتسأل آسيا الكائن الرهيب عن السـاعة التى سينهض فيها بروميثيوس من مضجع العـذاب الذى هو فيه . فيشير ديموجورون إشارة بيده تتباعد فى اثرها الصخور وينكشف من ورائها الجانب الآخر من الأرض . وفى هذا الليل الارجوانى تلمع عربات الزمان فيركب ديموجورون إحداها ويغيب فى الظلام ، وتركب آسيا وپانثيا العربة التى خلفها ويغيبان وراء ديموجورون .

وفى اثناء هذه الرحلة السرية ، تستحيل آسيا كائنا آخر : إنها كائن من نور . وكأن روحها الآن زورق سحرى يسبح فوق الامواج الفضية للألحان التى تغنيها الاصوات الهوائية .

وفى أثناء هذا الوقت ، يعمى چوپتر . فقد اقترف الفعل الذى فيه هلاكه : لقد تزوج تيتسى . وتصل عندئذ عربة الزمان المحتومة ديموجورجون . لقد هوى الطاغية ، وشهد اوقيانوس وآبولون سقوطه المريع .

وينقذ هرقل بروميثوس ، ويتزوج بروميثوس آسيا . وأمام ايونيه وبانثيا ، المفتونتين ، تغنى الأرواح زوال الموت والفوضى والليل . وتفرح الارض لان الحب يشق طريقه عبر السماء . و «القمر» يضيف إلى صوته الفخم ألحان فرحة القوية ثم يسكت كل شيء لان صوتا يدوى : إن ديمو جورجون يهب للوجود « القانون » .

إن هذه الدرامة الغنائية هى انجيل شيللى . إنها رسالة حب وحرية . ولكنها تحتاج إلى تأويل ، شأنها شأن كل كتاب مقدس . أما الرمزان اللذان يمثلهما جوبيتر (الإله الطاغيه) وبروميثيوس (الإنسانية المعذبة) فواضحان لايحتاجان إلى شرح . وإنما الالتباس يقع فى ثالوث آسيا وبانثيا وأيونية بنات أوقيانوس . وقال بعضهم إنهن رموز إلى الحب والإيمان والأمل . ولكن شيللى يرى أن ليس ثمت إلا قوة واحدة تسود العالم : الحب . وليست الأخوات الثلاث ، اللائى يحببن بروميثيوس جميعا ، إلا تجسدا لمختلف أنواع الحب : أما إيونية فهى الرغبة الفتية فى الحب الغامض العذراوى . وأما بانثيا ، وهى أمرأة أخبر وأنضج ، فهى الحبيبة الأرضية ، وهى انعكاس لآسيا . وأما آسيا فهى الحب المثالى . هى روح

الحب المحض . وإذن فليس سفر آسيا وبانثيا فى إثر الصدى مجرد استطراد ريفى . إنه يمثل حياة الحب : منذ الرؤى الأولى وضروب الإخفاق الأولى ، حتى ذلك الوجد المسكر الذى يسوق النفس العاشقة إلى قلب الحياة الخفى المستتر .

صدق آرنولد حين قال : إن شيللى ملاك جميل كان عبثا يضرب الهوة بجناحيه . لقد أحس إحساسا قويا بالرغبة التى تحدو بالفراشة إلى بلوغ النجم . ولكنه كان شاعرا ، فعاش فى أحلامه أكثر مما عاش فى الواقع . لقد أحب الحب بعنف ويجب أن نغفر له كل شىء .

وقد أحسن القدر إذ قطع خيط حياته قبل أن تأتى سحب الكهولة فتظلم سماءه .

الفصل الثالث عشر

نثر العصر الرومانطيقى

١ — الروائيون

حين هدم ستيرن هيكل الرواية العاطفية نشأت الرواية « القاتمة » ، وأخذت تهز مشاعر الجماهير ، ولم يعد المؤلفون يحاولون أن يستدروا الدموع ، ولا أن يستثيروا الضحك ، بل يحاولون أن يخلقوا فى القارىء رعشة القلق والغم . وكان رائد هـذا النوع هوراس والپول فى رواية « قصر أترانتو » عام ١٧٦٤ . فنحن هنا فى جو غريب : فهذا قصر جوتى ، وهـذه ممرات تحت الأرض ، وأبواب تنفتح بصورة سرية وقبور وأشباح . . كل ذلك فى إطار الجو الإيطالى إبان القرون الوسطى

وسيد هذا النوع أو قل سيدته مسز رادكليف (١٧٦٤ — ١٨٢٣) وأهم مؤلفاتها رواية « الغابة » و « أسرار أودلفو » الخ . وقد برعت خاصة فى تصوير حسناوات يعذبن فى غرف منعزلة من أديرة مهدمة تسمع فيها مصاريع الأبواب تضرب

بشدة ، وترى الأبواب السرية تنفتح ، وتدوى من بعيد أصوات موسيقية .

وكان لمسز رادكليف عدة منافسين حاولوا أن يفوقوها ، نذكر منهم لويس فى رواية « الراهب » (١٧٩٥)، وقدأضاف الى هذا النوع عنصر الشهوانية والنفور الجسدى . فيرينا فى هذه الرواية حجرة لوثت ملاحفها بالدم ويرينا طيف راهبة دامية كانت بغيا وقاتلة . ويرينا مشهداً من السحر والرقية يدور فى دائرة رسمت بالدم . وبعد ذلك رأينا مسز شيللى تؤلف روايتها « فرانكشتين » (١٨١٧) فتدخل فى الرواية عنصر العجائب العلمية . إنها تتخيل إنسانا قادرا على خلق كائن حى . ولكن هذا الكائن الحى يبلغ من دمامته المنفرة أن أولئك الذين كان يريد لهم الخير كانوا يتحاشونه مشمئزين حتى ضوى جسمه وأصبح شريراً لا يفكّر إلا فى القتل .

وقد شهدنا بعد ذلك بقليل رد فعل قوى ضد الرواية القائمة . فرأينا بوجه خاص عددا من الروائيات الموهوبات يحاربن النزعة إلى إثارة الأعصاب ، ويفضلن التأثير فى العقل والقلب . نذكر منهن مسس إدجورث (١٧٦٧ — ١٨٤٩) وقد طواها الآن النسيان ، وليس لرواياتها التى تصف الأخلاق

الإيرلاندية ولا لحكاياتها الكثيرة من غاية إلا أن تستثير عاطفة الشفقة فى القارىء .

ولا كذلك فرانسز برنى (١٧٥٢ — ١٨٤٠) ، فلا تزال آثارها تحتفظ بكثير من النضارة . أو على الأقل روايتها الأولى « إيڤلينا » ، وهى خير هذه الآثار .

وتمتاز برنى بحضور البديهة ، ولكنها ليست على جانب كبير من العمق. وقد سخرت من العامية البورجوازية، جاهلة أن تلك « الإمعية » الأرستقراطية التى تمتدحها أدعى إلى الاحتقار . كانت تشعر شعوراً قوياً بالتفاوت الاجتماعى . ولكنها تنجو من الوقوع فى المضحكات بفضل حيويتها وخفتها وروحها المرحة . على أن الروايات التى كتبتها بعد « إيڤلينا » لا تتوفر فيها هذه الروح المرحة ، وبذلك يعوزها العنصر الأساسى من جمالها .

ولا جدال فى أن جين أوستن (١٧٧٥ — ١٨١٧) أعمق من برنى ، وهى تمتاز بروح نضالية أقوى ، كما أنها أدنى إلى الواقعية . كانت تعيش حياة بورجوازية هادئة لا تعرف الهوى ، وكانت توزع وقتها بين القيام بواجباتها المسيحية وتأليف رواياتها. كانت حكيمة فلم تصف إلا الأشخاص الذين

كانت تستطيع أن تلاحظهم فى ركنها الريفى . لم تتحدث عن الحب أو المصائب الفادحة، بل تناولت شئون الزواج وخصومات الناس ، وحاولت أن تضحكنا من ضعف الآخرين ومن صغاراتهم وتفاهاتهم، وهى فرحة بذلك فرح العانس العجوز (رغم أنها كانت ماتزال شابة حين كتبت «العاطفة والعاطفية» و « الكبرياء والهوى ») . لقد كانت الحماقة الإنسانية موضوعها الاساسى . أحسن رواياتها « الكبرياء والهوى » وهى تصور طائفة من فتيان الريف يبحثون عن الزواج — وأما تصف للخاطبين ماتمتاز به ابنتاها من مزايا جسدية وروحية — وارستقراطيين يمنعهم كبرياؤهم الاجتماعى وتمنعهم اعتبارات الثروة من الاقدام على زواج بورجوازى — وطائفة مضحكة من الإمعات والاغبياء والمغرورين — وفرقة صغيرة من شباب شجعان. وقد برعت جين أوستن فى تصوير البنات، ولكنها لنقص تجربتها لم تدرك شيئا من نفسية الرجل . ولم تعد روايات جين أوستن تقرأ بكثرة ، لان المجتمع الذى تصفه لنا قد مات ، وقيمة هذه الروايات الآن قيمة تاريخية بالدرجة الاولى .

وبفضل والتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢) دخلت الرواية

التاريخية فى الأدب . كان يحب التنقيب فى زوايا التاريخ ، واقتناء الكتب النادرة . وكان إطاره الشعرى الأراضى العالية والآثار الجميلة التى تشير إلى عادات الماضى واخلاقه واكثر عهود التاريخ الانجليزى والتاريخ الإيقوسى خيالية . وقد كرر نفس الموضوعات ، فتارة يتناولها منفردة ، وتارة يمزجها فى مؤلف واحد . وهذه الموضوعات هى : الحب (شاب عاشق وبطلة شقراء) الثورة ، (بطل قومى وشريكة سمراء) ، النزاع بين أسرتين (على غرار روميو مونتاجيو وچوليت كاپيولت) . وإلى جانب الأبطال الرئيسيين هناك شخصيات ثانوية تكاد تكون هزلية كلها أو على الأقل أصبحت هزلية بفضل هذه اللغة الإيقوسية اللطيفة

وتجرى الحوادث فى روايات سكوت ببطء فى أول الأمر لأنه يطيل أولا فى وصف أخلاق ايقوسيا القديمة وصفادقيقا . ثم تتسارع بعد ذلك . أما أبطاله فإما متحمسون يندفعون وراء قضايا خاسرة ، وإما أناس عاقلون يضلون فترة من الزمان ثم لا يلبثون أن يرتدوا فى الوقت المناسب إلى الحزب الحكومى الظافر .

ورغم العيوب الكثيرة فى روايات والتر سكوت ،

وأهمها الطول ، فإنها جميعاً شائقة . أولى هـذه الروايات « ويفرلى » ، وهى تتناول ثورة اليعاقبة الـكبرى عام ١٧٤٥ ، وذلك المشروع الجنونى الذى استهدفه تشارلز إدوارد الطامع بالملك . وقد أصاب سكوت فى هذه الرواية نجاحاً كبيراً شجعه على تأليف روايات أخرى تتناول تاريخ وطنه الصغير . وأشهر هـذه الروايات « شيخ القبور » وهى تصوير قاتم للبيوريتانية الإيقوسية — و « الدير » وفيها يصور لنا أشياء خارقة للطبيعة ويحدثنا عن شقاء مارى ستيوارت .



سير والتر سكوت ١٧٧١ — ١٨٣٢

وفى سلسلة أخرى من الروايات أحيا والتر سكوت تاريخ إنجلترا ، فنى « كينلورث » تظهر اليزابث ؛ وفى « ثروة ينجل » يصور لنا لندن فى عهد جيمس الأول . وفى «ايفانهو» ، وهى لاشك خير روايات سكوت ، نرى الامتزاج الصعب بين العناصر الساكسونية والنورماندية ونرى عودة ريتشارد قلب الأسد غير المتوقعة ونرى الأعمال الوطنية التى يقوم بها روبن هود الخارج على القانون ونرى بطولة ريبكا اليهودية .

وهناك سلسلة أخرى مؤلفة من ثلاث روايات تتناول تاريخ القارة الأوربية ، وهى فى جملتها ضعيفة ، وأقلها ضعفا « كونتن ديروارد » ، وترجع شهرتها فى فرنسا إلى أنها تصور لويس الحادى عشر الذى يعد من أغرب الملوك .

وإلى جانب هذه الروايات التاريخية تقف سلسلة كبيرة من الكتب هجر فيها والتر سكوت التاريخ وعمد إلى الحكاية القصيرة الخيالية إلى حد ما : نذكر منها « عروس لا مرمور » وهى مأساة مؤثرة على الطريقة القديمة .

وإذا عرفت أن هذه المؤلفات جميعها قد كتبت بسرعة للضرورة الملحة ، لما وسعك إلا أن تمتلىء إعجاباً بصاحبها (أبى على سكوت شرفه إلا أن يحكم على نفسه بالأشغال الشاقة

الأدبية ليسدد ديونه جميعها كاملة غير منقوصة) . ويمكن أن نقول إن أحسن آثار شبابه « أيفانهو » ، كما أن أحسن آثار كهولته « عروس لامرمور » ، ولا يعوز هاتين الروايتين إلا شيء من التركيز حتى تكونا من عيون الآثار العالمية .

ولم يكن لوالتر سكوت من خلف إلا « إينسورث » (جاك شيرد ، سان پول العجوز ، الخ) . وهناك ضابط بحار يدعى كابتن ماريات (١٧٩٢ — ١٨٤٨) ، أصاب شيئاً من الشهرة بفضل رواياته التى تضف مغامرات بحرية مثل (Peter Simple Midshipman Easy) .

٣ — الخياليون ، المفكرون ، كتاب المقالة

إن قامة والتر سكوت الضخمة ألقت على عصرها ظلا كبيراً بحيث لا نكاد نرى معاصره پيكوك (١٧٨٥ — ١٨٦٦) ، وهو روائى خيالى شاذ ، من أشهر مؤلفاته Night mare Abbey لم تكن تعنيه الدراسة النفسية كثيراً ، فكان يكتفى برسم الملامح الأساسية والتصوير الكاريكاتورى البرىء . وكان ، من قبيل السخر ، يحشو عباراته بمعالم كلاسيكية واستعمالات متكلفة .

إنه يسخر من نفسه ومن القارىء والناس جميعاً يضحكون

وما دمنا قد ضحكنا قليلا فلنتقدم باحترام من سادتنا الفلاسفة فى هذا العصر : بنثام (١٧٤٨ — ١٨٣٢) صاحب المذهب النفعى . ومالتوس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) الذى يقدس الانجليز اسمه فى هذه الأيام . وكوبت (١٧٦٢ — ١٨٣٥) الاختصاصى فى المسائل الزراعية . وسيدنى سميث (١٧٧١-١٨٤٥) القس الحر الذى كان من أبطال الدعوة الى التسامح .

إلا أن جميع العصور قد شهدت مفكرين كباراً من هذا الطراز . وانما الشىء الخاص الذى يتميز به العصر الرومانطيق هو صدور مجلات كبرى ، سياسية وأدبية معاً ، مثل : مجلة ايدنبرج ، بلاكود ماجازين، لندن ماجازين . . الخ .. وكان لا بد لهذه المجلات التى لم تلبث ان شفعت بصحف يومية من كتاب ونقاد . وقد شهدنا فى هذا العصر نظـــيراً للثنائى أديسون ـــ ستيل ، أعنى الثنائى لامب ـــ هازلت .

لامب(١٧٧٥ — ١٨٣٤) :من أصل بورجوازى عاش حياة بسيطة ، وعرف ألوانا من الشقاء . قتلت أخته مارى أمه فى أثناء نوبة جنونية . فظل بعد ذلك يسهر على صحة أخته ويعنى بها حتى أنقذ عقلها . ولـكن لئن عرف ألوانا من الشقاء

فقد كان مع ذلك يحس فنونا من الفرح : استطاع أن يقرأ .. وأن يقرأ كثيرا ، ولاسيما المؤلفين النادرين الشواذ ، وكان له أصدقاء ممتازون مثل كوليردج . يعرفه الجمهور خاصة بأنه مؤلف «حكايات مستمدة من شكسبير» (١٨٠٧) التى كتبها بالاشتراك مع أخته ، والتى تجمع بين جمال الأقاصيص الخيالية وقوة التأليف الشيكسبيرى . وقد كتب فى « لندن ما جازين» مقالات كثيرة كان يمهرها بامضاء « إليا» ، وفيها تبدو سخريته التى تدغدغ ولا تجرح . ومن هذه المقالات اللطيفة نذكر « آراء مسز باتل فى لعبة الورق» (Whist) و« مقالة فى شواء الخنزير » ولكى يحس القارىء جمال هذه المقالات يجب أن يتقبلها بروح إيجابية وان ينساق معها ويستسيغ مفارقاتها ويتبع صاحبها فى لفه ودورانه وقفزه ، وعندئذ لا بد ان يفتتن بها .

ولكن لئن قدرنا لامب فمن الصعب أن نحب هازلت (١٧٧٨ — ١٨٣٠)، على أن كلا الرجلين يشترك مع الآخر فى آرائه التقدمية بل الثورية ، ولكن لامب أشبه بمن يحضر المؤامرة وهازلت أشبه بمن يلقى القنبلة . إن هازلت رجل فظ يكره الشر . وقد عرف هو الآخر البؤس والشقاء . ولكنه لم يستسلم بل ناضل وكافح حتى غُلب على أمره ، فارتطم فى هوة التشاؤم والحزن والمسكرات :

أخفق راعيا ، وأخفق رساما ، وأجهد نفسه أديباً ، وخاب صديقاً ، وخُدع محبا ، وهزم مكافحاً ، ولم يعرف المسكين من ألوان الفرح إلا مايسببه له بعض النجاح العارض السريع الذى كان يناله محاضراً من حين الى حين .

إنه ناقد كبير مستقل تمام الاستقلال . إنه يصدر أحكامه فيما يحسه واضحة إلى أقصى حدود الوضوح . وأقول فيما يحسه لأن روحه القاسية لم تستطع أن تفهم غنائية شيللى الرقيقة ، فى حين أنه أجاد الحكم على شخصيات شيكسبير ومؤلفى عصر النهضة وعصر الإصلاح ومدرسة پوپ .

أما من حيث هو من كتاب المقالة فإنه يفوق سابقيه فى قوة شخصيته . أسلوبه قاس كروحه . وإذا قرأت له رأيت فكرته تتكون شيئاً فشيئاً بسلسلة من الإشارات المتعاقبة تؤدى إلى الصيغة النهـــائية ، وعندئذ تنبثق الصورة فى كل روعتها انبثاقاً فجائياً . وأحسن مقالاته « السفر » وهى تتغنى بتلك الحرية التى يشعر بها من يهيم على وجهه ينزل هنا وهناك ويحل فى فنادق على عرض الطريق مجهولة . لو استطاع هازلت أن يقاوم حتى التطرف فلربما كان أكبر ناثر فى انجلترا الحديثة .

وبين شخصيتي لامب وهازلت الكبيرتين انسحقت شخصية لي هنت المغمورة (١٧٨٤ — ١٨٥٩) . وفي رأيي أنه يستحق أكثر مما أصاب من شهرة . فإن جريدته « الاجزامينر » تحتوى على مقالات جميلة ، كما أن لكتابه عن بايرون فضل تجريد هذا اللورد النبيل من مجده الفائق ، وإضفاء هذا المجد على شيللي وكيتس . ويمتاز هنت خاصة بأنه كان همزة وصل ، وكان في كثير من الأحيان مبعث حركة وانتعاش . إنه يتمتع بمواهب طبيعية كان يمكن أن تنهض به إلى الصف الأول لو لم تضطره ضرورات الحياة إلى التشتت والتبعثر .

ويمكن أن يقال مثل هذا عن دي كونسي (١٧٨٥ — ١٨٥٩) . كان كاتباً ملفقاً يطرق جميع فنون الكتابة . ومع أعني استغل معيناً جديداً استخرج منه كنوزاً كثيرة ، ذلك هو وصفه لأحلام آكلي الأفيون في روايته « اعترافات آكل أفيون » و « سيداتنا الحزينات » ، وخصوصاً « بنت لبنان » . وقد كتب مؤلفات كثيرة، إلا أنه لم يخلد منها إلا رواية واحدة هي « اعترافات آكل أفيون » ، وفيها يروى حياته المضطربة . إن تلك الصفحات التي تصف سني شقائه في

لندن ، وتصور شخصية آن المؤثرة ، والبغي المحسنة التي تختفي إلى الأبد في ظلام الليل لهي صفحات لا يمكن أن تنسى .

وهناك كتاب صغير مغمور من مؤلفات دي كوينسي ، هو في رأيي أجمل أحلامه ، أعني كتابه « عربة البريد الانجليزية » وهو حافل بالصور الرائعة ، والأخيلة الجميلة . على أن مما يؤسف له أن هذه الصفحات الرائعة لا يمكن أن تترجم فإن موهبة دي كوينسي تقوم في الدرجة الأولى على أسلوبه . إنه هو خالق « النثر العنيف » الموقع كنثر التوراة . إن الأصوات الصماء فيه تشعرك بشيء بعيد بعيد ، الأمر الذي يلائم رؤى الأفيون . ومثل هذا الأسلوب يصعب التزامه باستمرار . لذلك ترى دي كوينسي لا يخلو من الأنغام الشاذة . يضاف إلى ذلك فيما يتعلق بأسلوب دي كوينسي أن الرجل كثيراً ما تسكره موسيقى اللفظ فيهمل المعنى .

ونلاحظ هذه العناية باللفظ لدى لا ندور (١٧٧٥ — ١٨٦٤) . كان جمهورياً ، فطرد من جامعة أكسفورد . وقضى الشطر الأكبر من حياته في إيطاليا . ولكن هنا ينتهي وجه الشبه بينه وبين شيللي . ومن أهم آثاره « محادثات خيالية » وهي تنتسب إلى نوع مزيف ، لكنها تمرينات مدرسية ممتازة

فما أجمل هذا الأسلوب الموقع باعتدال، الكلاسيكي الصافي .

قال لاندور يتحدث عن مجده المقبل في معرض الفخر « سأتناول طعامي متأخراً، ولكن قاعة طعامي ستكون فسيحة مضاءة وسيكون المدعوون قلائل من حيث العدد لكنهم من صفوة الناس قيمة » . ولم تتحقق نبوءته .

الفصل التاسع

العصر الفكتورى

١ — المفكرون ، المؤرخون ، النقاد

طالما مُجّد العصر الفكتورى ، وطالما حقر ، فقد أرادوا أن يشبهوه بالعصر الاليزابثى وأن يجعلوا آثار العصرين فى مرتبة واحدة ، فكان لابد من رد فعل على هذه النظرة ، فرأينا الناس فى القرن العشرين يسخرون من ذلك العصر . ولا شك أن المرء يضيق ذرعاً بما فى الأدب الفكتورى من نفاق بورجوازى وعاطفية كاذبة . ولكن مما لا شك فيه أيضاً أنه يحتوى على آثار عظيمة سواء من ناحيه الجمال الفنى ومن ناحية القوة الفكرية ، الأمر الذى أتاحه الرخاء والهدوء فى هذا العصر .

إن العصر الفكتورى خضم واسع ، إذا نظرت إلى سطحه رأيته هادئاً ، لكن فى أعماقه ثورات عنيفة لا يتصور وجودها الإنسان العادى .

ازدهرت الفلسفة فى هذا العصر ازدهاراً منقطع النظير فظهر جون ستيوارت مل (١٨٠٦ — ٧٣) هذا الولد النابغة ، المتهالك على العمل ، تلميذ بنثام وكومنت ، وظهر إلى جانبه ولكن فى الميدان العلمى ، علماء كبار أمثال دارون (« أصل الأنواع » ، ١٨٥٩) وسپنسر ، وتوماس هكسلى : وكان هذا الأخير البطل الرئيسى للمذهب اللاأدرى .

وقد شهدنا فى هذا العصر قلقا دينياً تجلى فى تطور عدد من كبار المفكرين ، فرأينا نيومان ، القس الانجلكانى ، يساهم فى أول الأمر مساهمة فعالة فى « حركة أكسفورد » المحافظة ، وينادى بالعودة إلى روائع الصوفية فى القرون الوسطى ، ثم ينقلب إلى الكاثوليكية ، فى عام ١٨٤٥ ، ويكون لانقلابه هذا دوى كبير ويصبح الرجل أشبه بشخصية من شخصيات الأساطير ؛ وكان نيومان هذا يمتاز بقدرة عجيبة على الإغراء ، وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوبا جزلا فنياً .

ويشبهه فى هذا الباب رسكن (١٨١٩ — ١٩٠٠) إلا أن إنجيل رسكن لم يكن دينياً ، بل كان فنياً واجتماعياً . إنه إنسان يعبد الجمال .. ويعتبره دليلا على روح الله التى تشيع فى

العالم (« المصورون المحدثون » « أحجار البندقية » . . الخ)
لقد رأى القبح يسود من حوله فآلى على نفسه ليشنن حربا صليبية على أداة القبح ، أعنى الآلة ، وعلى خطيئة القبح ، أعنى الـكسل الرتيب . فأخذ ينادى بالعودة إلى حياة الصانع المستقل ، العامل الفنان . ورغم الاجهاد فى العمل ورغم هجمات الحمى ونوبات الجنون ظل رسكن يدعو إلى رسالته حتى لفظ أنفاسه . ولا تمتاز آثاره بأصالة الفكر فحسب ، بل بروعة الأسلوب أيضاً ، فقد كان لأسلوبه نبرة خطابية آسرة ، وكانت كتابة زاخرة بالاستعارات على طريقة التوراة . إلا أن هذه الروعة فى الأسلوب تجرى على غرار واحد ، كما أن آراءه برغم ما كان يعمد إليه من ترقيم معقد ، تفتقر إلى زيادة فى النظام وفضل من الترتيب .

وطالما وضع الناس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١) فى منزلة رسكن أو قريبا منها ، وعدوه مفكراً كبيراً ، ولـكنى أرى أن شهرته هذه شهرة مسلوبة ، فمعظم قيمته ترجع إلى أنه صدى للفلاسفة الألمان . وكان يمثل دور النبي والدكتاتور . كان رجلا مقاتلا . كان لا يتكلم كلاما ، بل يصرخ صراخاً . وقد فرض نفسه بقوة شخصيته ، لا بقيمة آرائه .

كان يمجد العمل، ويسخه الاله العادل. كان يحتقر القانون، ويعبد الأبطال : وهؤلاء الأبطال هم : أودن ، محمد، دانتى ، شيكسبير، لوثر، نوكس،جونسون، روسو، بيرنز، كرومول، نابليون(« الأبطال وعبادة الأبطال »)وقد كتب كذلك كتاباً عن فريدريك الثانى .

وفى رأيى أن كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » يخوله الحق فى المجد والشهرة أكثر من كتابه الأساسى «Sartor Resartus» هذه القربة المملوءة بالنظريات الجرمانية . فهو فى كتابه عن الثورة الفرنسية يروى حوادث هذه الثورة فى كثير من الحماسة والقوة ، كأنه أحد أنبياء بنى اسرائيل ، ولئن كان يبيت فى هذا الكتاب ميولا خاصة ، ويخرج أحيانا عن الدقة التاريخية ، فما يشفع له أنه مدفوع بسيل عرم من العاطفة الجارفة . ونستطيع أن نقول بوجه عام : « إنه سيخلد كمؤرخ على هامش التاريخ » .

والى جانبه يقوم الكاتب الهادى «ما كولى» (١٨٠٠-١٨٥٩) الذى كان فى أول أمره قاضيا فى الهند، ثم شاعراً ، ثم مؤرخا وناقدا . وأضخم مؤلفاته هو « تاريخ انجلترا منذ تبوأ جاك الثانى العرش » وهو من عيون الآثار التى تكتب التاريخ بطريقة

التصوير ، فقد برع ما كولى الى أقصى حد فى تصوير الشخص أو العصر الذى يتحدث عنه حتى لكأنه يخطر أمامك حيا ، وذلك بفضل معرفته الكاملة بالأوساط الاجتماعية ، وقدرته العجيبة على التصوير والتلوين. ولا شك أنه كان يقع فى أخطاء تفصيلية ويبتعد عن جادة الحقائق التاريخية الجزئية . ولكن ليس لهذا من كبير قيمة ، فان الصورة التى رسمها لنا عن انجلترا فى عهد الاصلاح تقربنا من فهم الأمور والأشخاص أكثر من أى كتاب تاريخى دقيق، ولكننا لا نستطيع الا أن نأخذ عليه ميله الى الحكم على الأمور بمقياس الأخلاق ، واسرافه فى تمجيد وطنه ، وزهوه به الى حد التبجح .

اما « بحوثه النقدية » (ملتون ، بيكون ، اديسون ، جونسون ، الخ) فهى بحوث براقة ، لكنها سطحية. ولاشك انها تشحب إذا وضعت الى جانب بحوث ماثيو آرنولد (١٨٢٢ — ٨٨) . لقد حاول هذا الأستاذ إعادة النظر فى القيم المقررة، وكان يدعو إلى الهيلينية (الحرية الفكرية) ضد العبرية (الضغط الأخلاقى) ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى نهاية المطاف من تفكيره . ثم لقد كان ضحية المهنة : فقد كان لا بد لبحوثه ان تلقى محاضرات على الطلبة .

٢ — الروايه تحت لواء ديكنز

إن الرواية الفكتورية وليدة «قس ويكنيلد» أكثر مما هي وليدة «توم جونس»، وهي كثيرا ما تضحي بالحقيقة في سبيل نوع من العاطفية الكاذبة

هناك عدد كبير من النساء كتبن قصصاً طويلة تدور حول السر العائلي الذي يحول بين الزواج وبين شخصين متحابين. وكثير من هذه القصص جدير بالتقدير، ولا تستحق هذا الإهمال الذي تمنى به الآن كقصص مسز هنري وود (١٨١٤ — ٨٧)، وقصص ويدا (١٨٤٠ — ١٩٠٨)

ويعد تشارلز ديكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) المسئول الأكبر عن هذه المثالية العاطفية. لقد كان روائياً موهوباً ولكنه بدلا من أن يستخدم مواهبه في إرشاد الجماهير، مضى يستخدمها في ممالأة أذواقهم ومجاراة أهوائهم. فكان يبيعهم البضاعة الأدبية بيعا.. وكان بارعا براعة هائلة في الكتابة السريعة للصحف...

كل شيء في حياته كان ينبغي أن يؤدي به إلى الثورة، والتشاؤم. فقد عرف في طفولته كل أنواع الحرمان، وعاني

ضرورة العمل لاكتساب الرزق ، وذاق الأمرين من وحشية المعلمين ، وكانت بداياته فى الصحافة شاقة متعبة ، وكانت كروبه العاطفيه تتزايد يوما بعد يوم ، وكان فى تأزم مالى مستمر ، رغم رواج مؤلفاته ونجاح كتاباته فى الجمهور . لم تكن حياته حلوة ناعمة ، ومع ذلك لم يجرؤ قط أن ينظر إليها وجها لوجه ويجاهر بكل دمامتها . ذلك أنه كان يصبو دائما إلى مثل أعلى بورچوازى . فما كاد يستطيع أن يصل إلى ذلك حتى رأيته بورچوازيا يشفق على الفقراء والمساكين شفقة سيدة القصر التى تطل عليهم من فوق .

لا يزال كتابه الأول « پكويك » أكثر كتبه احتفاظا بالقراء ، وهو يصور لنا انجلترا القديمة ، ذات الفنادق والعربات ، تصويراً حيا ناطقا . ومستر « پكويك » الشخصية الرئيسية فى هذه الرواية هو شخص متحلل منحط أشبه بكرة القدم التى تركل بالجزمة هنا وهناك ، بدون أن يفقد كرويته الجسمية ولا مزاجه المرح . إنه تجسد هزلى لشخصية دون كيشوت ، مع فارق واحد ، هو أن دون كيشوت يسعى وراء المغامرات فى حين أن صاحبنا تسعى المغامرات وراءه .

والرواية الثانية من روايات ديكنز هى « أوليفر تويست »

وهى تحتوى على أوصاف قوية لحياة الطبقات المنحطة . .

وليس بين آثار ديكنز أثر لايحتوى على صفحات رائعة من الطراز الأول، وعنصر الترجمة الذاتية فى «ديفيد كوپرفيلد» يضفى على هذه الرواية مسحة قوية من الصدق والاخلاص تنفد الى القلب وتؤثر فى النفس تأثيراً عميقا. وقل أن تقع على هذه النغمة الصادقة فى غير «ديفيد كوپرفيلد»، ولديكنز أقاصيص كتبها احتفالا بعيد الميلاد وهى حكايات جميلة تستحق ما أصابته من شهرة ذائعة. فأقصوصة «أغنية عيد الميلاد» حكاية مدهشة، ولكن شريطة ألا تقرأها على أنها حكاية أخلاقية كتبت للأطفال، بل على أنها وصف واقعى لحلم مضطرب بعد سوء هضم؛ وتحتوى أقصوصة «قرع الأجراس» على أوصاف رائعة لهبوب الريح، كما تحتوى أقصوصة «صرصور المدخنة» على صفحات جميلة فى وصف النار وتحضير الشاى. ثم لقد برع ديكنز فى وصف الاحتضار إلى أعظم حد، فما أكثر ما أسال موت بول دومبى (فى «دومبى وابنه») وموت نل الصغيرة (فى «مخزن العاديات») من دموع سخان . وسيظل ديكنز فى نظر كثير من قرائه أكبر الروائيين الذين وصفوا الطفولة البائسة .

ولـكنه متى خرج عن نطاق الوصف الحي الملون ، وأراد أن يتناول موضوعا تاريخياً أو اجتماعيا أصبح لا يطاق . فـكتابه « قصة مدينتين » الذى كتبه بتأثير كارليل هو صورة مشوهة للثورة الفرنسية يمكن يتسلى بقراءتها البوابون .

وقد امتدح بعضهم فيه روح النكتة والحماسة للإصلاح الاجتماعى ، وفى رأيى أن النكتة عنده كانت فظة عامية بقدر ما كانت عند اديسون لطيفة مرهفة . أما فيما يتصل بآرائه الاجتماعية فقد كان محافظا إلى حد بعيد ، فتراه لا يخفى عدم اطمئنانه إلى الديمقراطية . ولئن وصف البؤس فقد كان مؤمنا بالإحسان الفردى ، فلم يفكر فى القضاء على البؤس قضاء حاسماً .

والحق أنه بانصرافه إلى كتابة الروايات العاطفية كأن يسير فى غير الطريق التى خلق لها . وكان يعرف هو نفسه ذلك ، فإن عبقريته ، وحياته ، وكل شيء ، كانت تحدوه إلى كتابة مسرحيات .

وكان من شأن الصيت الذائع الذى أصابه والمجد العظيم الذى حصله أن أفل نجم منافسيه بجانب نجمه .

أما دزرائيلى (١٨٠٤ — ٨١) فإنه مدين بمنزلته عند

الأجيال التالية إلى قوة شخصيته، وعظمة شأنه السياسى ، أكثر مما هو مدين بها إلى قيمة مؤلفاته . وقد عرض إنجيل حزب إنجلترا الفتاة (التضامن ، قوة السلطة المركزية ، التطلع إلى الشرق) فى ثلاث روايات هى : « كننجزبى » و « سيبل » «وتانكرد». وفى رأيى أن دزرائيلى يشبه ديكنز فى أن كليهما يمتاز بروح نسوية . أما الرجل من هذه الطائفة من الروائيين فهو تشارلز كنجز لى (١٨١٩ — ٨٥) وهو اشتراكى مسيحى تعاونى ظل يصرخ طوال حياته « العقل السليم فى الجسم السليم » كان يدعو إلى « المسيحية العنيفة » وكان يسمى عند رعيته « بالقس المناضل » . وكان فكره من الاضطراب وكلامه من السهولة وعاطفته من القوة بحيث لا يستطيع أن يكتب آثاراً فنية باقية . إلا أن بين رواياته أربعاً على الأقل تستحق الاحترام : « ألتون لوك » وهى صرخة ضد الظلم الاجتماعى والتفاؤل السعيد الذى ركن إليه البورجوازيون الفكتوريون — ثم « هيپاسيا » ، وهى تاريخ للاسكندرية تحت سيطرة سان سيريل واستنكار للمسيحية الحربية عند الاساقفة الأول — ثم «هيا إلى الغرب» وهى تصوير حى لكبار المغامرين الإليزابثيين — وأخيراً « أطفال المياه »

وهى قصة للأطفال ، أشبه بحلم مضطرب من أحلام أستاذ للأخلاق ، نام بعد عشاء ثقيل وأخذ يحلم بالماء .. بكثير من الماء . . .

وبين الروائيات أيضاً ، هناك من يمتزن بروح نسوية وهناك من يمتزن بروح رجوليه ، أما مسز جاسكل فهى امرأة إلى أبعد حد . هى زوجة قس من مانشستر ، توفرت على ملاحظة مبائس العمال فى المدينة السوداء ، فوصفتها وصفا رائعاً فى رواية أولى بعنوان «مارى بارتون». ولكنها برعت بوجه خاص فى روايات الحياة الريفية والحياة العائلية .

وأعظم مؤلفاتها رواية «كرانفورد» وفيها تصف آلاف العواطف والاضطرابات السخيفة فى المدينة الصغيرة .

وهناك أخوات ثلاث، هن الأخوات برونتى، يعد ظهورهن أعجوبة من العجائب ، والكبريان منهما أنبغ من الثالثة إذ ليست الثالثة إلا صورة شاحبة عن الأخريين. وقد نشأن فى وسط تلك الأراضى البور فى يوركشير ، من أب تافه ، كان قسا ، وترمل ، ثم أصيب بعمى البصر، بعد أن أصيب بعمى البصيرة. لم يفهم يوما أن العبقرية كانت تحمل على جناحيها أبناءه . على أنه أدرك أن ابنه پاتريك يحمل بعض المواهب التى تؤهله

لأن يكون رساما، فأرسله لدراسة الرسم إلى الأكاديمية الملكية. وإنك لتحس فى هذه الصور الخرقاء البدائية التى خلفها باتريك أنك أمام شخص من أصحاب الرؤى العظيمة . إلا أن حياة الفحش والدعارة قد أستولت عليه ، فأدمن على تعاطى الخمر ، ثم على تعاطى الحشيش ، وأختل عقله ، فعاش عند أهله سنين محمومة ، كانت أخواته خلالها يسهرن على راحته ويعنين بصحته : كن ينتظرنه إلى ساعة متأخرة من الليل ، حتى إذا أقبل جعل يقص لهن حكايات حبه وكرهه . وبدخوله كانت تدخل إلى بيت القس الشياطين التى تلبست أخواته .

أما شارلوت برونتى (١٨١٦ — ٥٥) فهى أقواهن وأكثرهن توازناً ، وأنبغهن فى ميدان الأدب ، وهى وحدها التى أصابت نجاحاً عظيما . وقد قصت فى رواياتها تاريخ سنوات طفولتها الفظيعة التى قضتها فى مدرسة خيرية يديرها البرد والجوع — ودراستها الثانوية فى بروكسل حيث اطلعت على الأوساط الأوربية ولاحظت حياتها ساخرة — وحبها لأستاذها م . هيجر ، الذى كتبت إليه رسائل حزينة باكية فكان يستعمل هذه الرسائل فى كتابة عناوين الحذائين . وقد قصت كذلك تاريخ النزاعات الصناعية وثورات يوركشير (چين إير ، المدينة الصغيرة ، الأستاذ ، شيرلى) ولا شك أن

عنصر الترجمة الذاتية في رواياتها قد بلغ الأوج في بابه .



شارلوت برونتي ١٨١٦ — ١٨٥٥

وأحسن كتبها هو كتابا الأول « چين إير » ، وهو أقرب رواياتها إلى شخصها : وفي رأيي أن ثلثيه الأولين حيث تحدثنا عن مدرسة لوود وبدايات المعلمة الشابة ، يوازى بل يفوق ديكنز ، ولكن تأثير قراءاتها للروايات القائمة يظهر في الثلث الباقي ظهوراً واضحاً ، فتحدثنا عن حريق يحدث في الوقت المناسب ليصلح كل شيء ، ثم تنتهي الأمور على

أحسن حال ، خلافاً لما يقتضيه سياق المعقول ، (فتتزوج المعلمة أستاذها الذى تحبه والذى أصيب بالعمى) .

والكتاب الوحيد الذى ألفته إميلى برونتى (١٨١٨ — ١٨٤٨) هو « مرتفعات وذرنج » ، وهى رواية عنيفة مثيرة نستشف من ورائها شخصية مؤلفتها الغريبة ، العذراء المتوحشة ، التى كانت تشعر نحو الأرض والحياة بعاطفة حيوانية ؛ لقد كانت أكبر داعية إلى ديانة وثنية



إميلى برونتى ١٨١٨ — ١٧٤٨

تقدس القوى الطبيعية البدائية . وقد قالت فى إحدى قصائدها « حاشا أن تكون روحى روحاً جبانة » . وبدلا من أن تموت ميتة مسيحية فقد قاومت الموت مقاومة الوحوش ، وأبت أن تلزم فراشها وهى مريضة . ولم تستطع القوة الطبيعية الغاشمة أن تحصل على فريستها إلا بعد ساعات طويلة من الكفاح والنضال .

بطل هذه الرواية يسمى هثكليف ، وهو أكثر بيرونية من أبطال بيرون . طفل لقيط يسيئون معاملته ، ويقع فى حب كاترين ابنة حاميه ، والفتاة عنيفة وحشية كصاحبنا ، فتبادله حباً بحب ، ولكنها تشعر باستحالة زواجهما فترضى بالزواج من ابن ملاك مجاور . . . وعندئذ يختفى هثكليف فى غياهب العاصفة والليل . . .

وحين يعود من لجج الجحيم ، غنيا ، قويا ، يؤالى على نفسه ليحطمن ويعذبن كل من أبعدوا عنه كاترين . فيصبح صاحب الأرض التى كان خادماً فيها . وتهب عاصفة الموت ، ساخطة ، غاضبة ، تأتى على الأخضر واليابس ، وحتى كاترين تموت وهى تلد . . ولكنه ذكرها فى الرواية لا ينقطع بموتها ،

بل يزداد، فان شبحها لا يفارق خيال هثكليف ، وإن لم يحوله عن فكرة الانتقام .

إن هذه الرواية الغريبة ، التى تعمل فيها الوحشية إلى أقصى وأقسى حدودها ، فيحطم القوى الضعيف دون ما شفقة أو رحمة ، إن هذه الرواية هى رغم كل شىء من تأليف امرأة. لم يدر بخلد هثكليف فى أية لحظة من الحظات ، أن يعمد إلى الإغراء أو الخطف . إن هذا الانسان الشيطان يحرم رغم كل شىء ذلك النظام المقدس الزواج ، إنها رواية حب جنونى ليس فيه أثر للجنس. ولكن هذا الانفعال القوى الذى تحسه أثناء القراءة ينسيك فقدان الخبرة لدى المؤلفة ، وينسيك غموض الفصول الأولى ، وغيوب التسلسل القصصى . إن هثكليف وكاترين يقولان كلاما مستحيلا ولكنك تسمع فى هذا الكلام صراخ القلب .

وليس هناك فقرة واحدة موقوفة على الوصف لكنك ترى المشهد الذى تدور فيه الحوادث أظهر ما يكون وأوضح ما يكون . ليس فى العالم كتاب تسلط عليه الشيطان كما تسلط على هذا الكتاب .

٣ ـ الرواية تحت لواء ثاكرى

أما طائفة الروائيين الذين يمثلهم ثاكرى فإنهم يثورون على الرواية العاطفية الخيالية ، ويهدفون الى تصوير المجتمع والحياة تصويراً دقيقا بدون سابق خطة وبدون رغبة فى هز المشاعر ،



ثاكرى ١٨١١ — ١٨٦٣

ثم هم لا يريدون ان يصطدموا وجهاً لوجه بالأحكام السابقة السائدة فى الجمهور الفكتورى ، ولا أن يخرجوا عما ألفه من ضروب العفة والحياء .

لم يحظ ثا كرى يوما ما بجمهور من القراء يعادل جمهور ديكنز . ولن يحظى بذلك قط . فانه لم يكتب للعامة بل للادباء . ومما يؤسف له أن ضرورات حياته الشاقة كرسام ، وصحافى ، ومحاضر ، وكاريكاتورى ، اضطرته الى أن يشتت جهوده ويبعثر قواه وينشر أشياء كثيرة جداً .

وأحسن مؤلفاته كناقد كتابه « الفكاهيون الانجليز فى القرن الثامن عشر » أما ككاتب مقالات فأقل مجموعاته سوءاً هو كتاب « الإمعات » وهو فكاهى تارة جاد تارة اخرى ، ولكن لا تجمعه وحدة معينة ، لأن المؤلف يصل أخيراً إلى أن يشمل بكلمة الإمعية كل العيوب الانسانية . أما من حيث هو روائى فقيمته عظيمة بلا جدال ، ولكن الآراء فى رواياته على اختلاف ، وأهم رواياته « بندنيس » وهى دراسة جميلة ولكن طويلة جداً لشاب ساذج ، — ثم « سوق الغرور » وأجمل ما فيها شخصية بيكى شارب وهى تمثل الطمع النسوى الذى لا يردعه شىء : مغامرة ذكية نادرة لو أتيح لها خلق أقوم لارتفعت إلى أعلى طبقات السلم الاجتماعى ، — ثم « آل نيوكم » وهى تدل على رقة قلب ثا كرى ، فان وصفه لموت الكولونيل نيوكم ليستدر ببساطته من العبرات أكثر مما تفعل أوصاف ديكنز لاحتضارات أبطاله الطويلة .

ولكن المؤسف أن ثكرى قد انساق مع الذوق الفكتورى ، فجزا الأخيار خيراً والأشرار شراً ، على نحو قد لا يتفق مع سياق الممكن ولا نجد له نظيراً فى الواقع . كما أنه لا يمضى الى غايته قدما ، بل يتوقف فى الطريق ليبدى بعض الآراء الأخلاقية ويندفع فى استطرادات طويلة لا داعى لها. غير أنه يدل فى كتبه على أنه خبير بنفس المرأة ، قادر على سبر أعماقها، اللهم الا حين يحاول أن يصف مخلوقات فاضلة،فشخصياته عندئذ أشبه بلعب وردية شقر ، (كشخصية إميليا فى رواية « سوق الغرور ») .

واحدة فقط من رواياته هى فى رأيى من الماس النقى الصرف أعنى «هنرى إزموند». إنها صورة جامعة كاملة للغة القرن الثامن عشر ، بل انها انبعاث كامل لعصر الملكة آن . إن ثكرى يحب الألوان المتوسطة التى ليست بالواضحة ولا بالقاتمة، وما من إطار تاريخى كان يمكن أن يلائمه اكثر من هذا العصر . والأهمية السيكولوجية فى الكتاب هى ذلك التطور البطىء الذى عانته ليدى كاسلوود . إنها تشعر أولا بالعطف والشفقة نحو ابن عمها اليتيم الصغير هنرى إزموند، ثم تترمل . فاذا هى تنشد فيه عونا لها وحاميا ، ثم هى تحبه وتصبح منافسا لابنتها بياتريس

المتكبرة الباردة . . . ثم ينتهى بها الأمر أن تتزوج هنرى ، فتوفر له الهدوء ، وتمحضه حب الزوجة وحنان الأم . ما أظن أحداً من الكتاب استطاع ان يرسم لنا صورة للحبيبة الأم تضارع هذه الصورة .



جورج إليوت ١٨١٩ — ١٨٨٠

وقريبا من ثكرى تقف چورچ إليوت (مارى آن إيفنز) وهى مفكرة حرة معجبة بدارون ، وقد شاع فى الرأى العام أنها اتخذت من الصحافى لويس الذى هجر امرأته خليلا ، وقد ساعدها لويس هذا على الاضطلاع برسالتها الروائية ، وكفاها

مئونة الاهتمام بالجانب التجارى من الموضوع .

ولقد قضت أيام طفولتها وشبابها فيما حول كوفنترى فأتاح لها ذلك أن تفكر طويلا فى مبائس الحياة الريفية وتفاهاتها .
وأول كتاب ألفته هو «مشاهد من حياة الاكليروس» وهو مجموعة لوحات قصيرة ، تمتاز بالواقعية القاسية ، ولا تزال تغرى بقراءاتها كثيراً من الناس ، ولا سيما أولئك الذين لا يخشون مشاهد الموت والمآتم. وأول كتاب طويل كتبه هو «آدم بيد» والحق أن فيه فصولا رائعة تتسنم ذروة الأدب ، مثل إغواء الشاب الفنى للفتاة الجميلة الرائعة هتى ؛ ثم سفر الفتاة البائسة فى غير جدوى ، للحاق بحبيبها ، ثم قتلها لابنها ، ثم محاكمتها والحكم عليها ، ثم تدخل الواعظة الشابة دينا التى تعد الخاطئة البائسة للموت . غير أنى أتساءل لماذا عمدت جورج إليوت إلى مراعاة الذوق الفكتورى ، بإدخالها فى آخر لحظة عنصراً ميلودراميا هو تخفيف العقاب بمساعى الشاب الذى أغواها وأخذ يحطم الندم ؟ ولماذا تحرص كل هذا الحرص على أن تكون هتى جميلة جداً ؟ لماذا تعنى قبل كل شىء لشخصيات من الرجال فى حين أنها بعيدة كل البعد عن عقلية الرجال ؟ ثم لماذا تريد أن تعظ ؟ ولست أدعى أن وعظها الأخلاقى

ليس وعظا رفيعا : انها تبين ان الألم وحده هو الذى يسمو بالنفس الانسانية وأن الخطيئة التى يرتكبها فرد تقع على كاهل عدة أفراد أبرياء . ولكنى أرى أن عيبها الأكبر هو أنها تعرض رأيها بصراحة بدلا من ان تدعه يتسلل إلى القارىء على مهل ، بدون ان يحس . . .

ولا شك ان أعظم مؤلفاتها روايتها « الطاحونة على الفلس» او القسم الأول من هذه الرواية على الأقل ، حيث تحدثنا عن طفولتها فى شخصية ماجى تلفر . فإنه لمن النادر أن تجد دراسات سيكولوچية عن طفولة البنات تضارع هذه الدراسة عمقا وجمالا .ومن رواياتها « سيلاس مارنر » وهى تحتوى على صفحات جميلة تصور حب الطفل .

وهناك عدد كبير من المؤلفين ممن هم دون چورج إليوت قيمة ، وان كانت اتجاهاتهم واقعية هم أيضا ، نذكر منهم ترولوب (١٨١٥ — ٨٢)، وهو موظف ، منظم ، مبالغ فى التدقيق ، كان عاقلا فاقتصر على وصف الأشياء التى يعرفها معرفة تامة . وقيمته فى نظر الناس تزداد يوما بعد يوم . وهناك أشخاص آخرون لا يستحقون الابقاء جزئيا . فنحن لا نقرأ الآن من مؤلفات « بلور ليتون » (١٨٠٣ — ٧٣) إلا « أيام پومپئ

الأخيرة ،وذلك لموضوعها لا لشيء آخر ، أما سائر رواياته فقد طواها النسيان. وكذلك كان مصير تشارلز ريد ، فقد أصبح الناس لا يذكرون له الا كتابا وحيداً ، هو رواية تاريخية بعنوان «الدير والمنزل». وأخيراً لا بد ان نذكر بالخير صديق ديكنز ، ويلكى كولنز (١٨٢٤ – ٨٩) الذى كتب أول رواية بوليسية جديرة بهذا الاسم ،وفى رأيي انه لم يكتب أحد بعدها رواية أبرع منها ، وان كتبوا روايات أقصر وأدنى الى الايجاز

٤ — الشعر الفكتورى

سيدا الشعر الفكتورى هما تينسون ، وبراونتج . ويختلف كل منهما عن الآخر أشد ما يمكن ان يكون الاختلاف بين شاعرين ، فى الطبع ، والميول ، والآثار .

أما تينسون (١٨٠٩ — ٩٢) فهو رومانطيق معتدل ، حاول ألا يجرح أحداً قط .وله من شعوره الموسيقى ما يجعله أهلا للخلود .فأسلوبه كامل لا يمكن ان يؤخذ عليه نوع من انواع النقص . بل إنه لمسرف فى الكمال . ورغم ان شعره لا يهز قلبك فإنك تصفق له . فكذلك الحال فى أحسن قصائد شبابه أعنى «آكلة اللوتوس» : أغنية ماتزال تضوى وترق. ثم تضوى

وترق ، فى أفواه أناس أكلوا زهرة اللوتوس فأصبحوا لا يصبون الى غير الراحة.

أما فكر شاعرنا فهو فكر سطحى . إنه بريطانى بأضيق معانى هذه الكلمة ، سواء حين يمضى واعظا داعيا الى العمل فى قصيدته « يوليس » وإلى الطهارة فى « قصائد الملك » ، أو حين يتغنى بالنبل الانسانى فى قصيدته « إنوك آردن » وهى اكذب وأبلد قصائده القصصية. اما حين يدع هذه النغمة فانه يبدو شيقا ولا يخلو من فراهة وخبث ، كما هو الحال فى قصيدته « الأميرة » وهى ملحمة لطيفة يتخللها تحامل على المرأة لاذع . على ان شاعرنا يعنى بالموسيقى والاوزان عناية عظيمة تكاد تخفى سطحيته ، واذا قرأنا قصيدته « مود » وهى ترديد طويل لافكار إنسان نصف مجنون يصرخ تارة صرخات الالم ، ويرق تارة أخرى لذكرى غراميات ماضية ، اقول اذا قرأنا هذه القصيدة رأينا فقرات بلغت ذروة الجمال الموسيقى إلى جانب فقرات طويلة مملة تضرب على وتر التوبة والدين . على انه لا يخلو من العمق من حين الى حين ، لكننا نراه فى هذه الحالة رتيبا مضطربا ، كما هو الحال فى قصيدته « فى الذكرى » وهى نجوى طويلة تصف لنا الازمة التى احدثها فى نفسه موت صديقه

هلام ، فتتعب القارىء بتفكك صبواتها وبعودة مترددة إلى تناوب الشك واليأس . . . ولـكنه يعرف كيف ينحت الشعر وكيف يصقله .

وتعد «قصائد الملك» أضخم آثاره ، وقد نظمها على مهل ، وهى مجموعة أساطير أرثورية يبدؤها شاعرنا بالتغنى بجمال الجسد . فأحب أبطاله إلى نفسه هنا هى جنيفر التى شفاهها من نور ، ولانسيلوت التى تجر ذيول ثيابها الزاهية من بين سنابل القمح . ولـكن الاعتبارات الاخلاقية ما تلبث أن تجتاحه . وهو يظل يحلق فى ذرى الشعر الحق مادام يقص رؤيا القديس جرال ، حتى إذا أخذ يمجد فكرة الصفوة التى يقودها زعيم يمتاز بقيمة أخلاقية رفيعة ، هبط وأسف ، ولم يدرك حق الإدراك ما فى حكايات « المائدة المستديرة » من قيمة انسانية مؤثرة

سيظل تنيسون الشاعر المفضل عند من يحبون الشعر السهل والموسيقى السهلة . وله مقطوعات قصيرة (مثل «الساقية» وغيرها) ، إذا ضممتها إلى بعض المختارات المستخرجة من «القصائد» ومن قصيدة « فى الذكرى » أمكنك ان تؤلف منها ديواناً مثاليا يقرؤه الرجل الانجليزى المتوسط .

ولا كذلك روبرت براونتج (١٨١٢-٩٨) فهو بطل طائفة محدودة من المعجبين.

هو من عائلة بورجوازية ميسورة الحال ، لم يعرف هموم المال ، واستطاع أن يعيش مستقلا ، وأن يقف وقته وجهده على الدراسة والشعر. وقدسافر كثيرا .حتى لقد كانت ايطاليا وطنا ثانيا له

والحادث العاطفي الوحيد في حياته هو زواجه بالشاعرة الذائعة الصيت اليزابث باريت (١٨٠٦ - ٦٠) وكانت صحتها مرهفة جدا،فعاشت معتكفة . وقد استحقت الخلود بقصيدة فلسفية طويلة بعنوان « الفجر » وبعض القصائد الغنائيه التي تحيي جو القرون الوسطى .هذا إلى سلسلةرائعة من الأناشيد الغراميه وبعض مقطوعات المناسبات التي تحس فيها روح الاستياء . فمن هذه المقطوعات مقطوعة بعنوان «صراخ الاطفال » تستنكر تشغيل الصبية وترجع أصداء القصيدة المشهورة « أغنية القميص » لتوماس هود (١٧٩٠ - ١٨٤٥)

وعلى أن شاعرنا براونتج كان سعيدا في حياته ، سعيدا في حبه ، فقد ظلت نفسه قلقة معذبة. ويظهر ان نظم قصائده كان عنده مهمة شاقة صعبة . لقد اراد أن يكون تركيبياً

فى لغة تحليلية ، أراد أن يكتب الانجليزية كأنها اللاتينية . ومن هنا نشأ الغموض الذى يلاحظ فى قصائده . ولكن الجهد كان خليقاً بأن ينجح ، فاستطاع براونتج فى لحظاته السعيدة ان يخلق لغة خاصة به ، وبرهن على أصالة عظيمة فى التعبير عن أفكار فلسفية أو دينية ليست بحد ذاتها أصيلة ولا عميقة.

كثيرا مايعوزه الوحى والإلهام الشعرى . ولولعه بالدقة وحبه للتفصيلات الصغيرة المألوفة يسوء قريضه ، حتى ليصبح أشبه بالنثر . أما النكتة عنده فهى فظة غليظة ، وأنى لمثله أن يضحك أو يبتسم ! . . إنه دائم التوتر والضيق والبرم . وهو لايوفق إلى شىء من وثبات شيللى الصوفية إلا حين يتحدث عن الحب والموسيقى .

ويجب أن نقسم آثاره إلى أقسام : بحوث مفككة لاتكاد تقرأ ؛ — ثم مجموعات أقرب إلى النفس مثل « رجال ونساء » ، و « أشخاص الدرامة » ولاسيما تلك المحاورات الداخلية الدرامية التى تصور لنا شخصا يخرج من أعماق التاريخ ليعرض لنا نوع حياته وماضيه وآماله ؛ — ثم آثاره الخالدة التى تصور بعض أحلام اليقظة ، وهى تتميز بنوع من الرمزية الغامضة ، ولكنها توحى بصور حية مثل « الطفل

رولاند يأتى إلى البرج المظلم » . وهناك أخيرا مقاطع من « پپا » و « فيفينى » هى من الشعر الحق الذى يأسر النفس وينهض بها إلى سماء عالية .

تحت هاتين القمتين ، الضاحكة أولاهما والقاتمة ثانيتهما ، هناك سلسلة من الهضاب نذكر منها الرومانطيقيين المتأخرين بيدز (١٨٠٣ — ٤٩) وهو شاعر متشرد نشر درامة مقابرية على طريقه وبستر ، مشوبة بشىء من السخرية على طريقة مفستوفيلس ، والثانى دارلى ، وهو شاعر مريض بأعصابه نشر قصائد تبلغ فيها الحماسة حد الجنون . وهناك أيضاً شاعر يدعى فتزجيرالد اقتبس رباعيات عمر الخيام (١٨٥٩) واستطاع أن ينقل إلينا ذلك الجو اللذيذ من التشاؤم الشرقى حتى أصبحت ترجمته أو قل اقتباسه كلاسيكيا

ولنذكر كذلك الشاعر الصوفى كوڤنترى پاتمور (١٨٢٣ — ٩٦) الذى كان لارتداده إلى الكاثوليكية دوى كبير ، وقد تغنى بعاطفة الحب الزوجى على الطريقة المسيحية . ولا بد أن نذكر أيضاً ماثيو آرنولد الذى كان شاعرا وناقدا ، ولشعره ونقده كليهما قيمة عظيمة . وكان متأثرا بكيتس ، فكان يحب الجمال القديم ، إلا أن العفة الڤكتورية قضت عليه بأن

يكبت نزواته ويضبط ميوله . وما أكثر ماترى فى آثاره من تزمت أكاديمى . إلا أنك تحس وراء هذه الصفحة الهادئة من شخصيته المتأنقة وجود روح قلقة معذبة ، وهذا مايتجلى خاصة فى « إضراب دوفر » وهو أحسن آثاره ويمكن أن يتخذ آرنولد مثالا مؤلما للشاعر الذى حاول أن يكبت طبيعته الشعرية .

وأخيراً ، إلى جانب هذه السلسلة الرئيسية من الجبال، هناك كتلة مستقلة ذات جمال خاص ، تتألف من طائفة الشعراء الذين يدينون بمذهب « ماقبل رافائيل » . إنهم مصورون أرادوا أن يعودوا إلى البداة الطليان ليستأنفوا واقعيتهم الدقيقة التى تهمل المجموع فى سبيل دقة التفاصيل . إنهم مصورون فى الشعر كما فى التصوير . زعيم هذه المدرسة هو دانتى جبريل روزيتى (١٨٢٨ — ٨٢) وهو إبن إيطالى مبعــــد أقام فى انجلترا وظل يحن حنينا قوياً إلى بلد أهله . وهو تلميذ كيتس ، وقد كتب عنه دراسة عميقة مطولة . وآثاره الأساسية مجموعة من السونيتات نشرها فى كتاب بعنوان « منزل الحياة » ، وفيها يتغنى بالحب الشهوانى والصوفى ويمجد لذة الجسد والروح . ولكن قراءة هذه الأناشيد ليست بالأمر السهل ، لأن التعبير غامض والموسيقى أخاذة

إلى درجة أن كل سونيتة أشبه بنشيد سحرى لا ينكشف معناه إلا بانتباه وتدقيق .

وقد عاش روزيتى فى أذهان الناس بمقطوعاته القصيرة الرائعة التى تحاول أن تعبر عما لا يعبر عنه . إن استخدامه الموفق للترديد فى قصيدته « الأخت هيلين » يجعلك تستشعر القلق وتحس توقع الشر المستطير والموت المحوم، كما أن هذه البساطة المقصودة وما يعمد إليه الشاعر من تقطيع الأوزان فى قصيدته « الآنسة المقربة » يجعل من هذه القصيدة رؤيا حقيقية للجنة : فكأنك «السعيدة» وقد مالت إلى الحاجز السماوى الذهبى ، وعلى ذراعيها ثلاث نبقات ، وفى شعرها سبع نجوم، وهى تسكب الدموع فى الفضاء بينما الملائكة يعبرون الهواء الساكن . إن روزيتى رجل من عباد الجمال يعيش فى العصر البورجوازى . إنه شهوانى من سكان الجنوب ينفى إلى الشمال حيث البرد والصقيع .

أما أخته كريستيلنا روزيتى (١٨٣٠ — ٩٤) فروحها روح دينية ، وقد آثرت حياة الزهد على سعادة الأرض ، وبالغت فى عقل وثباتها العاطفية ، فمجدت الحب الإلهى على حساب الحب الإنسانى . إلا أنها نظمت حكاية خيالية رائعة

على أوزان متنوعة سريعة بعنوان « سوق المسكرة » وهى من الخيال الذى يذكرنا بآربيل .

والانجليزى الوحيد من أبناء هـذه المدرسة هو وليم موريس (١٨٣٤ — ٩٦) ، وهو رجل فن وعمل ، وقد فاز بإعجاب الجماهير وحبها بفضل قصيـــدة بعنوان « أخبار من لا مكان » ، وفيها ينادى بالعودة إلى عهد الصناعة اليدوية الخلاقة للجمال .

غير أن قراء شعره أقل من قراء شعر روزيتى . وهو يسرف فى هذا الجو الخريفى وتلك الكآبة الفنية الغامضة ، وتلك النظرات التى تحاول أن ترى ما وراء العالم . ومن آثاره « الفردوس الاخضر » وهو عبارة عن أربع وعشرين أسطورة مقتبسة عن العصر القديم والقرون الوسطى . إلا أن خير آثاره سلسلة القصائد الارثورية (الدفاع عن چنيڤر ، قبر الملك آرثر . . الخ) وفيها حاول أن يرسم لنا صورة حية لوجه چنيڤر المؤثر .

جديدة بعنوان « اركثيوس » وسلاسل أخرى من القصائد والسونيتات أقل حدة من سلسلته الاولى ، وأكثر موسيقية منها ، وكتب كذلك أناشيد فى تحرير إيطاليا وقصائد أرثرية (تريستان اللاؤنى) « وحكاية بالن » وفيها نرى الحب يحترق احتراق شعلة ملتهبة : وكان يكتب بسرعة عجيبة فلما نعى إليه بودلير (كذبا) كتب على الفور قصيدة رثائية رائعة بعنوان « تحية ووداعا » .

وقد اعتدل مع السنين ، واستقر قريبا من لندن ، وعد شاعر زمانه ، واكتفى بعد ذلك بالتغنى بقوى الطبيعة ولا سيما البحر .

كان سوينبرن فى السياسة أرستقراطيا ثوريا ، وفى الفلسفة من عباد الجمال الحر ، وفى الشعر صورة عن شيلى ، ولكنها صورة دنيا . إنه آخر رومانطيق كبير . وهو يدين بشهرته لما توفر له من ثروة لفظية وموسيقية عظيمة . ولكن لهذه المزايا نفسها عيوبا . فهو يتعب القارىء إذ يلقى به فى غمرة من الموسيقى الصاخبة تفقد الالفاظ معناها ، حتى ليصبح شعره فى بعض الاحيان أصداء صوتية لا أكثر .

بين كافة آثاره الطويلة هناك أثر واحد فقط ، كامل فى

نوعه ، أعنى « آتلانت» الذى تسمع فيه ألحان الصيد الراقصة، وأصوات احتضار ملياجر المضناة . وله إلى جانب ذلك ، حين يستطيع أن يجد نفسه ويستسلم لإلهام اللحظة ، آثار باقيات مثل « ايتلوس » « ونشيد بلد الأحلام » و« حديقة مهجورة » و« الأشعة القوس قزحية » . ولئن كانت جرأته الجنسية تبدو لنا الآن باهتة فإن أوصافه (ولا سيما أوصاف البحر) ، وكذلك موسيقاه الراقصة تحتفظ إلى الآن بكامل قيمتها .

لقد كان سونبرن الشاعر الأخير الذى فاز بالإعجاب الشعبي وأثار حماسة الجماهير ، وبعده أفل نجم الشعر وراء الرواية وأصبح ترفا تنعم به الخاصة .

جيمس تومسون (١٨٣٤-٨٢): هو شاعر التشاؤم ، ترعرع فى مؤسسة خيرية ، وفقد خطيبته وهى صبية ، وسرعان ما ركبه موت حبيبته فى صورة من المس المرضى . وظل طول حياته ، فى كل قصائده ، يغنى الموت ، ويغنى أخاه الحب . فما قصيدته المنثورة « سيدة الألم » أو قصيدته التصويرية « سيدات الألم» أو قصيدته الحافلة بالخيالات والأشباح « أرق » إلا ترديد لكلمة : موت ، موت ، موت . ونرى هذا الباعث يعود فى قصيدة له ، رمزية طويلة ، تذكرنا بدانتى ، أعنى « مدينة

الليل الرهيب » : نحن هاهنا فى مدينة من الظلمات يطوف فيها أشباح وأحياء يتألمون لفقدان أوهامهم ويعـــبرون عن يأسهم ببسمات ساخرة أو بآهات ودموع ، فأما الذين يبكون فيدلهم الشاعر على نهر الانتحار حيث يلقون الموت ليناً الهيناً ، وأما الذين يتمردون فيدلهم الشاعر على تمثال الكآبة الضخم الذى يسيطر على المدينة ، ويعلمهم ديانة الصبر والاذعان والاستسلام . ليس هنـــاك ، حتى فى الأدب الالمانى ، حلم يفوق بفظاعته حلم مدينة الليل .

وهناك شاعر آخر يكاد يكون سميا لشاعرنا هذا هو فرنسيس تومبسون (١٨٥٩ - ١٩٠٧) : هو أكبر شاعر كاثوليكى فى الأدب الأنجليزى . عاش حياة بؤس وشقاء فى شوارع لندن ، يتسول وينام على الارصفة وفوق الجسور ، ويحاول أن ينسى آلامه بتعـاطى الأفيون . وقد أتاحت له تضحية مسز اليسماينل (١٨٥٠-١٩٢٣) هذه الشاعره المرهفة التى غنت امجاد الخلود أن يعرف شيئاً من الراحة والهدوء خلال بضع سنين . وأكبر آثاره قصيدة « مطاردة السماء » وهى تصف نفساً خاطئة يطاردها اللطف الإلهى وهى تعدو أمامه مذعورة إلى أن يدركها أخيرا ، فترتد إلى الإيمان . ويصل

الشاعر فى بعض أجزاء القصيدة إلى حد الجلال فوق الجمال . وحتى حين تكون الابيات مثقلة بالزخرفة ، فإن تومپسون يعرف كيف يجد الإيقاع الذى ينقل إليك ، إذا أنت استسلمت له ، رعشة الصلاة الصوفية .

وانا لنجد هذه الصوفية نفسها بعد ذلك عند كبار شعراء النهضة الإيرلاندية .

وزعيم هذه الطائفة من كبار الشعراء و . ب. ييتس (ولد



ييتس ١٧٦١ — ١٩٣٩

عام ١٨٦٥) . ورث القصائد الإيرلاندية التى تصور تلك المقاطعات البعيدة التى تجرى فيها السواقى على سرر من مرمر وفيروز ، وتكتسى أطيارها ريشا من ذهب . إن قراءته لبلاك وشيلي قد أيقظت فى روحه السلتية رؤى الأجداد : رؤى الجنيات ترقص على العشب الأخضر ، رؤى الأشـــباح البيضاء تتسلل ، أيام الشتاء ، على صمت ، فى الغصون الجرداء، رؤى الحيوانات التى أوبارها من أشعة الشمس وخيوط القمر تقتاد الصياد إلى قصور مسحورة ، رؤى عذارى البحر وبنات البحيرات ، اللائى يغنين جمال قصورهن البلورية أو يغنين حنينهن إلى الارض .

وعندئذ تغنى ييتس برجال بلده الأصلى ومناظره ، غنى سوق سليجو ،وجزر بحيرة إنيسفرى، والبجعات الوحشية فى لوكول . وحسبك أن تقرأ له هذه الأبيات حتى تحس بغلبة العنصر الإيرلندى فى شعره :

حين تصبحين عجوزا هزيلة شائبـــة
فتميلين برأسك إلى النار تستدفئين ، افتحى هذا الـكتاب
واقرئى ببطء . . وارخى لخيالك العنان . . وتذكرى
تذكرى النظرة الحلوة التى كانت لعينيك

وتذكرى ظلالها العميقة . . .
ما أكثر الرجال الذين أحبوا لحظات رشاقتك المرحة
ما أكثر الرجال الذين أحبوا جمالك ، كذبا أو صدقا
إن واحداً فقط أحب فيك روحك المغتربة
واحد فقط أحب أحزان وجهك المتغير

وكان ييتس يحب أن يوقظ فى الروح الإيرلاندية تعشق الجمال الماضى ،فكتب درامات غنائية للتمثيل،يظهرفيها تأثير مترلنك بوضوح ، منها « الكونتيس كاثلين » ، وهى تصور فلاحة إيرلاندية جلست وحيدة فى كوخها تدير طاحونة يدوية . والسكون يشمل الغرفة. وأشباح الأشجار تظهر وراء البلور المصفر ، والنار تحترق بهدوء حزين .وكل شىء يدل على أن مكروها سيقع . ويقع المكروه . إنهم يدخلون من الشباك متخفين فى زى تجار من الشرق أرسلهم سيدهم لشراء نفوس الفلاحات البائسات الجائعات . وتستسلم الكونتيس كاثلين ،وتبيع بنفسها ، تبيعها غالية ، لأنها نفس بيضاء نقية .. وبالثمن يستطيع الشعب أن ينتظر انتهاء المجاعة .....

وفى درامة « على شاطىء بيل » يخرج ييتس على المسرح البطلَ الاسطورى للملحمة الإيرلاندية ، كوتشولان الذى

لايغلب ، ذا المعطف الذى نسجته من خيوط البحر سبع نسوة من « بلاد ماتحت الموج » . كان ينبغى أن يكون هذا البطل سعيداً ، إلا أن ألماً خفياً كان يحز فى نفسه هو أنه ليس له ابن . وتختار إيرلاندة بطلها لمحاربة الغزاة . فيقتل فى أثناء المعركة شابا فارع القامة تحداه ، ثم يعلم أن ضحيته هى ابن له أنجبه من امرأة إيقوسية . فتنتابه نوبة من الجنون الصاخب ، فيندفع نحو أمواج البحر وقد استل لها سيفه . ولأول مرة يجد البطل ماهو أقوى منه .

وأما « دايدر » فهى حكاية بسيطة مستمدة من الاساطير الشعبية القومية ، تروى ما كان من أمر الملكة دايدر حين تركت عروسها الشيخ ، الملك كونشوبار ، فى يوم الزفاف ، ولاذت بالفرار لتلحق بحبيبها الشاب نيزى . ويمضى على فرارهما سبع سنوات ، يعودان بعدها إلى البلد لا يساورها شىء من ارتياب . ولكن كونشولار لم ينس الفضيحة ولاغفرها . وينصب شركه ، فيقعان فيه . فيقتل نيزى شر قتله وتنتحر دايدر فوق جثمان حبيبها .

وقد كان لشاعرنا مدرسة . وليس بين تلاميذه من يمكن إهماله . وأبرز هؤلاء التلاميذ چورج رسل (١٨٦٧) ، وهو

لا يدانيه فى الموسيقى الشعرية ولكن يفوقه عمقا . وأشعاره مغلقة ، على الرغم من بساطتها الظاهرة . ثم إنه متأثر بكتب الهند المقدسة . وهذا يجعل آثاره تفوز برضى المفكرين أكثر مما تفوز برضى جمهرة القراء . وهناك عدد كبير من شعراء الجيل الجديد أقرب منه إلى الفهم ، نذكر منهم سوماس أو سليفان (١٩١٢) ، وهو وثنى صوفى يخلق لنفسه فردوسا خاصا ينحبس فى حدوده ، ويسوده . إنه « ملاك الأحلام » يعشق الشفق ويهيم بجو الشتاء — ثم أوستان كلارك (ولد عام ١٨٩١) . وهو مؤلف ملحمة بعنوان « انتقام فِنْ » يتناول فيها ذلك الموضوع الخالد ، موضوع المرأة التى لا تريد أن تهرم — وأخيرا چيمس ستيفنس (ولد عام ١٨٨٢) ، وهو شاعر ثائر بل قل مستسلم ، يصب على الآله أقذع الشتائم وأمرها وأوقحها ثم يتحدث عن الجنيات حديثا مدهشاً فى غير أدب . أول ديوان له هو « معضيات » ، وهو يحتوى على مقطوعات « بذيئة » رائعة منها قصيدة تصور الله ، وقد كل من أعمال اللطف ، ينحنى من فوق السماء ليرى من أين تأتى تلك الصرخة الأليمة التى وصلت إلى أذنه .

« فوجد فى حفرة ، بالقرب من مدينة — امرأة بأعمال ، جاثمة ، جاثية إلى جانب طفل ميت : إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا — ما تم فقد تم » وعاد الله حزينا إلى سمائه التى من ذهب وعاج . وبيا هو يجلس — صعد إليه فجأة — من القاع الذى كانت تنتحب فيه المرأة — صوت الشيطان العميق يقول « يالك من إله مسكين ! »

بعد هذ الصوفية السلتية نقفز فجأة الى نزعةمادية سكسونية، يحمل لواءها كپلنج . (ولد عام ١٨٦٥) . إن كپلنج رسول النزعة الاستعمارية . ولد فى بومباى من أبوين انجليزيين ، وقضى طفولته فى الهند ، ودرس فى المتروپول ، وعاد إلى الهند صحافياً . وهو أول شاعر كبير من المستعمرات. يتغنى فى قصائده بالسلالة الانجليزية ، هذه السلالة القوية ، المصطفاة، المتفوقة، التى يجب عليها ان تحضر الشعوب الخاضعة لها بالرغم منها . ثم لا حقوق فردية . فقوانين الجماعة يجب أن تسحق الفرد . والنظام عسكرى أخلاقى دينى . إن كپلنج طبعة أخرى من كارليل مزيدة منقحة .

إن شعره يهز العضلات والأعصاب أكثر ما يمس القلب أو الفكر. إنه يؤثر كما يؤثر اوركستر نحاسى قوى . انه يتناول موضوعات أرضية مسفة ، ويعالجها بلغة من لغات السوقة . ولكن ، من هذه العامية نفسها يخرج نوع من الجلال المدهش

ففى « أغانى الجند » نقرأ مقطوعات تهز الخيال، وتستثير الحماسة. على أن هذه الحماسة وقتية، فسرعان ما يحتج العقل. والأغانى التى نقرؤها فى « البحار السبعة » و « الأمم الخمس » أرفع من تلك، ولا سيما البالاد الشعبية والأوصاف البحرية. ويضعف كپلنج فى بعض الأحيان فما يسمعك إلا ألفاظا فارغة مجلجلة. ويمكن ان نقول بوجه العموم انه ليس لآثار كپلنج الشعرية قيمة انسانية، وقد بلى أكثرها لهذا السبب خاصة. إن كپلنج أشبه بشاعر انجلوساكسونى لم يعرف الغزو النورماندى. وقد كتب فى الأيام الأخيرة قصائد لا تخلو من نبرة إنسانية. ولكن شعره اذا تخلص من وحشيته وسوقيته فقد ما يمتاز به من وثب. انه يحمل طابع « العهد القديم »، وقد ظلت روح « العهد الحديث » غريبة عنه. أما شهرته العالمية فهى تستند الى آثاره الروائية أكثر من استنادها الى دواوينه الشعرية.

ومثل هذا يقال عن توماس هاردى (١٨٤٠ — ١٩٢٨) الذى اشمأز فى أواخر حياته من الرواية فنظم بعض القصائد الغنائية، وتمتاز هذه القصائد بأنها مصقولة الى درجة الكمال، وفيها عرض تشاؤمه المر. فهو يرى أن الانسان عابر طريق، طريق كبير مظلم، يمشى الإنسان فيه وبيده مصباح، لكن النور ضئيل والظلمات كثيفة.

وبعد فلنتحدث قليلا عن شعراء الرعيل الأخير .

روبرت بروك : (١٨٨٧ — ١٩١٥) أكسبه موته البطولى فى



توماس هاردى ١٨٤٠ — ١٩٢٨

الدردنيل شهرة عظيمة لعل قصائده البارعة لا تكفى لتحصيلها ، — لاسيل أبركرومبي (ولد عام ١٨٨١) وريث دون ، وسونبرن ، يمتاز بقوة لفظية رائعة — ادموند بلوندن (ولد ١٨٩٦) : مثقف جدا ، قرأ كثيرا من الآثار النادرة حتى ليصعب عليه أن ينساها دائما فى شعره ، ولكنه أقام

فى اليابان مدة طويلة ، فأوحى اليه ذلك بكثير من الصور الفكرية الجديدة ، وفى رأيى أن القصائد التى ختم بها كتابه « أصوات الحرب الخافتة » تساهم ببساطتها فى جعل هذا الكتاب أجمل كتاب انجليزى فى الحرب .

وممن ينتسبون إلى مدرسة كپلنج :

الفريد نويس (ولد عام ١٨٨٠) : شعره بسيط ، يستطيع أن يتذوقه الجمهور . وقد تغنى بالمغامرة ، وأشاد بالمغامرين ـ چون مانسفيلد (ولد عام ١٨٧٤) لا يقل عن زعيمه قوة فى تصويره للبحر . ويفوقه شعوراً بالسر واللانهاية . وعبقريته متنوعة جدا . حتى يمكن أن تعد قصيدته « رينارد الثعلب » ملحمة للريف الانجليزى جديرة بتشوسر .

وبين شعراء الأناشيد والأحلام يلمع والتر دى لامار . وهو أكبر شعراء الطفولة على الإطلاق ، يعرف كيف يمتلىء دهشاً ، وكيف يقلب العالم الواقعى إلى عالم من الجن والخيال ، فتأتيك حكايته من غياهب اللانهاية المظلمة .

وقريبا منه يقيم چون فريمان (١٨٨٠-١٩٢٩) وقد برع فى تصوير الشفق والاشجار والأزهار ، واستحضار ضروب القلق والرعب المفاجىء الذى يسببه اقتراب العاصفة

أو اقتراب الليل . ويذكرنا شعره العارى الموسيقى بسوتبرن أكثر مما يذكرنا بشيلى .

وبين الشعراء الرقاق ورسل الدعوة إلى الفن للفن يبرز روبرت بروجز (٨٤٤ - ١٩٤٠) : شاعر نضر يذكرنا بتشوسر ، فما أروعه حين يصغى إلى الأصوات الخفية التى تولدها شمس الصيف بين أوراق الأشجار ، — ثم ولفرد جبسون (ولد عام ١٨٧٨) وهو حين يدع الإنسان ويصف الطبيعة يزداد توفيقه زيادة عظيمة .

وأخيراً نستطيع أن نذكر بين شعراء « الانحطاط » و«نظرية المستقبل» ستول (الإخوة والأخت) الذين يقرؤهم كثير ويفهمهم قليل . ثم هربرت ريد (ديوان شعر) : لكأنى به يفكر نثراً . وهو يعبر عن فكره باستعارات غامضة تتلاحق فى أبيات حرة إلى أقصى حدود الحرية ـ وأخيراً ت. س. إليوت (قصائد ، ١٩٠٩-١٩٢٥) : أمريكى الأصل يحاول أن يظهر التناقض الدائم بين المثل الأعلى والواقع ، وينتهى فى الغالب إلى صور غريبة : « إن القمر يسطع فوق مسز پورتر وابنتها — إنهما تغسلان أقدامهما فى الماء الغازى . »

٢ — البعث المسرحى

كان العصر الفكتورى فقيراً غاية الفقر فى التأليف الدرامى ، ذلك أن المسرح من شأنه أن يعالج موضوعات جريئة ، فى حين أن الحشمة كانت جاثمة على كاهل العصر الفكتورى . وقد حصل رد فعل لهـــذا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فرأينا الدرامة تزدهر ازدهارا رائعا ، إن لم يصح قياسه بالازدهار الدرامى فى عصر اليزابث ، فهو يذكر بازدهار عهد الاصلاح وعهد الملكة آن .

واشهر مؤلفى الدرامة فى هـذه الفترة أوسكار وايلد (١٨٥٦–١٩٠٠) وهو خير مثال للأديب المستهتر الفاجر الذى يدعو إلى التحلل من الاخلاق . إلا أن شيئين يشفعان له : أنه فنان من الطراز الاول فى النثر والشعر على السواء وأنه كفر عن آثامه بآلام قاسية . فقـــد أدت به أخلاقه المنافية للطبيعة أن يحكم عليه حكما لا رحمة فيه بالسجن والاشغال الشاقة مدة سنتين . وحتى آخر حياته ظل فى رأى المتشدقين بالفضيلة من أهل جزيرته الكائن المرذول الذى لا يجوز أن يلفظ اسمه . وقد فقد فى السجن ما تبقى له من

أخلاق . فلما خرج منه غرق فى حمـــأة الفسق والفجور ومعاقرة الخمرة حتى ذقنه ، وراح يضرب فى شوارع باريس على غير هـدى ، مستخدماً ما تبقى له من ذكاء فى « النصب » على أصدقائه واستلاب بعض المـال الذى سرعان ما كان يبدده .

وقد خلف لنا حكايات خيالية ، على أعظم جانب من فتنة الأسلوب وكمال الفن ؛ — وقصيدة فيها بساطة مقصودة ، أعنى « بالاد سجن القراءة » وهى متكلفة من ناحية الشكل ولكنها صرخات من أعماق القلب — ؛ ثم مرافعة طويلة بعنوان « من الأعماق » فى تفككها نفسه ما يهز القارىء ويحرك مشاعره . — وروايتين خالدتين « جريمة لورد آرثر سفيل » و « صورة دوريان جراى » التى تعبر عن نزعته الجمالية ورغبته فى التمتع والتلذذ ؛ — ثم عدة ملاه ذات نضارة وفتوة لا تضارع .

وبفضل مسرحياته إنمـا فرض وايلد نفسه على الجماهير . وبفضل مسرحياته إنما تزداد شهرته وستزداد مع تعاقب الحقب . من مسرحياته درامة رمزية غريبة بعنوان « سالومى » تحاول أن تنقل إلينا رعشة شهوانية فظيعة ، ثم مسرحيات خفيفة تمتاز بالمفـارقة وتتصف بالبعـد عن المعقول ، وفيها سخر مر ،

ولكن لئن أعوزها الغنى النفسى فان صياغتها الفنية قد بلغت حد الكمال ، كما أن حوارها يجرى جريانا ليناً هيناً لا بدأن يقع المشاهد فى إساره مهما يبلغ من الحيطة. وأكثر هذه المسرحيات هزلية بالمعنى الرفيع للكلمة مسرحية «مروحة اللادى وندرمير» وهى لا تخلو من عنصر خيالى مؤثر (تقوم بأجمل أدوارها امرأة مغامرة أو على الأقل تعتبر كذلك) كما أن أكثر هذه المسرحيات هزلية بأحط معانى الهزل مسرحية « أهمية أن تكون جاداً » وهى أقرب الى المسخرة منها الى الملهاة أو المهزلة. ولكنها مسرحيـــة موفقة جداً تدل على مدى معرفة وايلد بضرورات المسرح .

لقد جدد وايلد الملهاة الانجليزية ، ولم يرد أن يجعلها سبيلا الى النظريات الفلسفية والتأملات الاجتماعية ، وإنما أراد قبل كل شىء أن يضحك وأن يفتن .

والى جانب وايلد يجب أن نتحدث عن مواطنه برنارد شو (ولد عام ١٨٥٦) الذى يظهر بمظهر المفكر المحطم للأصنام. وقد دأب على الهزء بجمهوره ، وتقبل هذا الجمهور هزأه به وسخره منه بدون أن يشعر أن الرجل انما يهدف إلى ماله قبل كل شىء .

قال عن نفسه « لقد خلقت مهرجا » وكان فى وسعه أن يضيف إلى ذلك : « لقد خلقت متمرداً » ومهما يقل عن نفسه إنه اشتراكى فهو فى حقيقته فوضوى .

ولد فى دبلن، وعاش طفولة كامدة ، وترك المدرسة فى الرابعة عشرة من عمره ، واشتغل كاتباً صغيراً فى مكتب وكيل قضايا، ثم لحق بأمه فى لندن، وثقف نفسه فى المكتبات العامة، وقرأ كارل ماركس ، وأصبح له اسم بين الأحزاب .

وفى هذه اللحظة كان يكسب قوته بعناء من كتابة النقد الفنى ، وكان يكتب روايات يقدمها للناشرين فما تلقى منهم إلا الإعراض بدون رحمة . وكانت قراءته لابسن كشفا مفاجئا له ، ففهم أن المسرح خير داع للآراء الجديدة . ولكى يحصل على النجاح بالقوة ويستميل اليه الجمهور ، لم يخالجه شك فى ضرورة الشعبذة ، فأقبل عليها غير متردد . حتى لقد اعترف هو نفسه فى صراحة مسكتة « بأنه كان يقضى نصف وقته فى خداع الشعب الانجليزى بالإشادة بذكائه وخفة دمه وعمق تفكيره ، حتى صدقه الشعب الانجليزى لكثرة ما ردده هو ذلك » .

ويمتاز شو بحضور البديهة إلى درجة خارقة للطبيعة ، ويمتاز إلى ذلك بأنه لا شىء يخرجه عن طوره ، لذلك يستطيع أن

يستمر على القيام بدور الطفل المرعب دون أن يلقى عقابا .

يهاجم شكسبير فيقول : لقد جعلتموه إلها وهو الذى سرق فلسفته من مونتنى ، وتاريخه من بلوتارك ، وموضوعاته من بانديللو . أنا أستطيع ان أكتب خيراً منه» . وحين خرج شو بكتابه « قيصر وكليوباترة » إلى الناس قذف به قائلا : خذوا ! . إنه لأقوى من شكسبير . . . ولا « تفلقونا » بعد الآن بهذه المجموعة من الحكايات التى تسمونها التاريخ . إن المخالفة للتاريخ غير موجودة . ليس قيصر أكثر من جفروش[1] هرم مبغض للنساء . وليست كليوباترة إلا فتاة فاسقة ، وليس بطليموس إلا فتى متوحش . ولنأت إلى القرون الوسطى . من هم أبطال القرون الوسطى ؟ جان دارك فتاة طيبة تفيض عافية ، شهيدة بروتستانتية ، امرأة عنيدة . ولننتقل إلى العصور الحديثة ! من ؟ بونابرت ؟ « ضابط قذر نهم » ، إنسان ساخر ، سبر حماقة النفس الإنسانية ، فلم يعرف إلا غريزة عامة هى غريزة الخوف . أما

---

(١) من شخصيات كتاب « البؤساء » لفكتور هوجو . هو صبى باريس خفيف الظل ، حاضر النكتة ، ساخر ، لكنه شهم كريم . وقد دخل اسمه فى اللغة الفرنسية .

فى الوقت الحاضر فإننا لا نتحدث عن الأبطال بل عن العواطف العظيمة والمذاهب الكبرى . فلننظر قليلا .. الحب؟ كذب : لا تتردد كانديدا فى التخير بين زوجها الذى يمثل هدوء الحياة اليومية ، وبين مارتشبانكس الجميل محب اللذة ، الذى يمثل الشباب والمغامرة — ثم المجـــد الحربى ؟ كذبة أخرى : ها هو البطل الذى يجد نفسه على رأس الحملة يسدد إلى فم حصانه حتى لا يقتل قبل الآخرين — الملك ؟ أنظر إلى شارل الخامس . . جبان . . ضعيف . . فظ . . ناكر للجميل . — الدين ؟ أنظر إلى القس الراعى جاردنر السكير اللص ، أنظر إلى كاهن كنيسة ستوجنبر الغبى ، بل انظر إلى بلانكو بوسنت ، القديس ، النبى ، الذى يسرق حصانا ويتهم به غيره . العلم ؟ ها هو الدكتور ريدجن الذى يستلطف مسز دوبدت يقضى بالموت على المصور دوبدت ، إذ يعهد به إلى زميل نصف مجنون .

وتنقسم الأصنام التى يحاول شو أن يحطمها فى هذه المذبحة إلى ثلاثة أقسام : Cant (ادعاء الفضيلة) و Shsam (الحشمة المنافقة) و Snobism (الحماقة) . فهو يستأنف بعد قرنين ، على طريقته الخاصة ، موضوعات « تارتوف » ، « ومريض

الوهم » « والنساء المتفيقهات » . أما فلسفته فيمكن أن تلخص فى عبارة واحدة : إن الطبيعة تتغلب دائما ، مع طول الوقت، على المواضعات الاجتماعية أو الدينية . وليس فى مسرحه شىء من مرض . ولهذا كان بقاؤه مضمونا رغم افراطاته وأخطائه الذوقيه التى تلاحظ حتى فى أحسن آثاره ، أعنى « كانديدا » . وفى رأيى أن هذه الافراطات والأخطاء مردها إلى أن شو يخشى ، ككثير من البريطانيين ، أن يكون مخدوعاً، فهو يقدم الينا مسرحا عقليا ، خاليا من كل عاطفة ، لأنه يخشى العاطفة . والواقع أنه لا يخشى العاطفة إلا لأنه فى أعماقه عاطفى . وهو أحيانا يستسلم لبعض الاندفاعات العاطفية التى تتدفق من شخصيته الحقيقية . ولكن سرعان ما يتوقف ويحمر وجهه خجلا ، ويخيل إليه أنه يسمع قهقهات ساخرة ، وعندئذ يقذف بسخرية لاذعة ، ليبرهن للناس على أنه لم يفقد رقابة على نفسه Self Controe : يقف قيصر أمام أبى الهول متأملا ، يبحث عن مفتاح اللغز ، ويتصور فكرة الأبدية . إن روحه لترتفع ، وإن عاطفته لتشتد . ولكن شو يخشى أن تنفرج شفتا أحد من الناس عن ابتسامة ساخرة، فيسبقه إلى السخر ، فيجرى على لسان كليوباترة الصغيرة :

« هيه أيها السيد العجوز . . لا تهرب » . وبذلك يضمن أن يكون الضاحكون له لا عليه . ولكن لعل وراء هذا الوجه المكشر ، إنسانا يتألم ويتعذب . .

وبعد فقد ساد الخيال الايرلاندى وسادت السخرية الايرلاندية على يد وايلد وشو اللذين هما من أنصاف الايرلانديين . والآن ، على يد سنج (١٨٧١ — ١٩٠٩) الايرلاندى الصرف ، يسود الشعر السلتى الصرف والواقعية السلتية الوحشية . وقد أثار سنج استنكار الجمهور البريطانى بدعوته إلى الحب الحر فى « ظل الوادى » وتهزيئه راهبا فى «عرس المبيض» ، وبامتناعه عن استنكار جريمة قتل الأب فى « بهلوان العالم الغربى ». وهو ساخر بوجه عام ، إلا أنه يصور فى الغالب قسوة القدر . ففى « عودة شطر البحر » يسمعنا سنج أنات المرأة التى استلب البحر ابنها الأخير بعد أن ابتلع جده وأباه واخوته الخمسة . وفى « نبع القديسين » يحدثنا عن كفيفين يستردان البصر بفضل أحد القديسين فلما تم لها ذلك أحسا بشعور الخيبة ، إذ لاحظا أن رؤاهم مع العمى ، كانت أجمل من هذا الواقع البليد . ومن هنا يخرج الرمز : لا بأس أن نرى الواقع على نحو ما هو عليه ، ولكن يجب

أن نعرف كيف نهرب منه ، ونحلق فى عالم الأحلام .

بعد سنج شهد المسرح الإرلاندى فترة انحطاط . ولكن عددا من الدراميين استأنفوا حمل الشعلة بعد الحرب العالمية الأولى نذكر منهم سين أكازى ، وهو أشد واقعية من سنج ، وقد عرض على المسرح مآسى الحياة الدبلنية إبان الارهاب الانجليزى والحرب الأهلية . ومسرحيتاه الرئيسيتان هما « ظل حامل بندقية » (١٩٢٣) و « چونون والطاوس » (١٩٢٤) ، وهما من عيون الآثار الأدبية بلا جدال ، وقل أن تجد مشاهد تضاهى مشهد چونون الأم المتألمة وهى تيمم شطر ابنها الميت وابنتها التى أضاعت شرفها وتستغيث برحمة الله ؛ ثم مشهد الزوج ، العاطل عن العمل ، يدخل فور ذلك إلى المسرح ومعه صديقه چوكر ، وهما يتأرجحان من السكر ويعربدان ، ثم يسدل الستار عليهما وهما يهذيان .

وتشهد إيقوسيا اليوم ، بعد إرلاندا ، حركة بعث مسرحى قوية ، وهى حركة ماتزال فتية ، وليست بالأصيلة كل الأصالة . إلا ان الأمل كبير فى چورج بلاك ، وهو أجرؤ الدراميين المحدثين ، وأهم مسرحياته « الأم » (١٩٢١)

ولا تظنن مما قلنا أن انجلترا تقصر عن ايقوسيا أو عن

ايرلندة فى هذا المضمار . فان فيها لطائفة كبيرة من المؤلفين تستطيع أن تزهو بهم أيما زهو . إلا انه ليس بين هؤلاء المؤلفين من اختص بالدرامة دون غيرها ، فقد قل الاختصاص عما كان عليه فى السابق ، فنرى سومرست موم (ولد عام ١٨٧٤) يستخرج أهم مسرحياته من رواياته وقصصه كما فعل بصدد دراميته القويتين « المطر » و « الرسالة » ، وهما تصوران الطبيعة القاسية التى كتب لها الظفر على الانسان . وحين يكتب موم للسرح مباشرة فانه يطالعنا بملاه لا تقل جمالا وعمقا عن ملاهى أوسكار وايلد . كما أن له من تمكنه من صناعته ، وعمق إحساسه بالوقائع وقوته وواقعيته ، ما يجعله واحداً من أكبر كتاب المأساة المشهورين الذين عرفتهم انجلترا .

والى جانبهم نجد ج — م بارى (ولد عام ١٨٦٠) ومؤلفاته استمرار للملهاة الخفيفة التقليدية العاطفية الفكاهية فى آن واحد . ومن مسرحياته « بيتر پان» وقد استخرجها من إحدى رواياته وهى مسرحية خيالية أصابت قبولا حسناً ، رغم انها لا تهدف إلى أى غرض رمزى . وانما كل غايتها أن تثير عواطف الأطفال وتضحك الرجال .

أما الدرامة التاريخية فقد وجدت من استأنفها من أمثال

چون درنكووتر (ولد عام١٨٨٢) ولكن لم يستطع أحد أن ينجح فى هذا النوع نجاحاً يذكر حتى لترى مؤلفا بعينه يخفق فى هذا النوع وينجح فى غيره أيما نجاح . فمسرحية كايمنس دين المعنونة « وليم شيكسپير » لم تصب نجاحا كبيراً فى حين أن مسرحية أخرى له ، قد أصابت النجاح العظيم الذى تستحقه أعنى مسرحية « قانون فى الطلاق »

ولعل أعمق درامى من أبناء الجيل المهزوم هو جالسورثى (١٨٦٧ — ١٩٣٣) ويعد من تلاميذ إبسن والمؤلفين الروس، وهو يقابل الفرد بالمجتمع (فى « العدالة » و « الاستقامة ») ويظفر فى إهاجة العاطفة ، واستثارة الرحمة بدون ان يلجأ الى الحالات النادرة . ولعل جالسورثى الدرامى سيعد فى المستقبل أعظم من جالسورثى الروائى ،لا لشىء الا لأن المسرح يقتضيه أن يركز فكره ويلتزم الإيجاز .

إن شعبا عنده شو ومُوم وبارى وجالسورثى وييتس وأ كازى لهو شعب محظوظ إلى أبعد حد. وليس فى العالم بلد يتردد الناس فيه الى المسرح تردد البريطانيين.

الفصل السادس عشر

الرواية المعاصرة

١ ـــ الممهدون والأقطاب

لقد احتلت الرواية المكان الأول فى الأدب ، سواء فى انجلترا وفى غيرها من البلدان . وبلغ عدد الروائيين الموهوبين فى انجلترا مبلغاً كبيراً . ومن الصعب علينا أن نختار بعضهم وندع الآخرين ،لاسيما وأن الانجلوساكسونى لايهتم بشئون الشكل والفن اهتمام اللاتينى بذلك .

وأعظم رواد الرواية المعاصرة كاتبان مثاليان يتمردان على واقعية چورج اليوت وعاطفية ديكنز فى آن واحد . أما الأول فهو ميريديث ،وقد امتدحوه وأعلوا من شأنه إلى أعظم حد . وأما الثانى فهو بتلر وقد جهله مواطنوه جهلا كثيراً . وأصبح من الممكن الآن أن نعيد التوازن .

ولد چورج ميريديث عام ١٨٢٨ من أبوين جاليين . وقد رحل فى شبابه إلى المانيا وتأثر بها تأثراً عظيما . الا ان ذلك لم يمنعه فى عام ١٨٧٠ من الاعتراض على بسمارك ،

وكتابة نشيد لفرنسا . وكان يحب المفارقة والاستقلال ، فني ذلك العصر الذى كان الناس فيه يعدون من لا يذهبون إلى الكنيسة أشبه بلصوص فى قارعة الطريق ، كان ميريديث لا يخفى كرهه لكل الأديان ، وكان يتقبل نظريات دارون بفرح عظيم ، وفى العصر الذى كان يسوده النفاق كان ميريديث فى طليعة من يؤيدون التربية الجنسية.

أول رواياته هى « حلق لحية شاجبات » ، وقد أزعجت حضرات البرجوازيين الذين كانوا يومئذ يطيلون لحاهم : هى ملحمة بطل جرىء اسمه باجاراج يكره الشعر ، ويقسم ليحلقن لحية الطاغية شاجبات . وقد خيل إلى النقاد أن هذا الكتاب رمزى ، فلفتوا إليه الأنظار ، وما هو فى حقيقته إلا تقليد فكاهى « لألف ليلة وليلة » ، ومع ذلك لم يفرض ميريديث نفسه على الجمهور إلا بعد سنين طويلة . وأعظم فترات حياته عام ١٨٧٦ . فنى هذا العام نشر « حياة بوشان» وفرغ من كتابه «الأنانى» . أما الكتاب الأول فهو يتناول بسخرية لاذعة موضوعا جديراً بموليير هو موضوع الفارس الذى ينتقل إلى عصرنا الصناعي ، وهذا الفارس التقى نيقل بوشان يجمع فى نفسه تأجج دون كيشوت وصفاء فارس الصليب

الأحمر الذى حدثنا عنه سپنسر. وعيبه الوحيد هو كثرة حركته ورغبته فى الا يتوقف لحظة واحدة. ولا يستطيع أحد أن يطامن من هذه الحركة حتى ولا رينيه، الحسناء الفرنسية. إن رينيه أحلى بطلة فرنسية عرفتها الرواية الانجليزية. وحين خلق ميريدث هذه البطلة الحية، الرشيقة، الخفيفة، المنطلقة، المحبوبة حتى فى عيوبها، إنما أراد أن يقابل هذا النموذج النسوى الذى يحبه بالمرأة الانجليزية الباردة التى لاتحس جمال الفن.

وأما «الأنانى» فهى رواية عميقة، وخير ما فيها شخصيتها الرئيسية أعنى الأنانى نفسه سير ولجبى وهى شخصية حية، ولكنها تصبح رتيبة لكثرة ما تتشابه استجاباتها. وهذه الرواية تفوق الرواية السابقة من الناحية الفنية ولكنها أقل منها أسرا لأنها أقل منها إنسانية.

أضف إلى ذلك أن قراءتها صعبة، فميريدث ليس بالكاتب الواضح، ويظهر أنه فعل كل ما يمكنه حتى يؤيد اشتهاره بالغموض. قال مارسل شوب: «إن ميريدث لا يفكر لا بالانجليزية ولا بأية لغة معروفة بل يفكر بلغة خاصة بميريدث». ولكى نقدر ميريدث حق قدره يجب إذن أن نتعلم لغة جديدة، وفى رأيى أن آثاره تستحق مثل هذا العناء

إلا أن كثيرا ممن سيبذلون هذا الجهد ستحولون عنه ، لأن هذه السخرية اليائسة التى تفض بها آثاره ستبدو لهم شيئا منفرا . إن روايات ميريدث من النوع الذى لا يمكن أن يدعك حياديا . فإما أن تعجب به وإما أن تنفر منه .

لذلك ترى أن من يبخسونها حقها لا يقلون عمن يتحمسون لها .

أما صموئيل بتلر (١٨٣٥ — ١٩٠٢) فهو رجل مناضل . كان أبوه قسا . أراد أن يدخله فى سلك القسس فأبى ، وآثر أن يشتغل مربى خراف فى نيوزيلانده ، فلما عاد بعد أن جمع بعض الثروة أصر على أن يؤلف كتبا لم يجد من يقرؤها . وكتابه الأساسى عبارة عن رحلة فى مدينة خيالية . وقد سماه « إيرون » أى بلد لا مكان له . وفيه ينتقد الكنيسة وعقائدها ورجالها انتقادا لاذعا لكنه قوى وعميق ، وكذلك انتقاده للمحاكم والجامعات ولكن الكتاب مضطرب للأسف والهجاء فيه يجرى على وتيرة واحدة من المرارة . وثانى كتب بتلر هو « طريق كل البشر » وهو ترجمة ذاتية يحدثنا فيها المؤلف عن التربية الدينية التى تلقاها فى عائلته ، ويبلغ من القسوة فى تصوير هذه العائلة أن هذا الكتاب لم يمكن نشره إلا بعد موته .

وإن القارىء الذى يعرف ميلاد هذه الحكاية المبكية لينزعج من شيئين معا : من تلك الوحشية ومن هذا الجبن ، أعنى الانتقام بعد الموت. هذا وإن أجزاء الرواية متفاوته فى قيمتها: وأحسن ما فيها تصوير الأشياء التفصيلية ، فبتلر كاتب يستطيع أن يرى الاشياء رؤية حادة ، وأفكاره قوية ولكن تعوزه الأداة الرفيعة ، فأسلوبه باهت ، وتراكيبه ركيكة ، وليس فى عباراته تدفق حياة .ولعله خلق ليكون من كتاب «المقالة» بالدرجة الأولى .

وفى هذا المستوى الذى يقف فيه الرائدان العظيمان، يقف كذلك توماس هاردى ، وهو سيد الواقعية المظلمة ، القاسية، على طريقة الروائيين الروس .

على أنه لم يغرق فى هذه الظلمات من أول أمره . فقد حاول فى أول حياته ، حين كان مهندسا يطوف فى مقاطعات الجنوب ، أن يبتسم للطبيعة وأن يبتسم للناس ، فكتب سلسلة من الروايات عن الحياة الريفية ، (« تحت الشجرة الخضراء » ، « بعيدا عن الجمهور المحموم » ، « عمدة كاستربردج » ، « العودة إلى البلد » الخ) تعد صدى لجورج صاند . وقد برع فى تصوير الاشخاص الحفاة وسط مناظر كئيبة جليلة ،

ولكن كلما تقدم هاردى فى حياته رأيت أبطاله يولدون على التعاسة ثم تعذبهم شهواتهم الجنسية أو البغضاء والرغبة فى الامتلاك والظمأ الى التحكم. وقد سخر هاردى من آمال الإنسان الميتافيزيائية كما هزىء بهذه اللعبة التى يسميها الناس بالحب. وخير آثاره كتابان هما: «تس دربرڤيل» و «جود الغامض». ولعل هذين الكتابين أظلم ما عرفت الإنسانية من كتب. فانك لتخرج من قراءاتهما وأنت تحس بغم ثقيل، وقلق ممض، أشبه بالقلق الذى تشعر به بعد اقتراف إثم لذلك رأينا الجمهور الانجليزى يثور.. ثم رأينا هاردى الذى يعتبر الكتابة أشبه برسالة دينية، يعتزل الرواية بعد اصدار «جود»، لينصرف إلى الشعر.

لقد خلق هاردى ثلاث نسوة لا تنسين: تس الساذجة النقيّة التى يهزأ منها القدر ويضنيها، ثم آرابللا البدائية التى تجهل الشقاء لأنها تجهل العاطفة، وأخيراً، وخاصة، سو، خليلة جود — إنها تستسلم لجود فى المساء الذى خافت فيه أن يعود إلى آرابللا. ولكن كبرياءها قد جرحت من ذلك. وبعدئذ تتزوج رجلا آخر. وتتألم من هذا الزواج، كل ذلك كيما تؤلم جود وتعذبه. إنه ليلذ لها أن تضحى بنفسها فى سبيل تعذيب

ذلك الشخص الذى ما زالت تحبه ، ولكن تنقم عليه أنه استولى عليها بسهولة . . إنها لتشعر بلذة ، وهى تسكب دموعا سخاناً على چود وعلى نفسها .

ليس يكفى أن يعبث القدر بالآلام الإنسانية. إن الإنسان أيضا يحلو له أن يضطهد الإنسان . وليس ثمت من معصم من هذه الآلام إلا العدم .لا سبيل الى الهدوء إلا بالموت . وأفظع مشاهد « جود الغامض »هو مشهد شنق الأطفال بيدى أخيهم. وهنا نضع يدنا على مفتاح فلسفة هاردى: علام نعيش مادامت الحياة لا تعد الا بالآلام ؟

وهناك روائيان آخران ،واقعيان كهاردى ولكنهما دونه قيمة،هما: جسنج(١٨٥٧ - ١٩٠٣)وهوايت(١٨٣٠ – ١٩١٣). أما هوايت فهو صاحب كتابين فقط يروى فيهما حياته ويصور القلق الذى تعانيه النفس حين تفقد الإيمان وتطفق باحثة عن الهدوء والإطمئنان : وهذان الكتابان هما « سيرة مارك ريثرفورد بقلمه » و « خلاص مارك ريثرفورد »وأما جسنج فقد ترك لنا مجموعة كبيرة من المؤلفات . وحاول أن يستمد من حياة الحرمان والألم والشقاء مادة لعدد من الروايات صور فيها الطبقات الدنيا فى لندن (« ديموس » ، « العالم الأدنى ») ،

أو أوساط الكتاب الجائعين (شارع جرب الجديد) . لقد أراد جسنج أن يكون مثل ديكنز ، ولكن شخوصه تفتقر إلى شيء من الحرارة ، وأوصافه متشابهة جامدة . .

وتجاه الرواية التشاؤمية هناك الرواية التى تهرب من الواقع ، وتسير بنا فى الزمان والمكان ، لتنسينا بشاعة الحياة الحاضرة ، مثل رواية « لورنا دون » (١٨٦٩) من تأليف بلاك مور وهى تصور ديفنشير المتوحش فى عصر الإصلاح ، ورواية « چون انجلزانت » (١٨٨١) من تأليف جوزيف شورذوس وهى صورة للمنازعات الدينية فى القرن السابع عشر وقد فتنت هاتان الروايتان أجيالا من القراء . ومثل ذلك روايات سورتز (١٨٠٢ — ٦٤) التى تسمح للخيال بالعدو وراء طيوف الأرستقراطيين الرياضيين والصيادين الجريئين ، وقد أصابت نجاحا كبيرا كالنجاح الذى يلاقيه الآن الكتاب الذى ظهر أخيراً لسيجفريد سازون (ولد ١٨٨٦) بعنوان « مذكرات صياد ثعالب » . وهناك أخيراً وخاصة مولفات بورّو (١٨٠٣ — ١٨٨١) ، وتكاد تكون جميعها عبارة عن ترجمات ذاتية ، وهى تمجد حياة البوهيميين المتشردة وحياة البائعين المتجولين فى الأرياف ، داعية بذلك

إلى محبة الاستقلال والحرية (« لافنجرو ») ولا يفوتنا أن نذكر أيضا مؤلفات كنجليك (١٨٠٩ - ٩١) التى تصف روعة الشرق فى كثير من الإغراء . وكذلك لا يفوتنا أن نذكر ريدر هاجارد (١٨٥٧ — ١٩٢٥) الذى أصابت مؤلفاته رواجاً كبيراً ، وهى عبارة عن سلسلة من روايات المخامرات عن أفريقيا العجيبة وملوكها وسحرتها .

وفى نهاية القرن التاسع عشر نرى الإغتراب هو الذى يسود أدب الهروب على يد ثلاثة أقطاب عظام ، أولهم ر . ل . ستفنسون (١٨٥٠ — ٩٤) ، وهو أعظم منشىء عرفته انجلترا ، لا يضارعه فى أسلوبه أى كاتب انجليزى آخر . ولد فى أدينجورج ، وقضى شبابه فى إيقوسيا ، وقضى خير سنى نضجه فى فرنسا وكاليفورنيا . وأجمل لحظات حيـــاته المشردة فى أوقيانوسيا . ومات فى صاموا حيث كان قد أنشأ شبه مملكة . وكان السكان الأصليون فيها يلقبونه Tusitala أو القصّـاص .

والحق أنه كان قصاصا لا نظير له حتى لتنسيك براعته القصصية أنه كان شاعراً عظيما ، وأنه كان ألطف كتاب المقالة فى زمانه . وتمتاز رواياته برهافة نادرة ، إلا أن رهافتها لا تنال من قوتها ، هذا إلى عنصر مرضى واضح يزيدها فتنة وجمالا

(كان ستيفنسون يعانى داء السل) ومع ذلك يشعر القارىء أن ستيفنسون لم يعط كل ما عنده ، ولعل امرأته الأمريكية المولعة بالمواضعات الاجتماعية قد ألجمت خياله الفنى إلى حد كبير ، ولعله لو ترك له العنان أن يصور لنا بلاداً خيالية غير التى صور وأحسن كتبه قصة رمزية طويلة بعنوان « الدكتور چيكل ومستر هايد » يعالج فيها موضوعا أصبح بعد الفرويدية من الموضوعات الشائعة المألوفة : روحان تسكنان جسم الدكتور ، إحداهما جميلة مستقيمة والأخرى قبيحة شريرة : وحين تتغلب الأخرى على الأولى تشوه ملامح وجهه تشويها مروعاً .

والرواية التى ضمنت نجاح ستيفنسون نهائيا هى « الجزيرة ذات الكنز » ، وما زالت تعد خير روايات المغامرات ، فيها نجد فرحة الإرتياد وفرحة الإكتشاف ، ونجد عنصر الفزع فى شخصية چون سلفر وعنصر السر فى السطو على الفندق حيث ينصت الطفل مرتعداً إلى اقتراب خطوات السارق الأعمى . وفى نفس هذا الإتجاه كتب ستيفنسون رواية « المغرق » وفيها ، بعد أن يستفيد من ذكرياته عن باريس وسان فرنسيسكو ، يمضى بنا إلى المحيط الباسيفيكى . إن ستيفنسون

أول من مهد لذلك الأدب الضخم الذى يتناول الجزر البولينزية ، « أرض المداعبات والكسل . وكثيرا ما حول جو الباسيفيك الخامد إلى جو « ألف ليله وليلة » السحرى فى « بحار الجنوب » وسهرات الجزر ، الخ) ومع ذلك فإنه فى روايته الأخيرة « جزر البحر » قد آذن بمؤلفات موم إذ أظهر تدهور البيض فى المناخ الأوقيانوسى .

وقد كتب هذا الروائى ، المغترب فى الجزر ، سلسلة من الروايات عن إيقوسيا البعيدة (وخير هذه الروايات « معلم باللنترى ») ، وأتاح له بعده عن إيقوسيا أن يضفى عليها حلة من الشعر والأحلام . . والحق أنه كان فنانا قبل كل شىء ، فكان يبدل الواقع ، وينسجه من الخيال على هواه ، ويبث فى مخلوقاته كثيراً من قلبه ، حتى يحببها إلى قلوبنا .

أما لافكاديو هيرن (١٨٥٠ — ١٩٠٤) فلم يكن له وطن كذلك ، مثل ستيفنسون بل أكثر ، ولم يستقر إلا فى الأمكنة التى يسودها الجمال . هو سليل إيرلانديين . ولد فى الجزر الأيونية ، وطوف فى العالم ، وعاش بعض الوقت فى جزر الأنتيل الفرنسية ، ثم عين أستاذاً للأدب الانجليزى فى جامعة طوكيو ، وتزوج من يابانية ، وأصبح يابانيا أكثر من أبناء اليابانيين الذين يقلدون الغرب . أما كتبه فأحرى بها أن

تسمى ريبورتاجات روائية لا روايات بمعنى الكلمة . وأشهر هذه الروايات هى التى تتحدث إلى الانجليز المشدوهين عن يابان البطولة والفروسية (« كورورو » ، « كويدان » الخ) . على أن هذه الروايات الممتازة يجب ألا تنسينا تلك الصفحات الرائعة التى كتبها هيرن عن جزيرة المارتينيك « ذات التلال الملفعة بخضرة لامعة تحت أشعة الشمس الذهبية » ، « هذه القصيدة الكبيرة الصامتة المتألفة من ألوان وأضواء » .

أما رديارد كپلنج فإن حالته لتحير حقا . نعم إن كتاباته النثرية أبقى على الزمن من أشعاره ، ولكن رواياته وأقاصيصه عن الحياة العسكرية فى الهند ليست أخلد من قصائده الاستعمارية التى استلهم فيها حرب ١٩١٤ (اللهم إلا بعض المستثنيات كأقاصيص الحيوانات التى كانت موفقة دائما). على أن كپلنج الذى تخاص شيئا فشيئا من الضباط ، استطاع أن يصور لنا ثلاثة نماذج شائقة جداً من الجنود ! هم ثلاث رجال يحب بعضهم بعضا حبا عظيما لم يستطع أحد ، رجلا كان أو امرأة ، أن يفصلهم بعضهم عن بعض ، أولهم مولفانى وهو الرياضى المفكر فيهم ، والثانى أورثيريس ، وهو نموذج لندنى أنيق بارع الحيلة ، والثالث جوك ليرويد وهو عملاق طيب من

« يوركشير » (« ثلاثة جنود » ، « أقاصيص بسيطة من المستعمرات » الخ) . وهؤلاء « الفرسان الثلاثة » من فيض الخيال ، وحتى عيوبهم لا تجد لها نظيرا فى الواقع ، غير أن سلوكهم العجيب وروحهم المرحة ، وثرثرتهم اللطيفة ، قد أمتعت أجيالا كثيرة من القراء .

ومؤلفات الكهولة تحتمل هى الأخرى الأخذ والرد ، إلا إذا اعتبرناها مجرد حكايات للشبيبة ، فيحدثنا فى « ضباط شجعان » عن ابن مليونير يضطر لتعلم هذه الحرفة الشاقة ، حرفة الصبي البحار ، أما كتابه الطويل « كم » فهو دراسة صادقة للعقلية الهندية ، لولا أنه طويل جداً . وكتابه « ستالكى وشركاه » قصة طويلة تصور شقاوات التلامذة الانجليز .

ولا شك أن أحسن مؤلفات كبلنج هى « كتب الغابات » و « حكايات » . والموضوع المركزى فى « كتب الغابات » موضوع مبتذل ، هو موضوع الطفل الذى تربيه الذئاب . إلا أن كبلنج قد جدد هذا الموضوع باختياره إطاراً اغترابيا وبخلقه أساطير عن الحيوانات استقاها أو تأثر فيها بالأديان الهندية . وإنك لتستخلص من حكايات ماوجلى رمزاً غامضاً يرمى إلى أن الشخص الانجليزى يطيع قانون شعبه

فهو أعلى من القرد الفرنسى الذى يثرثر ويتحرك فى الفراغ.
أما كتاب «حكايات» فإنه ينسج على غرار «مغامرات أليس» الخالدة للرياضى. ل. ودچون أعنى على غرار الحكاية الفكاهية التى تخدع الصغار وتسلى الكبار فيحدثنا كپلنج عن الحوت كيف تحصل على رقبتها وعن الجمل كيف يحصل عن سنامه وعن الفيل كيف يحصل عن خرطومه. إن صغار القراء ليفتحون أعينهم مندهشين، ولكن سرعان ما ينتابهم قلق غامض، لأنهم يشعرون شعورا مبهما بأن المؤلف بسبيل أن يسخر منهم.

وإذا أضفنا إلى مجلدى «كتب الغابات» ومجلد «حكايات» مجموعة من خيرة الأقاصيص المنثورة هنا وهناك فى كتب أخرى لكبلنج (مثل «عين الله» و «الخلية») كنا أمام مجموعة من الآثار خليقة بأن تقاوم بلى العصور.

والآن نصل إلى الحديث عن ولز (ولد عام ١٨٦٦):
جمع ولز بين رواية الهروب وممكنات العلم. كان فى أول أمره عالما يقضى أوقاته بين التجارب فى المعامل، وله كتاب فى «البيولوجيا»، وكان اختصاصيا فى التشريح المقارن والباليونتولوجيا والفلك. فروى لنا فى سلسلة من الأقاصيص

طائفة من خيالات رجل العلم : حدثنا عن نبتة غريبة من النباتات الأوشيدية . وعن كائنات نصف انسانية ونصف حيوانية يوجدها جراح ، وعن صاعقة تقترب من الأرض وتكاد تحطمها(« الجرثومة المسروقة، « جزيرة الدكتور مورو» ، الخ)
وقد أطلقت بعض الاكتشافات خيال ولز ، فحدثنا فى سلسلة من الروايات عن الرجل الخفى الذى يطوف فى الظلام ،وعن العمالقة الذين يهددون النوع الإنسانى ،وعن المستكشفين الذين يجوبون مغاور القمر ، وعن سكان المريخ الذين يبيدون الإنسانية بألسنة من نار (« طعام الآلة » و « حرب العوالم » الخ) .

وكان ولز اشتراكيا، وكان عضوا فى الجمعية الفابية ،وتتجلى شخصيته الاشتراكية فى طائفة من « روايات الاستباق » (وأجمل هذه الروايات رواية « يقظة النائم ») حيث يصور لنا البشر فى القرن الثلاثين وقد انقلبوا بتأثير الآلة إلى آلات محمومة ، أو يصورهم وقد سيطرت عليهم اوليغارشية عاطلة ؛ وتظهر شخصيته الاشتراكية أيضا فى سلسلة من الروايات الاجتماعية (كبس ، و « تونو بنجاى » ، الخ) وقد صور لنا الحياة التى تذبل من قلة الهواء والنور ، صور الحياة التى تذبل

فى الدكان (كبس ، پولى) وحياة الطلبة الفقراء (لويشام ، ولسام هل) وقدسيطرت عليهم جميعا لعنة الجنس . وفى الوقت نفسه كتب روايات ذات أطروحة ، عالج فيها بصراحة المسائل الجنسية وتناول موضوع المرأة المتحررة («زواج»، «آن ڤيرونيكا») .

وقد أراد أخيرا أن ينتقل من حيز النظر إلى حيز العمل . فشرع فى دعوة ضد الحرب ، فأبان عدم فائدة الحرب فى كتابه «الحرب فى الهواء» . وكان فى أول أمره يشتغل كرها لـكيزر كروب ، ثم أصبح بعد ذلك انهزاميا ، فأبدى قرفه ، وكلاله ، فى إحدى رواياته ، وهى الرواية الوحيدة التى تفيض بالانفعال وعنوانها «مستر برتلنج يغوص إلى أعماق الأشياء» واخترع إلها لا يحس بوجوده غيره («الإله الملك الخفى») ووضع لنفسه ديانة هى نوع من النزعة العقلية الغامضة . ثم تحول إلى مرب ، فرسم خططا خيالية للتعليم ، ولخص تاريخ العالم ، ثم عاد إلى موضوع طالما عالجه قبل ذلك . فصور لنا فردوسا ولزيا («مدينة فاضلة حديثة» «بشر كالآلهة» الخ) ولعله ، لو اضطر أن يحيا فى هذا الفردوس ، أن يكون أول الهاربين منه .

أما أين يمضى الآن فيبدو أنه لا يدرى فى أى اتجاه يسير.
إن كتابه « عالم وليم كليسولد » (١٩٢٨) هو أشبه بوصية أدبية يلخص فيها نظرته إلى الوجود، وكتابه «مستر بلتسورثى فى جزيرة رامبول» (١٩٢٩) هو مزيج من الأنواع التى سبق له أن برع فيها، وبطله شخص يخدعه الحب، فيبحر إلى أمريكا، وتضل به السفينة فى عرض البحر، وهو وحيد، فيجن عقله، ويعيش مدى خمسة أعوام، وهو يحلم فى جزيرة رامبول، التى تسكنها كائنات بليدة متوحشة ثم لا يثوب إليه رشده إلا ليرى الحرب.. لقد كانت جزيرة رامبول إذن هى الواقع..

ومن الملاحظ أن ولز يبذل جهدا عظيما لتجديد نفسه، وهو جهد ضرورى، لأن المجتمع يتطور بسرعة! بسرعة عظيمة، إلى حد أن رواياته الاجتماعية وبطلاته المتحررات أصبحن منذ الآن من الأمور القديمة البالية. وليست رواياته الفلسفية إلا خليطا من النظريات المعروفة. ولا يبقى له بعد ذلك إلا الروايات العلمية.

على أن هذا لا يمنع أن ولز قطب أدبى عظيم وأنه قد أنعش الحركة الأدبية على نطاق واسع، وقل من الروائيين من

كان له مقلدون مثل ما كان لولز . وإن له لخيالا خصبا ، وقدرة عجيبه على استحضار الصور ، لعله ينفرد بها من دون سائر الأدباء فى العالم بأسره .

وآخر عظيم من الممهدين للأجيال الجديدة هو والتر پاتر (١٨٣٩ — ٩٤) وقد أخرجه حديثاً من ظلمات النسيان عشاق الجمال واللذة . كان أستاذاً لأوسكار وايلد ومكملا لرسكن ولكنه أحل عبادة اللذة محل عبادة الجمال . فكان يقول بمذهب اللذة ويذهب إلى أن متع الجسد ومتع الفكر تستويان .

وقد كتب قليلا فلم يخلف لنا فيما عدا كتبه النقدية عن عصر النهضة وعن أفلاطون ، وفيما عدا كتاب بعنوان « صور خيالية » . إلا رواية واحدة بعنوان « ماريوس الأبيقورى » وقراءة هذه الرواية على جانب عظيم من الصعوبة . وكان وقته متسعاً للانصراف إلى عمله . وجاءت كتبه مثقلة بالأفكار معتنى بها إلى حد الإفراط .

٢ — الاتجاهات الحالية

لعل من الخروج على قواعد الدقة أن نقول إن هؤلاء

الأقطاب العظام ، ميريدث ، بتلر ، هاردي ، ستفنسون ، كپلنج ، ولز ، پاتر ، هم زعماء مدارس . فإن الفردية في هذا العصر ، وهذا القلق الحديث والرغبة في خلق جديد بأي ثمن ، كل ذلك جعل من لغو الكلام أن نتحدث عن « مدرسة » و « تلميذ » في الاتجاهات الحالية . وكل ما نستطيعه على أكثر تقدير هو أن نقسم المؤلفين إلى طوائف كل طائفة منها يجمعها مثل أعلى واحد .

أولا : الطائفة الكاثوليكية ، وقوامها كاتبان من الطبقة الأولى هما تشسترتون وبلوك . هي أقلية في بلد بروتستانتي تتظاهر بالشباب، والنشاط والاستقلال . تعارض البيوريتانية فتؤكد حقوق الفرح ، والخيال . والفكاهة ، ولد تشسترتون عام ١٨٧٤ ، وهو من كتاب المقالة البارعين قبل كل شيء ، ثم هو صحافي مفارق وفكاهي هجاء . وعندي أن مقالاته وهي أملأ بالأفكار التي ستبقى ذكراه أكثر من رواياته (« أورثوذكسية ») وقد خلق كذلك شخصية طريفة لكاهن هو الأب براون . وولد بلوك عام ١٨٧٠ ، وهو لا يقل عن صاحبه مفارقة ، إلا أنه يتجه إلى النخبة المختارة أكثر مما يتجه إلى الجماهير ، ومواهبه أندر

وأوجه وعندى أيضا أن مقالاته الجميلة فى مثل مجموعته « عن لا شىء » سيحفظها تاريخ الأدب أكثر من رواياته .

وثانيا ، الطائفة الإيرلاندية : وهى أهم من الأولى وسيدها چورج مور (ولد عام ١٨٥٢) ، وقد تبنته باريس واحتضنته وحسب نفسه فى أول الأمر مصوراً ، ثم روائياً طبيعياً ، وكتب روايات عن عالم المسرح ودنيا السباق . وقاده بورجيه بعد ذلك إلى القيام بدراسات فى سيكولوچيا التصوف . ثم التق بييتس ، وعندئذ قرر أن يعود إلى مسقط رأسه ، وهناك كتب خير مؤلفاته . من هذه المؤلفات « البحيرة » ، وهى تصف النزاع الذى يقوم فى نفس كاهن إيرلاندى بين الواجب الدينى والواجب الإنسانى . وأخيراً اكتشف مور نفسه وصرح بأن شخصيته هى الموضوع الوحيد الذى يستحق أن يكتب فيه (تحية ووداعا) . وتلاحظ فى آثاره أنك بإزاء منشىء عظيم . وإنما يعوزه عنصر أساسى ، حتى فى الجزء الشخصى من آثاره ، أعنى الألفة الحميمة بينه وبين القارىء .

وثانى هـــذه الطائفة الإيرلاندية جيمس ستفنس وهو روائى عظيم وشاعر كبير فى آن واحد ، أحيا أقاصيص الجن

الإيرلاندية ، بل لعب هو نفسه أهم وصفة على هذا الغرار ، سماها « جرة الذهب » حدثنا فيها عن بان الكبير وهو يصطدم بأنجوس أوج إله الحب والفرح عند السلت وعن جيش الجنيات وهى تحارب الرجال المسلحين وعن الفلاسفة وهم يصطرعون بالحيلة مع العفاريت التى تعيش تحت الأرض تحرس جرة مملوءة بالذهب . خيال رائع ، ولكن لعله محشود كثيراً ، ولعل كثيراً من الناس يفضلون على هذه القصة قصة مارى سمبلانت حيث نرى الجنية فوق الأرض ونرى الأمير الفاتن شرطياً هائلا ، ونرى الغادة الجميلة بنت امرأة خادم ، ونرى العصى السحرية عبارة عن إرث من أمريكا .

جيمس جويس : ولد عام ١٨٨٢ . كاتب مجدد . كان ولا يزال له تأثير يعده البعض حسناً ويعده البعض الآخر سيئاً . حاول فى عدة كتب أهمها مجموعة قصص بعنوان « دبلنيون » ورواية بعنوان « يوليس » أن يتخذ اللايقين مثلا أعلى ، وأن يحطم كل خطة وكل تصور إنشائى للعالم . لم يتحاش دائماً الأمور المبتذلة (المنشرد العبقرى ، السكير العظيم) إلا أنه برع براعة فائقة فى التحليل الدقيق للإحساسات الأولية وفى إظهار الرغبات المكبوتة .

يجمع رواية «يوليس» بين عدة نماذج معروفة من التخيل (الرواية البيوجرافية ، الرواية النفسية ، الروايه الرمزية) ، إنها حوار داخلي طويل ، بل اجترار طويل لافكار لا يربط بينها إلا قانون تداعي الأفكار ، بل هو سلسلة من الاشارات السريعة تمثل المجرى الطبيعي للفكر ويسيطر عليها الاهتمام بالشئون الجنسيه . أما الأسلوب فمن النثر المتقطع المحطم إلى معارضات للأسلوب الخطابي والأسلوب الأنيق . . وله فى بعض الأحيان قفزات غريبة حتى يختلط الشعر بالعبارات الجريئة المكشوفة اختلاطاً غريبا . وجويس لايحد آثاره فى المكان ، بل يحدها حداً ضيقاً فى الزمان ، ويناضل «الرقاص» نضال اليائس . إن « يوليس » تجرى فى عام ١٩٠٤ ، بدبلن خلال ٢٤ ساعة . إنها « مغامرة الفكر عبر الوجود » . إنها تاريخ يوم من أيام مستر بلوم والناس الذين يتنزهون فى المدينة فى نفس اليوم . وينتهى كل شيء إلى ليلة فحش قذر . قالت مسز ولف « إن « يوليس » فضيحة خالدة ، إنها جرأة عملاق ، ونكبة هائلة » .

ليام أوفلرنى : ولد عام (١٨٩٧) . هو الممثل الحديث للملحمة الايرلاندية . وروراياته الواقعية المظلة تنهض بسرعة

الى أفق العظمة الملحمية . ولد فى جزر آران ، وسط الصيادين الجفاة الذين يعيشون دائما مع فكرة الموت ، وحارب فى فرنسا ، ثم فى ايرلاندة ، وطوف فى الأمريكتين وفى الشرق الأدنى . وقد أتى الى الأدب متأثراً بنظرية فرويد ، فأحب أن يحلل الاندفاعات المتناقضة التى تحرك جسم الانسان البهيم (الواشى) ، أو عقلية الغبى الغامضة (مستر جيولولى) ، كما حاول فى سلسلة من القصص (فندق الجبل) أن يستحضر جو إيرلاندة الغريب الذى يسوده الحزن وتتملكه قوى شريرة خفية وخير آثاره كتابه « الواشى » ، وهو رواية بطلها العملاق جيبو الغبى يبيع للبوليس الانجليزى زعيم الثائرين صديقه ماك فيليب ، ويصبح الرمز الحى للخيانة ، يصبح يهوذا آخر . وتحكم عليه محكمة الثوار السرية ، فيهرب ، ويحاول عبثاً أن يصل الى الجبال التى ألجأت طفولته البريئة ، ثم يخر فى الكنيسة وقد امتلأ جسده رصاصاً

وهناك طائفة الكتاب الذين أحيوا الرواية التاريخية ، نستطيع أن نذكر منهم موريس هيولت (١٨٦١ — ١٩٢٣) ، وأجمل آثاره كتاب حلو بعنوان « عشاق الغابة » ، يحيى عهد انجلترا النورماندية . — ستانلى ويمان (١٨٥٥ — ١٩٢٧) ومن

طيشه أنه أراد أن ينافس الكسندر دوماس فيكتب تاريخ فرنسا روايات (بيت الذئب ١٨٩٠) . - وأخيراً هيو والبول (ولد عام ١٨٨٤) وهو كاتب موهوب كبير ، بل هو ثاكرى جديد ، وقد برع فى كل الأنواع : سواء فى رواية التلميذ ، (إلا أن «جرمى» موضع أخذ ورد لأنها تذهب إلى القول بتلك «الموضة» القديمة فى التربية الرياضية) وفى الرواية النفسية («ونترزمون» دراسة للنزاع بين العقلية الفكتورية والعقلية المعاصرة) ، وفى الرواية الخيالية («فوق الميدان المظلم»). على أن خير آثاره هو ولاشك رواية تاريخية بعنوان «روج هيرز» حيث وفق المؤلف إلى استحضار القرن الثامن عشر بفنادقه، وطرقه ، وساحراته .

وهناك طائفة الرواية النفسية ، وأهم ممثليها د.ه. لورنس. (١٨٨٧ - ١٩٣٠) وهو ابن عامل مناجم . وقد تتلمذ على فرويد. وكان عدوا لأدعياء الفضيلة. وأروع مؤلفاته «الآباء والأبناء» ثم - ماى سنكلير (١٨٦٨) وهى فنانة مرهفة الحس، برعت فى دراسة المسائل اللاهوتية . - موريس بارنج (١٨٧٤)، وقد أصاب نجاحا عظيما بفضل كتابه «دافنى آدين» وهو من ألطف الدراسات النفسية التى عرفها التاريخ الأدبى .

وهنـاك طائفة كتاب الميلودرامة ، وأهم ممثليها هال كين (١٨٥٣) ،وماريون كوريل (١٨٦٤- ١٩٢٤) ومن أشهر مؤلفاته «السيد المسيحى» وهو يمتاز بقوة الانفعال . وكونان دويل(١٨٥٩ - ١٩٣٠)وهو الذى أثار الرواية البوليسية بفضل «شارلوك هولمز»(١٨٩١) .— وهناك الرواية الفكاهية،وممثلوها و . و . جاكوبز (١٨٦٣) وقد اختص بحكايات البحارة ، وجيروم ك . جيروم (١٨٥٩ - ١٩٢٧) وأحسن آثاره « ثلاثة رجال فى مركب » ولشد ماأضحكت بسطاء النفوس -- دروز ماكاولى ومن مؤلفاتها « أعمـار خطرة » ، (١٩٢١) «الاحتفاظ بالمظاهر» ،(١٩٢٨) . الخ ،وهى مولعة بالإضحاك عن طريق إحداث المواقف غير المتوقعة ، وأخيراً فإن أبعد هؤلاء الروائيين خيالا هو دافيـــد جارنيت (ولد ١٨٩٢) ومن مؤلفاته « المرأة التى انقلبت ثعلبا » ،« يجب عليها أن تسافر».. الخ.» وتجمع أقاصيصه إلى الهزليات غير المعقولة إحساساً لطيفا بالرمزية والشعر .

وهنـــاك طائفة الروائيين الاغترابيين ، وعددهم كبير ، وقيمتهم عظيمة . وأول من يخطر منهم على البـال چوزيف كونرد (١٨٥٦ — ١٩٢٤) لأن آثاره تتصف بوحدة نادرة

فى هـذا العصر . إنه نموذج غريب لبحار بولونى ، يفكر بالفرنسية ،ويكتب بالإنجليزية . وهو متمكن من صناعته ، كما أن تحليله النفسى عميق بوجه العموم ، إلا أنه لا يعرف دائما كيف يحد نفسه . ولعـــل خير آثاره هو هـذه القصة الطويلة «تايفون» التى تحدثنا عن الكابتن ماك وير ، وهو رجل غبى عنيد ، بطل بدون أن يشعر ، يظفر بفضل دمه البارد وشعوره بالواجب على تلك الغريزة الغامضة السيئة التى تثير غضب الماء والسماء . وقد برع كونراد فى الأوصاف البحرية وأجاد تصوير تلك الساعات التى يشعر فيها المرء إبان العاصفة بأن فى زئير الريح نية وحشية وإلحاحا غاضبا (لورد جم) وعرف كيف يصور الموجة الكبيرة المزبدة وهى ترتفع فى الضباب كأنها فى اندفاعتها مجنون شرير بيده خنجر («الزنجى النرجسى» ، ثم هو يرتفع إلى الرمز بلا عناء : إن كفاح الإنسان الصغير الضعيف على الحيوان هو ظفر القوى الروحية الأخلاقية على القوى المادية .

وقد وفق كونراد توفيقا كبيراً فى دراساته للعقلية التى يشبهها بعقلية السلحفاة عند الهجناء والسكان الأصليين فى هذه البلاد الواطئة !

أما سومرت موم فهو موهوب فى الرواية والمسرح جميعا ، ولم يصبح من أدباء الاغتراب إلا متأخراً . كان طالبا للطب ، وقد درس حياة الطبقات الدنيا فى لندن ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره حين كتب رواية « ليزا دى لامبث » وهى أروع تصوير لحياة الأكواخ . وقد درس حالة امرأة ذكية مرهفة تزوجت من فلاح فكتب لنا رواية «الاستعباد البشرى» التى تعد من أعظم الكتب التى ظهرت فى هذا القرن ، وهى رواية ضخمة ، جزء منها عبارة عن ترجمة ذاتية تنتقل بنا من كنت إلى مونبارناس إلى لندن ، ويصور امرأتين لا تنسيان : ملدرد الموظفة الصغيرة فى أحد المطاعم ، العامية ، المتطرفة فى حركاتها الشرهة إلى اقتناص المال واستلاب راحة الآخرين ، وسالى الفتاة القوية السليمة هـذا الحيوان الرائع المهمل فى كروم كنت .

ولما نشبت الحرب اشتغل موم بالتجسس لبلده فى سويسرا وروسيا . ثم كتب وهو مريض كتابا كان يحلم به منذ زمان بعيد ، وهو عبارة عن سيرة روائية لجوجين أسماها « القمر والست بنات » وبعد ذلك أصبح يحب الأسفار كثيراً ينشد الشمس ويسعى إلى البلاد المجهولة ودرس

ما تحدثه الأقاليم الاستوائية فى البيض المنعزلين من تأثير سيء ، فكان أن أدخل الواقعية فى الرواية الاغترابية ،وجعل تاهيتى وجزر الباسيفيكى مسرحاً لأقاصيصه « اهتزاز غصن » . ومن أجمل هذه الأقاصيص « مطر » ،«وسقوط ادوار بارفار» كما أن بعض أقاصيصه الأخرى مثل (الساحر الماليزى) تنتقل بنا إلى ماليزيا . أما رواية « الحجاب المنقوش» وهى أكمل رواياته وأكثرها توازنا فهى تدور فى هونج كونج والصين . ومن رواياته الأخيرة « كعك وخمر » وهى مزيج من ذكريات الطفولة وهجاء العادات الأدبيـة هجاء لاذعا . ولـكن هيهات أن يكون قد أعطى إلى الآن كل ما عنده .

وعلى الطرف المناقض لموم ، يجب أن نذكر ديفــير ستاكبول (ولد عام ١٨٦٥) ولو أنه هو الآخر من روائيى الأغتراب . هو سيد ما يسمى بالرومانس أى قصة المغامرات فى بلاد بعيدة. وتمتاز هذه القصة بأنه ليس للواقعية من نصيب فيها ، كما أن العنصر الغنائى فيهـا ذو شأن كبير . وقد نهض ستاكبول بهذا النوع إلى الذروة فى قصته اللطيفة « البركة الزرقاء ».ومما يؤسف له أن نجاح ستاكبول فىهذا النوع من القصة قد حبسه فى إطارها ،وعيبها الأساسى هو إسرافها فى

الخواتيم الحسنة . ويتمتع ستاكبول بموهبة عظيمة ، وتدل روايه « سوق العفاريت » التى تصور لنا عذاب رجل كهل مع عاهرة صغيرة من لندن على أنه كان من الممكن أن ينجح فى الرواية الاجتماعية نجاحا عظيما .

وهناك الرواية الاقليمية ، أخت الرواية الاغترابية ، وقد نالت استحسان الجمهور منذ النجاح الذى أصابه توماس هاردى ، فلا تكاد تجد منطقة انجليزية إلا لها قصصها . وأوفر هذه الأقاليم حظا أقاليم أيقوسيا .

وقد حصل آرنولد بينت على الشهرة (١٨٦٧ — ١٩٣١) دفعة واحدة إذ صور فى رواياته الأولى مسقط رأسه ، ستافوردشير ومدنها الخمس ، هذا البلد المظلم الدميم الذى يبلغ من السعة والتحطيم أن دمامته تنقلب إلى جلال ، هذا البلد الذى يمتزج فيه احمرار الشفق بنار الأفران وينعكس اللهيب على صفحات القنوات الرهيبة السود ، هذا البلد الحزين الذى لا تعرف أرضه الخضرة ، وتعيش فوقه بورجوازية رتيبة صارمه بخيلة نمامة . إن روايات المدن الخمس (ولاسيما قصة « الزوجات العجائز ») مصطبغة جميعا بلون رمادى قاتم ولكنها لرماديتها تؤثر فى النفس . إنه ليشق عليك أن تأتى

على آخرها، ولـكنك لا تنساها مدى حياتك .

وهناك محاوله شائقة حاولها أخيراً ج . ب پرستيلى (ولد عام ١٧٩٤) (الأصحاب الطيبون) لإصلاح هـذه الرتابة الكامدة ، فمزج الرواية الاقليمية برواية التشرد التى كان قد أوجدها بورو .

وهناك الرواية الاجتماعية أو رواية الأخلاق والعادات فى وسط معين . وقد احتلت هذه الرواية بعد الحرب مكانة هامة جداً . ويبدو أنها الآن بسـبيل افتقاد هذه المكانة . ومن أهم كتاب هذه الرواية اسرائيل زانجويل (١٨٦٤ — ١٩٢٦) : وصف حياة اليهود فى « أحياء لنـدن » وصفا حيا ملونا ، — جون جولسويرثى . فرض الإعجاب به على الأدباء بسلسلة من اللوحات الوصفيـة الضخمة ، تصور تطور البورجوازية الفكتورية والإدوارديه والچورچيـة (١٨٧٥ — ١٩٢٥) ، وكتابه الأساسى و « قصة فورست » وهي ملحمة تصور روح التملك فى قصة مالك يدعى سومز نورست يبنى بيتاويحبس فيه امرأته إيرين، وعبثا تحاول المرأة أن تقاوم : إن الحب ، والزواج ، والعائلة ، والوطن ، والفضيلة والدين ، والسعادة كل ذلك يتلخص فى نظر البورجوازى

الكبير وبكلمة واحدة : التملك . وإن ملحمة حرب البوير لهى القمة التى بلغتها هذه الروح .

تتغير العقلية بدخول القرن الجديد ويستيقظ سومز فجأة وسط الأنقاض ،فى عالم مجهول، كأنه إنسان نام مائة سنة أو يزيد ، فالبيت العظيم الذى كان ينبغى أن يكون قصراً إقطاعياً يعرض للإيجار — . . وتهرب إيرين العروس . . . ولا يبقى إلا رجل يحتضر .

إن المجتمع الانجليزى يتغير بسرعة عظيمة فلا يستطيع جولسورثى أن يقاوم رغبته فى إحياء أبناء وأحفاد فورست المختلفين عن أسلافهم جد الاختلاف فيكتب قصة ثانية(« القرد الأبيض » ، « ملعقة الفضة » ، « غناء البجعة ») ، بطلتها المركزية هى فلور بنت سومز وهى امرأة طماعة متحذلقة متحررة . وصفها جالسورثى وصفاً دقيقاً . وعلى كل حال فقد قام جولسورثى بعمل تاريخى ،فترك لنا وثائق إنسانية هامة . وما كان يعوزه حتى يكون كبلزاك إلا قليل من قوة البناء. ويزداد توفيقه عندما يكتب روايات قصيرة مثل « أخوة » . ويظهر أنه كان يخبىء فى أعماقه شخصية شاعر : فما أروع تلك الصفحات التى يصف فيها ضوء القمر فيشبه انبثاقه المفاجىء

بؤثبة سرب من الحمام الأبيض ، أو تلك الصفحات التي تصور البوم وهو يتعب لائذا بحمى الظل .

وهناك طائفة الروائيين الذين اشتهروا بالصعوبة ، وهؤلاء عددهم كبير ، وهم من عشاق الجمال والمفكرين ومن يسبرون أغوار اللاشعور ويعرضون الدقائق النفسية . نذكر منهم دوروثى ريتشاردسون (« سقوف مسننة » ١٩١٦) وفرانك سوينرتن (ولد عام ١٨٨٤) وكليمانس دين وقد كان في أول أمره أدنى إلى السهولة والكلاسيكية . وأهم آثاره « الأسطورة » (١٩٢٠) — وأخيرا وخاصة فرجينيا وولف وألدس هكسلى . وهؤلاء الكتاب جميعاً يتأثرون بستيرن وچويس وبكتاب الطليعة الفرنسيين أمثال پروست وجيرودو وغيرهما .

أما مسز وولف فكأنها لا تؤمن بتقسيم للحياة غير تقسيم دقات الساعة . أبرز كتبها رواية « مسز دالاوى » (١٩٢٥) تدور حوادثها في وستمنستر بين الساعة العاشرة صباحا والساعة الثالثة من صباح اليوم التالى ، وساعات بج بن وسان مارجارت هي التي تدق مختلف مراحل الرواية . أضف إلى ذلك أن الرابطة الوحيدة التي يمكن أن تجدها بين الاستطرادات هي رابطة زمنية صارمة ، كما أن أشخاصها الذين يعيشون قريبا

بعضهم من بعض فى الزمان والمكان تتشابه حياتهم فى الواقع رغم اختلافها فى الظاهر فإنهم جميعا يعيشون حياة عقيمة فارغة. وأخيرا فإن الرواية تجرى فى أدمغة أبطالها ومن هنا نرى إسرافا فى الحوار الداخلى يؤدى إلى إسراف فى الملاحظات الرجعية .

وقد ارتفعت مسز وولف فى روايتها إلى أفق الرمز،وهى ترسم فى هذه الرواية تاريخ بيت على شاطىء البحر ، وتاريخ الأسرة التى تسكن هذا البيت فى الصيف ،فتصور الطفل وهو يحلم ببلوغ المنارة التى تضىء من بعيد على الجانب الآخر من الخليج . ثم يصبح الطفل رجلا ويحقق حلمه فإذا هو يتبين أن هذا المنبع الضوئى ليس إلا برجا عاريا فوق صخرة عقيمة .

أما ألدس هكسلى (ولد عام ١٨٩٤) فهو سليل هكسلى البيولوجى العظيم . . وهو ناقد موسيقى موهوب ، وقد كتب عدة روايات ، غير أن قراءة هذه الروايات أمر شاق ، فهو يبحث عن موضوعه طويلا قبل أن يجده : يتناول بعض الشخصيات فيدرسها ثم يطرحها ثم يتناول غيرها وهكذا دواليك . ومؤلفه الرئيسى هو رواية « المعزوفة » وهى فاشلة كرواية لكنها كتاب ضخم بلا جدال . فيها هجاء وحشى للطبقة الاجتماعية العالية العاطلة عن العمل . ويظهر أن هكسلى إذا اقتصر

على الأقاصيص الطويلة مثل (بعد النار المصطنعة) لابد أن يتحفنا بمؤلفات من عيون الآثار .

ونذكر فى الختام روائيا يحقق التوازن بين الاتجاهات الرئيسيةالمعاصرة ،وهو ج ـ د برسفورد (ولدعام١٨٧٣) : إن هذا المهندس القديم يعرف كيف يبنى روايات متماسكة ، على الطريقة الفرنسية ، وهو يمتاز إلى جانب قدرته على البناء بشغف قوى بالأسلوب ، حتى ليمكن أن نقول إنه قل بين الكتاب الأحياءمن أتيح له ما أتيح لبرسفورد من مواهب. لقد أوجد شخصية جديدة : شخصية الانجليزى الحساس ، الخجول الذى يكاد يكون امرأة فى طباعه وفرط حساسيته ورهافته ، ولكنه عنيدإلى حد البلادة ،قادر علىالقيامبأعمال بطولية حتى يجرح حس العدالة عنده (« جاكوب ستال »). وفى مقابل هذه الشخصية خلق برسفورد شخصية أخرى هى شخصية الانجليزية المترجلة العنيفة المنطلقة المتحللة من كل ما تواضع عليه الناس .

وقد ألف برسفورد روايات ينافس فيها ولز مثل رواية «Goslings»وهى قصة وباء يجتاح العالم ويفنى جنس الذكور ، ومثل رواية « أعجوبة هاميدنشير » وهى قصة شخص غريب مصاب بالهيدروبيسيا ، عبقرى ، يتقدم الإنسانية بعشرقرون

إلى الأمام ، وكان يمكن أن يقلب العالم لولا أن الطفل الوحيد الذى لم يكن يخاف منه ،وهو طفل فقير معتوه . دفعه وهو يلعب ،إلى غدير عميق .

وتظهر عبقرية برسفورد فى صورة أوضح حين يكون روائياً نفسياً وواقعياً ، فيدرس، حالة مريض العطش (فى « بيت ديمتريوس رود ») وحالة رجل ذى غرائز جنسية منحرفة ترده إحدى البغايا إلى الحب السوى ، وحالة رجل مليونير ترعبه مسئوليات الثروة وتعقيدات الحياة الاجتماعية (كل شىء أو لا شىء) . وهو يبرع فى وصف الرجل الذى يتعب من المواضعات ومن الطرق المعبدة فيحاول أن يشق طريقاً جديداً وان يقلب حياته رأسا على عقب . هذا ولا يقل برسفورد أصالة حين يأخذ بالتحليل النفسى المحض، فيصف لنا فى كتابه « رفاق المنزل » علاقات جماعة يسكنون فى منزل مؤثث . ولا شك أن رواية « وهم الحب» أجمل تحليل عرفناه لحب المراهقين

هنا تقف مهمة المؤرخ . ولكن ما من يوم ينقضى إلا ويطالع علينا أدباء انجلترا بكتب جديدة تبرهن على حيوية العبقرية البريطانية . لم يكف بريطانيا أن حازت قصب السبق فى الشعر والدرامة فهى تحاول اليوم أن تفرق تفوقها فى حلبة فن الرواية .

فهرس الأعـــلام

(ى)